كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل
المعروف بالراغب الأصفهاني
(المتوفى ٥٠٢هـ)

تحقيق ودراسة

أ. د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي
الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية

الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد بن المفضل ،
٠٠ - ١١٠٨ .
كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة / لأبي القاسم الحسين
ابن محمد بن المفضل [الراغب الأصفهاني . مستعار] ؛
تحقيق ودراسة : أبو اليزيد أبو زيد العجمي . - ط١ - .
القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ،
[٢٠٠٧م] .
٣٦٨ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ١ ٤٣٩ ٣٤٢ ٩٧٧ .
١ - الأخلاق الإسلامية . ٢ - الشريعة الإسلامية .
أ - العجمي ، أبو اليزيد أبو زيد (محقق) .
ب - العنوان .
٢١٢

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمْر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية .
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +) .
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +) .
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩ .
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إهداء

• إلى كل من أسهم في تقديم عون أجراه الله على يديه لي .

• إلى أبواي عرفانًا بما قدما ، ورجاء أن أكون عملًا صالحًا لهما .

• إلى صديقي محمد حسني عبد العزيز الذي زكّى اختياري لهذا العمل ورحَل قبل أن يراه .

• إلى زوجتي وأبنائي الذين قدموا من حقوقهم شدًّا للأزر ومسحًا للعرق .

• إلى كل عالم قدَّم نصحًا ، وباحث أفدت منه ، ومناقش أثرى الرأي .

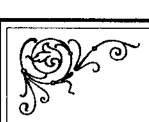
• إليهم جميعًا أهدي هذا العمل الذي يستحق صاحبه الراغب الأصفهاني كل إشادة وتقدير .

وأرجو الله القبول

والتسديد

أبو اليزيد أبو زيد العجمي




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

ما أبصرت عيني وما كتبت يدي مثل الذريعة في الشريعة دفترا

فرغ فؤادك لالتقاط شذوره واهجر لحفظ فصوله طيب الكرا

لا تشتغل بسواه عنه فكل ما تبغيه من صيد ففي جوف الفرا




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

أَحْمَدُ اللَّه وأستعينه وأستهديه وأسترضيه وأستفتحه وأستمنحه ، وأعوذ به سبحانه من فتنتَي القول والعمل ، وأصلي وأسلم على خير خلقه مُحَمَّدٍ النبي الأمي الذي وَرَّثَ الأمة نور الوحي وحكمة الفهم والبيان .

وفي مقدمة هذه الطبعة أحب أن أُذَكِّرَ بثلاث إشارات :

الأولى : أن هذه الطبعة تخرج للنور في ظل حركة دائبة للأمة ، تبحث فيها كيف تتعايش ثقافتنا الإسلامية مع الجو المشحون بتيارات فكرية مختلفة المناحي متعددة الاتجاهات ، وكأني بنا نرى أن أقرب الطرق للحفاظ على هويتنا في ظل العولمة أن نعيد قراءة تراثنا ، وأن نحسن توظيفه في حياتنا وفي تراثنا الذي يستمد ثقله من مصادرنا الشرعية (الكتاب والسنة) ضوء نحتاجه للدرب الذي نسيره الآن ونستشرف من خلاله - غدًا - للأمة ما يعيد لها ما كان لها من قبل من عطاء حضاري وأخذ بيد الإنسانية نحو الأمثل والأفضل .

الثانية : أني حمدت اللَّه تعالى وأحمده كثيرًا على نعمته ، على حين تلقيت عددًا هائلًا من الرسائل من شتى البلدان الإسلامية والعربية تثني على موضوع الكتاب وتدعو لمؤلفه ومحققه ، لكن سعادتي زادت حين علمت أن مجالس علم كثيرة يرودها شباب تقرأ هذا الكتاب وتدرسه وتدير نقاشًا حول كثير من محتواه طريقًا لتوظيف ما يحصلونه في توجيه إخوانهم الشباب ، فللَّه درهم وله الحمد والمنة على أن فتح بهذا العلم قلوبًا وأنار بصائر .

الثالثة : أن هذه الطبعة قد تأخرت بعد أن نفدت الطبعة الثانية وكان بعض القراء الكرام يسألون عنها بشغف وحرص شديدين ، فمن حقهم أن نعتذر لهم وأن نجيبهم إلى طلبهم سائلين اللَّه ﷻ أن يجعلهم نقلة للعلم وسدنة لحاجة الأمة وعونًا لها على عودة واعية نحو تراثها المنبثق من كتاب اللَّه وسنة رسوله ...

وقد رغبت دار السلام في أن تضع الذريعة بين قوائمها المباركة وحقها أن تُشْكَرَ ؛ لأنه لا يشكر اللَّه من لم يشكر الناس .

واللَّه المستعان ....

أبو اليزيد أبو زيد العجمي

الكويت في ٢٧ صفر ١٤٢٧هـ
٢٧ مارس ٢٠٠٦م

* * *

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد اللَّه حمدًا يليق بجلاله ، وأشكره كما علَّمنا طلبًا لرضاه ، واستدامةً لفضله ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد ﷺ الذي علَّم البشرية كيف تعبد ربها ، وتعيش حياتها واقعًا تسمو به إلى آفاقٍ ، خَلَق اللَّه الإنسان من أجلها ، بعد هذا أحيِّي الحسَّ المسلم الذي يلتقط الخير من ميراث النبوة وعِلْم علماء الإسلام .

وحين قدمت كتاب « **الذريعة إلى مكارم الشريعة** » للراغب الأصفهاني في طبعته الأولى كنت أحدس بهذا ، لكن نفاد الطبعة الأولى في وقت جاوز السنة بقليل أكد حدسي ، وصادق على فهمي وحسي ، فللَّه الحمد والمنَّة ، وأرجو أن ينفع اللَّه القارئ بما في ذخائر تراثه المستلهم لكتاب اللَّه وسنة رسوله ، ولملابسات في الطبعة الأولى وقعت بعض الهنات ، وجاء الكتاب خلوًا من الفهارس العلمية التي تسهل الإفادة منه ؛ لذا رأيت أن أتدارك ما فاتني قدر الطاقة ، فصحَّحت الأخطاء ، وأضفت الفهارس ، وحقَّقت بعض ما كان موضع ظنٍّ عندي وبخاصة في مسألة النصوص .

ومن الحق أن أقرِّر أن بعض العلماء من المحبِّين لخدمة التراث كتبوا إليَّ بآرائهم وبها من الخير الكثيرُ ، فأفدت من علمهم وأشرت إلى ذلك في مكانه من الكتاب ، ولا أزعم أني غيَّرت كثيرًا في متن العمل ، ولكن الإشارات التي جاءت في بعض الهوامش ذات دلالة توثيقية ، وشكر اللَّه لمن أفادني فأفاد القارئ المسلم من خلالي ، وشكر اللَّه للقائمين على أمر الكتاب طباعةً ونشرًا ، وشكر اللَّه للقارئ حسن استقباله لجهد العلماء والباحثين .

وأسأل اللَّه المثوبة في الدنيا والآخرة ، وأن يجعل عملنا كلَّه خالصًا لوجهه ، إنَّه سميع مجيب .

واللَّه المستعان ...

أبو اليزيد أبو زيد العجمي

جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ

في حدائق حلوان ينـاير سنة ١٩٨٧م

* * *

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد اللَّه الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ، وأعوذ به من فتنتَي القول والعمل ، وأصلي وأسلم على خير خلقه محمد بن عبد اللَّه ﷺ ، أُمِّيٌّ حمَّله اللَّه ما تحدَّى به بلغاء العرب ، ومنحه اللَّه علمًا ورَّثه للعلماء الذين تأدَّبوا بأدبه وتخلَّقوا بخلقه .

ولأن العلم ميراث النبوة لنا كان علينا أن نحرسه ونسهر عليه حتى يصل مَن بعدنا نقيًا حاملًا خصائص مصدره من الكتاب والسنة ، والعمل في هذا المجال واجب تأثم الأمة بتركه ، وهو ضرورة تفرضها طبيعة الاضطراب الذي يحلُّ بالمسلمين في فترات ضعفهم نتيجةً لبعدهم عن تمثل الإسلام كما أراده اللَّه للناس كافة .

من هذا الفهم وجدتني مدفوعًا للقيام بتحقيق كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » بعد أن أتيح لي صحبته والتعرف على فكر صاحبه الراغب الأصفهاني فترة طويلة ، وفي ظروف تسمح بتكوين رأي حول أهمية الكتاب ، وضرورة خدمة فكر صاحبه لشدة ارتباطه بالقرآن والحديث من جهة ، ولكون بعض الدارسين لم يوفوه حقه من جهة أخرى ، فحتى أولئك الذين أخرجوا له كتبًا كـ« المفردات » أو « تفصيل النشأتين » لم يقدموها للقارئ محققة جلية ، بل اكتفوا بتحرير النص من نسخة صادفتهم دون البحث عن نسخ أخرى ليخرجوا لنا نصًّا صحيحًا ، وكنت قد لاحظت في عبارات « الذريعة » في نسخه المطبوعة خللًا استبعدت أن يكون الراغب الأصفهاني اللغوي المفسر الحكيم سببه ، كما لاحظت أن معالجة الراغب لقضايا الأخلاق في « الذريعة » محاولة لم يسبقه إليها غيره ؛ لأنه لم يعالج القضايا الأخلاقية كما رسم أطرها النظرية ابن مسكويه نقلًا عن اليونان ، بل عالجها من خلال الآية والحديث النبوي مقدمًا لذلك ببيان المعنى اللغوي ، رابطًا إياه بما يستدلُّ به ، وكأنه إعلان عملي عن إمكانية أن يكون للمسلمين علم أخلاق بقضاياه ومفاهيمه دون حاجة إلى أخذه من غيرهم .

هذه الأسباب كلها : الإيمان بالواجب ، ورسالة العلم ، واضطراب المطبوع من الكتاب ، وأهمية الموضوع ، جعلني أستعذب العمل في تحقيق هذا السفر الكبير ، ومقابلته على نسخ ثلاث ، معلقًا بالبيان أو التفصيل حين يقتضي الأمر ذلك ، مخرِّجًا الأحاديث التي شارفت على المائتين ، ومحدِّدًا مكان السور والآيات التي وردت في النص .

وقدمت لهذا النص بمقدمات دراسية استوعبت - مع الإيجاز - بيان ظروف

الدراسات الأخلاقية ، وحياة الراغب الأصفهاني وما أثارته من قضايا ، كما تحدثت عن الكتاب في موضوعه وظروف طباعته وبواعث تحقيقه بشيء من التفصيل .

ولا أزعم أني قدمت ما لا يستدرك عليه فالنقص من صفات البشر ، وإن كنت قد رأيت أن هذه الدراسة ضرورية لكنها لا تغني عن عمل مستقل يتضمن كثيرًا من مسائل المنهج ودواعي المقارنة .

وحسبي أن عملي كان منطلقًا من إحساس بما يجب عليَّ تجاه هذا الفكر وصاحبه ، فإن أصبت فللَّه الفضل والمنَّة ، وإن كانت الأخرى فأسأل اللَّه أجر المجتهد .

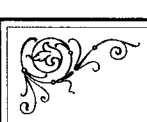
ولا يفوتني أن أقدم الشكر للَّه سبحانه أن قيَّض لي علماء وزملاء ودارسين أفدت منهم في عملي هذا ، وأخفي أسماءهم حسب رغبتهم سائلًا اللَّه ﷻ أن يجزيهم عني وعن الفكر الإسلامي الأصيل خير الجزاء .

واللَّه المستعان ...

أبو اليزيد أبو زيد العجمي

الرياض في ٢٧ من صفر ١٤٠٤ هـ

* * *




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

مدخل : تعريف بالراغب الأصفهاني وكتابه « الذريعة » :

- مسوغات الاهتمام بالراغب الأصفهاني وكتابه « الذريعة » .
- الراغب الأصفهاني .
- الذريعة إلى مكارم الشريعة .




مدخل : تعريف بالراغب الأصفهاني وكتابه الذريعة

مسوغات الاهتمام بالراغب الأصفهاني وكتابه « الذريعة » :

تهيَّأ لي أن ألاحظ خلال بحوثي في علم الأخلاق الإسلامية عدَّة ملاحظات أشير إليها هنا بإجمال ، وإن كنت قد أفردت لها بحثًا مستقلًّا به بعض التفصيل [١] ، والإشارة إليها هنا تأتي في باب التسويغ العلمي لعمل دراسة موجزة عن الراغب الأصفهاني وكتابه الذي نقدمه محققًا - لأول مرة - للقارئ المسلم ، هذه الملاحظات هي :

أولًا : المتأمل لمجموع الدراسات التي قدمت في مجال علم الأخلاق في هذا القرن - مع تنوع اتجاهاتها من بحث يتحدث عن السلوك بطريقة وعظية إلى بحث يحصر نفسه في مشكلة أخلاقية لدى المعتزلة أو لدى الزهَّاد أو لدى شخص بعينه كالغزالي وابن تيمية مثلًا [٢] - يجد أن هذه البحوث مع الجهد المبذول فيها ومع أن بعضها نال درجة علمية طيبة ، يجدها قد فصلت بين القرآن والسنة والمفاهيم النظرية لهذا العلم .

وكأنَّ هذا العلم لا يقوم إلا على مفاهيم أخذها الفكر الإسلامي من اليونان في هذا الصدد . بل إن بعضهم فهم الأمر على هذا وصرَّح به ، فالأستاذ أحمد أمين في كتابه الأخلاق - وهو من أقدم ما كتب في هذا المجال - يقول : إن الإسلام لا يعرف المذاهب الأخلاقية معللًا ذلك بأنَّ القرآن والحديث كفيا المسلمين النظر في المسائل الخلقية ، وأن ما في القرآن والحديث من توجيهات أخلاقية لا يصلح لإقامة مذهب أخلاقي بالمعنى الفلسفي ؛ إذ لا يعدو أن يكون طائفة حِكَم وأمثال ومواعظ [٣] .

وقد كان لهذه النظرة آثارها الضارَّة حيث حَرَمَتْ هذا العلم أن يمدَّ جذوره في الأصول الإسلامية ، وبذلك لا يكون له ذات مستقلة تميِّزه عن غيره ، بل أصبح هذا العلم

---

(١) انظر : ملاحظات على الدراسات الأخلاقية الحديثة في ضوء مهمة التاريخ لهذا العلم ، حولية دار العلوم ، العدد الحادي عشر ، لكاتب هذه السطور .

(٢) كمجرد أمثلة انظر : أحمد أمين : الأخلاق . محمد يوسف موسى : فلسفة الأخلاق في الإسلام . محمد عفيفي : الأخلاق عند ابن تيمية . محمد الجليند : مشكلة الخير والشر لدى المعتزلة . محمود قراعة : الأخلاق من الحديث ، وفتاوى ابن تيمية .

(٣) أحمد أمين الأخلاق (١٥٧) الطبعة الأولى .

كأنه خَلْقٌ عجيبٌ يعلن إسلاميته ، ولكنه يقيم الدليل على ذلك من فكر غير إسلامي .

وإذا كان أرسطو - أكبر فلاسفة الأخلاق عند اليونان - قد أبعد الذات الإلهية والإيمان بها عن مجال الأخلاق فإن كل الدراسات التي تعمقت هذا الجانب تقرر أن الدين هو المصدر الأساسي لاكتشاف القواعد الأخلاقية [١] .

ويقرر ذلك باحث غربي فيقول : « وسواء نظرنا إلى الشريعة الموسوية أم إلى الشريعة النصرانية فإننا نجد مبدأً لا نزاع فيه هو : أن الإنسان لا شأن له باكتشاف القواعد الأخلاقية ، وما عليه - إذا أراد معرفتها - إلا أن يتَّجه نحو النصوص المقدسة يقرؤها ويتدبرها » [٢] .

وهذا الأمر أوضح بصفة خاصة في الإسلام منه في غيره ، إذ في القرآن الكريم حديث عن الفضائل يدور قلة وكثرة بحسب الحاجة إلى الفضيلة - موضع الذكر - وإلى تنوع مجالاتها ، فمثلًا تتردَّد مادة « الصبر » في القرآن مائة مرة تقريبًا ، وما ذلك إلا لأثرها في تكوين الشخصية المجاهدة التي يجب أن تتحمَّل الأعباء فهي تحتاج إلى فضائل تمنحها الأمن والسكينة ، وهذا أمر تقتضيه طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان [٣] .

وعلى غرار الفضائل يتضمن القرآن أطرًا محددة للشخصية الخلقية ، ولمعايير السلوك وغيرها من المفاهيم التي اصطلح أهل العلم عليها كموضوع للعلم ذاته .

وما ينطبق على القرآن نجده في السنة ؛ إذ تضطلع ببيان كثير من المفاهيم التي ذكرنا ، بل إن بعض المحدثين أفردوا كتبًا للآداب والفضائل [٤] .

وإذا كان هذا هو حال الكتاب والسنة في الاهتمام بالأخلاق فإن استبعاد وجود مفاهيم نظرية تؤسس علم الأخلاق من خلال الكتاب والسنة أمر لا يوافق الحقيقة ولا توافقه .

ويتأكد لدينا هذا حين نعلم أن هناك دراسات في مجال علم الأخلاق أبرزت ثراء الأصول الإسلامية بالمفاهيم الخلقية ، ففي المكتبة الإسلامية كتب منها « دستور الأخلاق

---

(١) د . توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها (١٣٨) (طبعة ١٩٦٧م) .

(٢) أندريه كرسون : المشكلة الأخلاقية (١/ ٩٢) . ترجمة د . عبد الحليم محمود وأبو بكر ذكري (طبعة ثانية) .

(٣) محمد عزت دروزه : الدستور القرآني في شؤون الحياة (٥٢٥) (طبعة الحلبي) (١٩٥٦م) . والكسيس كاريل : تأملات في سلوك الإنسان (٨٨) . ترجمة د . محمد القصاص (طبعة ١٩٤٩م) .

(٤) البخاري : الأدب المفرد . أحمد بن حنبل : الزهد . علاء الدين الهندي : كنز العمال .

في القرآن الكريم » وفيها « الفضائل الخلقية في الإسلام » و « الاتجاه الأخلاقي في الإسلام » فقد اضطلعت الدراسة الأولى - وهي عمل علمي نال به صاحبه درجة الدكتوراه من جامعة السوربون - ببيان المفاهيم النظرية لعلم الأخلاق من دلالات النصوص القرآنية [١] .

واهتمت الدراسة الثانية - وهي بحث للحصول على درجة الدكتوراه - ببيان الفضائل كمِّها وكيفها من الكتاب والسنة [٢] .

أمَّا الدراسة الثالثة فقد كانت موضحة للمفاهيم النظرية لعلم الأخلاق ومبرزة لها في الاتجاه الإسلامي مقارنًا بما كتبه الفلاسفة في الشرق والغرب في هذا الصدد [٣] .

وإذا كان الأمر كذلك فإن علينا أن نفهم أن تقسيم أرسطو للفضائل ، وتحديده للمفاهيم ليس ملزمًا لنا فضلًا عن حاجتنا إليه ، ومع هذا فيحق لأي باحث أن يقول : « لم ينتج الفكر الإسلامي فلسفة أخلاقية ، تلك هي وجهة نظر الباحثين ، ولست أذهب إلى مخالفتهم ، وإنما أضيف إلى القضية السابقة عبارة : بالمفهوم الأرسطي للأخلاق » [٤] .

وقد أخذ فريق من علماء الأخلاق المسلمين القدامى بالتقسيم الأرسطي في الشكل حيث جعلوا الفضائل أربعة : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل ، ويندرج تحتها ما عداها كفروع .

لكن هؤلاء حين أخذوا بهذا الشكل من التقسيم ملأوا فراغه بفهم جديد وحشدوا العديد من الآيات والأحاديث ، للتدليل على فهمهم [٥] .

ولعل وقوع هؤلاء الأعلام في هذه الشباك هو الذي خلب أنظار الدارسين المحدثين فظنوا أن علم الأخلاق لا يكون إلا حيث المحاكاة لكل ما هو يوناني ، حتى وإن أدَّى

---

(١) د . محمد عبد اللّٰه دراز : دستور الأخلاق في القرآن ، كتبت بالفرنسية (١٩٤٧م) ، وترجمت إلى العربية (١٩٧٣م) نشر مؤسسة الرسالة .

(٢) د . أحمد عبد الرحمن إبراهيم : الفضائل الخلقية في الإسلام ، صدرت مطبوعة (١٤٠٢هـ) بالرياض نشر مكتبة دار العلوم .

(٣) د . مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، الخانجي بمصر (١٩٧٧م) (وهو بحث ماجستير) .

(٤) د . أحمد صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي (١٩) .

(٥) لعل أبرز الأمثلة على هذا : الماوردي في أدب الدنيا والدين (ت ٤٥٠ هـ) والأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) .

ذلك إلى البعد بهذا العلم عند المسلمين عن الكتاب والسنة .

ثانيًا : الغالب على مجموع الدراسات الأخلاقية أن الكُتَّاب عَدُّوا بداية الفكر الأخلاقي لدى المسلمين عند ابن مسكويه (ت٤٥٦هـ) ، وهذا التحديد الزمني يتجاهل أعلامًا وكتابات في قرون سبقت ابن مسكويه ، ولا يمكن تجاوزها ، ونحن نرصد حركة هذا العلم وجذورها في الفكر الإسلامي .

نذكر على سبيل المثال لا الحصر : الحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٢٤٥هـ) ، والجنيد ابن محمد البغدادي (توفي ٢٩٨هـ) ، والحكيم الترمذي محمد بن علي (توفي ٢٨٥هـ) ، وأبو سعيد الخراز (توفي ٢٨٦هـ) . وغير هؤلاء كثيرون .

ففي كتابات هؤلاء - المطبوع منها والمخطوط - مفاهيم واضحة لها من الأصول الإسلامية ما يبعدها عن الشبه بالمفاهيم اليونانية [١] .

فلقد تحدثوا عن الشخصية الخلقية ، وعن الفضائل والرذائل ، وعن السلوك الأخلاقي ، وربطوا هذه المفاهيم وغيرها بواقع المسلمين طلبًا لإرجاعهم إلى حياة المسلمين في عهدهم الراشد ، وها نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة التي تؤكد وجود مفاهيم أخلاقية إسلامية تصلح أساسًا لعلم له خواصٌّ تميزه عن غيره .

يقول الحكيم الترمذي في كتاب الأكياس والمغترين : « فالمغتر في طلب العلم هو من يطلبه للنزهة أولًا ، وليسمع من شيوخ يفخر بهم ثانيًا ، ثم إذا علَّم يعلم للمظهرية والرياء ، ويعجب بعلمه ويقول : أعلِّم الناس وأهديهم ورأيي خير من رأيهم ... » [٢] .

ثم يقول وهو يحدد الفروق بين الفضائل والرذائل : « الفرق بين المجاهدة والصرامة ؛ المجاهدة أن تقوم برياضة النفس وتأديبها ، فإن زاغت ألزمها الجهد في روغانها حتى يعجزها توخيًا لإقامتها على سوء الفهم .

والصرامة أن تتصرَّم لها في الظاهر فتقطع عنها العيش الرخي ، وتأخذها بالبؤس ،

---

(١) انظر المحاسبي : الرعاية لحقوق الله ، ورسالة المسترشدين ، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح . وللجنيد البغدادي : رسائل الجنيد . وللحكيم الترمذي : الفروق ومنع الترادف ، والرياضة وأدب النفس . ولأبي سعيد الخراز : كتاب الصدق ، تحقيق د . عبد الحليم محمود . وجميع ما ذكرنا مطبوع منذ سنوات تناهز العشرين .

(٢) كتاب الأكياس والمغترين (ورقة ٤٤) مخطوط بجامعة القاهرة .

وتلزمها بالقيام على محاسن الأفعال ، وتحملها على الصعاب تجلدًا أو تكايسًا »[١] .

ولعل هذه الإشارات تؤكد خطأ من ذهب إلى جعل ابن مسكويه علامة على هذا العلم ؛ لهذا ولغيره يجب على من يكتب في تاريخ هذا العلم مستقبلًا أن لا يغفل دور هؤلاء في علم الأخلاق الإسلامي .

ثالثًا : غلب على كثير من الدراسات الأخلاقية طابع حصر الفكر الأخلاقي في الإسلام في اتجاهات معينة ، فبعضهم عدَّ ابن مسكويه وإخوان الصفا أبرز ما يمثل الفكر الأخلاقي في الإسلام [٢] ، وبعضهم يذكر المعتزلة والصوفية كقمَّتين بارزتين في هذا الصدد [٣] .

وبعضهم يسير مع تقسيم الدراسات الفلسفية ، فلعلم الكلام نصيب ، وللفلسفة المشائية نصيب ، وللتصوف نصيب ثالث [٤] ، وربما أضيف إلى ذلك الأصوليون .

وهذا المسلك – مع ملاحظة الفروق بين الباحثين والآخذين به – لا نوافقه ونبدي عليه ملاحظتين اثنتين :

أ – أنه لا يفرق بين النص الإسلامي (القرآن والسنة) والفكر الإسلامي . فالمعلوم أن النصوص الإسلامية قدمت مادة ثرة لتأصيل قضايا هذا العلم رابطة إياها بالغاية العملية منه ، والفكر الإسلامي يوزن بقدر تطابقه مع هذه النصوص أو عدم تطابقه .

لذا فإن حصر الإسلام في طوائف معينة هو نوع من تجاهل ما جاء في الإسلام وهو شامل للعالمين ، ثم هو قضاء لفئة بالتحيز دون أن يكون لها ذلك على وجه الحقيقة ، ولو ملكت ما تتميز به فليس لها أن تحجر على غيرها أو تحرمه حقًّا أعطاه الإسلام إيَّاه في باب الدعوة إلى التعلم والتفكر .

ب – أن هذا الحصر يتجاهل كتابات مهمة في علم الأخلاق الإسلامي ، ويمكن السؤال : أين نضعها إزاء هذا التحديد بالاتجاهات المعينة سالفة الذكر ؟

فكتابات ابن حزم الأندلسي (ت ٤٢١ هـ) في كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » تقدم لنا نموذجًا من التجربة العملية التي تؤكد إمكانية مقاومة الرذائل لتحلَّ

---

(١) الحكيم الترمذي : الفروق ومنع الترادف (ورقة ٦٠) مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٨١٦) .
(٢) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام (٢/١٧٥) الطبعة الأولى .
(٣) انظر د . أحمد صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي (٥٥ – ٩٠) .
(٤) انظر د . محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق في الإسلام (١٥ – ٩٥) .

محلَّها الفضائل ، وهذا النمط يفيدنا حين نبحث مسألة تغير الخلق بين المؤيدين والرافضين ، ويفيد في مبحث أثر البيئة والتنشئة والصحبة في أخلاق الفرد المسلم ، وهي معانٍ أصيلة في الفكر الإسلامي .

أما أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت٤٥٠هـ) فله كتاب مهم - تجاوزه منهج الحصر - في اتجاهات معينة ، والكتاب هو « أدب الدنيا والدين » وهو كتاب له مكانته في باب الأخلاق الاجتماعية أو ما سماه هو « أدب المواضعة » ويصف الكتابَ محقِّقُه فيقول : « هو لا يتعرض للأصول الأخلاقية من الوجهة النظرية كالوراثة والبيئة والغرائز والأمزجة والعادة وما إليها ، وإنما يعول على ما في القرآن والسنة من آيات وأحاديث تحثُّ على الفضائل وتنهى عن الرذائل ، ثم يعول بعد ذلك على التراث الأدبي العربي والتراث الأجنبي القديم » [1] .

ومما يؤكد أهمية الماوردي في علم الأخلاق أنه كان يتصور الموضوع الأخلاقي ثم يحدد مسائله ويدلي فيه بحثه ، ثم يؤيد ما ذهب إليه من القرآن والحديث والأدب ، ولعله بذلك قريب من منهج الفقهاء وهو واحد منهم ، ولا ننكر أن عدوى العصر لم ينج منها فوجد عنده بعض الآثار اليونانية لكنها قليلة بل نادرة ، أما الأعم الأغلب من مباحث الكتاب ، مثل : أدب العلم وأدب النفس وأدب الدين ، فإنه صميم الأخلاق الدينية القائمة على الكتاب والسنة .

كذلك فإن هذا الحصر أدى إلى تجاوز واحد كالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ) في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » حيث اشتهر بعلم اللغة ، وبالتفسير ، ولكن أحدًا من الذين حصروا الاتجاهات فيما سبقت الإشارة إليه لم يفطن إلى مكانة هذا ووضعه فيها ، مع أن الذين ترجموا للراغب الأصفهاني قالوا عن كتابه « الذريعة » : إن الغزالي (ت ٥٠٥هـ) كان دائمًا يحمله معه في حِلِّه وترحاله [2] ، وهذا معناه أن أثر الكتاب على الغزالي يحتاج إلى تأمل ، فإن كانت الإجابة بالإيجاب كان الاستغراب في وضع الغزالي هذا الموضع ثم تجاهل أستاذه والمؤثر فيه .

على أية حال هذه نقطة تخضع للبحث والدرس ، غير أنَّا اعتبرناها علامة على أهمية الراغب : فكره الأخلاقي وكتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » .

---

(١) انظر الماوردي : أدب الدنيا والدين (١٤) تحقيق د . مصطفى السقا ، طبعة الحلبي بالقاهرة .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (٥ / ٢٠٩) .

والكتاب متأثر إلى حد كبير - بتقسيم أرسطو للفضائل - إلا أنه أخذ بمذهب الوسط في تحديد الفضائل ، لكنه ينهج منهجًا في المعالجة يختلف إلى حد كبير عن أتباع أرسطو كابن مسكويه مثلًا ، ويظهر هذا أكثر حين نعلم أنه لا يكاد يقول قولًا إلا ويستشهد عليه بآية أو حديث أو بهما ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من عدد من الآيات وعدد من الأحاديث ، وحتى مع افتراض أنه أحيانًا يستشهد بأحاديث لم تسلم من الطعن إلا أن منهجه يبقى أصيلًا اختلف به عن منهج ابن مسكويه ونظرائه الذين خضعوا للعقل وابتعدوا عن النصوص كثيرًا في معظم دراساتهم .

والكتاب « الذريعة » له أهميته حيث تحدث عن بعض المفاهيم النظرية لعلم الأخلاق ، وعرف بعض الفضائل ، وهو هنا غير ملتزم بالمنهج الأرسطي - وإن وقعت منه عبارات كما سيتضح من دراستنا الموجزة للكتاب - فهو عالم لغة ، وحسُّه الإسلامي باعتباره عالمًا بالقرآن يغلب على تعريفاته ، الأمر الذي يجعلنا نقول : إننا لا يحق لنا أن نصف دراسات تجاوزت هذا الكتاب كما تجاوزت غيره بأنها أنصفت الحقيقة ، أو قالت في الأمر كلمة تستند إلى فهم ودليل .

كان هذا الواقع الذي فرضَتْه كثير من الدراسات في علم الأخلاق ، والذي تجاهل كثيرًا من الحقائق كما أشرنا ، كان هذا مسوِّغًا علميًّا للاهتمام بالراغب الأصفهاني في كتابه الذريعة ، وبخاصة أني لا أكاد أجد اهتمامًا يعطي الرجل حقه ، اللهم إلا إشارة عابرة في كتاب [١] ، أو بحثًا موجزًا في صحيفة أو دورية ما [٢] ، ولأني أدرك أنه لا يمكن أن نعرف تاريخ ثقافتنا الإسلامية ما لم نعرف تاريخ علومها ، وجهود رجالها ، ولا يمكن أن تتميز نظرتنا للعلم والكون والحياة ما لم نؤصل فهمنا على عقيدتنا وننطلق من نصوصنا ، بل ونحتكم إليها حتى لا يحيد العقل البشري بنا عن جادة الصواب ؛ لأني أدرك هذا ، ورأيت أن إبراز نتائج الراغب الأصفهاني في مجال الأخلاق عمل تفرضه مسؤولية البحث وأعباء التخصص .

وقد أثار الاهتمام كذلك ما وجدته من أمر الكتاب ، « فالذريعة » طبع من مائة عام وخمسة أعوام ، وقد أتيح لي أن أقرأ هذا الكتاب مرات ، وأن أعيش معه في دراسة علمية تقدمتُ بها للماجستير ، وأوضحت المعايشة للكتاب أسئلة عديدة متضمنة في

---

(١) محمد يوسف موسى : فلسفة الأخلاق في الإسلام (١٥٩) .

(٢) د . مصطفى حلمي : الراغب الأصفهاني والذريعة ، مجلة الدارة يونيو (١٩٧٧) (ص٤٨) .

كيف يكون هذا كلام الراغب الأصفهاني صاحب مفردات غريب القرآن ؟ كيف يكون هذا كلامه وبه بعض النقص وكثير من الاضطراب في كثير من الأماكن ؟ فكثيرًا ما وجدت : « إما كذا » دون أن أجد « وإما كذا » ، وكثيرًا ما وجدت : سأذكر أربعة أضرب ، ولا أجد إلا ضربًا أو ضربين . وأمثال هذا كثير مما يتضح في حواشي النص المحققة حيث كان ما توقعناه من نقص واضطراب ، ووجدناه في أصوله التي حصلنا عليها من جهات مختلفة ، نذكرها عند الحديث عن الكتاب وظروفه إن شاء اللّٰه .

وخلاصة الأمر : أن داعي الإنصاف وبيان وجه الحق ، وداعي الفهم والحرص على تسهيله للناس ، وداعي الأمانة العلمية وخدمة التخصص ، كلها تجمعت لتحفزني على القيام بتحقيق الكتاب وفق منهج علمي في التحقيق ، ووجدتني مضطرًا للكتابة - ولو بإيجاز - عن الراغب الأصفهاني وعن الكتاب كمدخل ضروري يجلي غامض الموقف ، وأرجو أن يضع الأمر في نصابه ، ومن الحق أن أقرر أن الراغب الأصفهاني يحتاج إلى دراسة خاصة بالمنهج تفرد فصولها للتأريخ ، والتأصيل والمقارنة ، أرجو أن يهيئ اللّٰه لنا الفرصة للاضطلاع بها ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الراغب الأصفهاني

قد يبدو غير معقول أن يحيط بسيرة عالم جليل كالراغب الأصفهاني شبه غموض وسمات اضطراب فيما كُتِبَ عنه ، فاسم الرجل وهو في مجموع كتب التراجم : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني ، اسمه هذا لم ينج مما اتسمت به سيرة الرجل فقد ترجم له السيوطي باسم « المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب » [١] .

أما سنة مولده : فلم يتعرض لها بالتحديد سوى صاحب « تاريخ حكماء الإسلام » إذ جعل مولده عام تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة (٤٩٩هـ) ؛ لكن هذا جرّه إلى خطأ تفرد فيه وذلك حين جعل سنة وفاته خمسًا وستين وخمسمائة للهجرة (٥٦٥هـ) [٢] .

ويرى باحث معاصر أنه لم يُذكر شيء عن مولده ، لكنه من المتيقن أنه عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وأنه عاش بين أصفهان وبغداد ، فمن يذكره

(١) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (٢٩٧/٢) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى (١٩٦٥م) .

(٢) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، نشر وتحقيق : محمد كرد علي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق .

كالمفروضي يذكر أنه من المتأخرين الذين جاءوا في نهاية القرن الرابع الهجري ، قال هذا وهو يحصر علماء أصفهان في القرن الخامس الهجري ، ويذكرون أنه نزيل بغداد لكنهم لا يذكرون شيئًا عن سبب الانتقال [١] .

وواضح أن الأمر في نطاق الافتراض الذي لا يملك دليل القطع في المسألة موضوع البحث .

حياته

نلحظ من خلال الترجمات التي عرفت بالراغب الأصفهاني أن حياته ومراحلها يكتنفها غموض كبير ، وكثير من الذين ترجموا له اعترفوا بهذا حتى الموسوعات المتخصصة فنقرأ مثلًا في دائرة المعارف الإسلامية : « ولا نعرف من تفصيلات حياته شيئًا أكثر من أنه توفي في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، ولعل ذلك كان في عام (٥٠٢ هـ - ١١٠٨م) » [٢] .

ويقول صاحب القاموس الإعلامي : « ويحيط بسيرة الراغب الأصفهاني الغموض ولم يستدل من مؤلفاته العديدة على مراحل حياته » [٣] ، ولعل ذلك لأن الراغب لم يتحدث عن نفسه كسيرة ذاتية ، أو عن صلاته بعلماء عصره أو حكامه .

أمَّا صاحب كنوز الأجداد فيرى أن الغموض الذي اكتنف حياته يظهر واضحًا في أن كتب طبقات مذهبه الفقهي لم تترجم له ، وهو يعزو هذا إلى عدم لجوئه إلى سلطان أو رجال الدعاية في عصره « لم يترجم له أصحاب الطبقات من أهل مذهبه ، وغاية ما اتصل بنا من أخباره أنه كان صاحب حديث ولغة وشعر وأدب وأخلاق وحكمة ، وأنه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك ، وأنه كان مقبولًا عند العامة والخاصة ، ومن أئمة السنة ، شافعي المذهب ، وقرنوه بالغزالي ، وقيل : إن الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفاسته ، وأن القاضي البيضاوي اعتمد على كتاب مفردات الراغب في التفسير » [٤] .

ويتفق مع الرأي السابق في تفسير الغموض في حياة الراغب رأي آخر يقرر أن

---

(١) عباس محمد أحمد : الراغب الأصفهاني ومنهجه في كتابه المفردات (٦٠) ، ماجستير بآداب الإسكندرية (١٩٧١م) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الراغب .

(٣) أحمد عطية : القاموس الإعلامي (٤٧٢/٢) نشر مكتبة النهضة المصرية (طبعة أولى مايو ١٩٦٦م) .

(٤) محمد كرد علي : كنوز الأجداد (٢٦٨ - ٢٧١) طبعة المجمع العلمي بدمشق (١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م) .

الراغب لم يكن ذا اتجاه سياسي أو ديني (يعني مذهبي) ، بل كان يحاول جاهدًا إخفاء أحاسيسه ؛ ولهذا أهمله المؤرخون ، ولم يوجد من يعنى بأعماله إعلامًا ونشرًا وتأريخًا ، وربما كان هذا هو السبب أيضًا في أن معظم الاتجاهات ترجمت له وإن كانت لم تجل الغموض كثيرًا [١] .

أمَّا أبرز الأعمال والوظائف التي تقلدها فالأمر حوله وجهات نظر ، فإلى جانب الذين لم يتعرضوا لهذا الأمر إشارة أو تصريحًا وجد من يرى في ذلك رأيًا .

فهناك من يرى أن شهرة الناس ترتبط بتقلدهم وظائف للسلطان تقربهم منه ، وتسلط عليهم الضوء فتتناقل آراءهم الكتب والألسنة .

وأمَّا الذين لم يتقلدوا مثل الوظائف المذكورة فكثيرًا ما يبعد الضوء عنهم ، بل ربما أخفي ذكرهم عن عمد « وكم من عظيم لم يتولَّ قضاءً ولا عملًا للدولة ، بقي على خمول لا يكاد يشعر به ، ولا يعرفه غير بعض أبناء حيه ، ومنهم - على ما يظهر - الراغب الأصفهاني » [٢] .

وعليه فالراغب الأصفهاني في رأي هذا الباحث لم يتولَّ مناصب رسمية وإن كان هذا لا يمنع من نشاطه العلمي بصورة أو أخرى .

وإلى هذا يميل أكثر الذين ترجموا للراغب الأصفهاني وإن كانوا لا يصرحون بذلك ، لكنه يلمح من تركيزهم على بيان أوصافه العلمية وبيان مؤلفاته التي تتنوع لتشمل مجالات عديدة من المعرفة الإسلامية ، وصاحب الأعلام مع إيجازه الشديد في ترجمة الراغب قد أحال إلى مظانِّ ترجمته ممن يريدون هذا الرأي [٣] .

وهناك من استنبط من أوصاف علماء عصر الراغب له ، أن الراغب كان يعمل بالتدريس في معاهد عصره ، وأنه تمرس بعديد من العلوم فيها ؛ كاللغة ، والشعر والأخلاق ، والحكمة ، ويؤكد فهمه هذا بأن الناظر إلى كتب الراغب يجدها تتنوع وتتكامل ، كما يجد فيها دراسة مستوعبة للإنسان ما له وما عليه [٤] .

وسواء صحَّ عندنا هذا الرأي أو الذي قبله فإن الأمر - كما هو واضح - لا يعدو أن

---

(١) عباس محمد أحمد : الراغب الأصفهاني ومنهجه في المفردات (٢) مقدمة الباحث .

(٢) محمد كرد علي : كنوز الأجداد (٢٦٨) .

(٣) الزركلي : الأعلام (٢) ترجمة الراغب .

(٤) عباس محمد أحمد : الراغب الأصفهاني ومنهجه في المفردات (٦٨) .

يكون مجرد فرض لا يملك الدليل القوي ، وكذلك فهو توضيح جزئي ؛ لأن من استنبط اشتغاله بأعمال لم يقدم دليلًا كافيًا .

والتدريس بالمعاهد آنذاك هل كان وظيفة رسمية أم تطوعًا من علماء العصر ومفكريه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين ؟ وما الصلة بعلماء عصره إذا استثنينا الإشارات إلى الغزالي ؟

كل هذه أسئلة لم تجد بعد جوابًا ، ولكن حسب الذين افترضوا أنهم حاولوا واجتهدوا قدر الطاقة .

مكانته العلمية

ربما كان بيان مكانة الراغب العلمية أسعد حالًا ، وإن غطّى الغموض جوانب ترجمته ؛ لأن الذي وصل من مؤلفاته كان كافيًا لتكوين فكرة عن الرجل وعلمه ، كذلك فإن كثيرًا من الذين كتبوا عنه قديمًا - مع اختلاف مذاهبهم - امتدحوا علمه ، وثراء تنوعه ، وجودته فيه .

فقد ذكر البعض أنه كان شافعي المذهب ، كما استفيد من فقه محاضراته ، وذكروا أنه كان أشعريَّ الأصول [١] ، وإن كان هذا سيتباين مع دعوى اتهامه بالاعتزال والتشيع كما سيجيء . ويكاد يتفق مجموع من ترجموا له على مسألة تقدير الغزالي لكتاب « الذريعة » ، حتى كان يحمله دائمًا لنفاسته ، وأن البيضاوي أخذ في تفسيره غالب تحقيقاته من كتاب تفسير لم يتم للراغب الأصفهاني ، وسواء كان هذا الكتاب هو المفردات أم هو مقدمة في التفسير كما تشير إلى ذلك بعض الكتب فإن النتيجة واحدة في عطاء الراغب علماء عصره وبعد عصره ، ويشهد بذلك من يتاح له أن يقرأ مفردات الراغب ليجد فيها معجمًا قرآنيًا لم يسبق إليه ، وكذلك من يقرأ كتبه الأخرى - وبخاصة « الذريعة » و « تفصيل النشأتين » - يدرك سعة علمه ، وتعمقه معارف عصره [٢] ولا أريد أن أنقل سجلًّا لأوصاف المترجمين له ؛ إذ الأمر ليس موضع شك ،

---

(١) الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات (١٩٧١م) . (ص٣) (طهران) ، كنوز الأجداد (٢٦٨) .

(٢) طه عبد الرؤوف سعد : الذريعة (٥) طبعة الكليات الأزهرية (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) ، كنوز الأجداد (٢٦٩) ، روضات الجنات (١٩٧/٣) ، ودائرة المعارف الإسلامية : الراغب ، أحمد الراغب ومنهجه في المفردات (٥١) .

وحسبك أن تضيف إلى ما سبق حرص الشيعة على أن يؤرخوا له في كتبهم ، وأن يعتبروه من الحكماء ، ولو بفهمهم الخاص للحكمة ، في الوقت الذي لم يغفل أهل السنة الترجمة له والاعتزاز به ، بل ونفي التهم عنه كالاعتزال وغيره .

فقد ترجم له ظهير الدين البيهقي في تتمة صوان الحكمة ، وقد ولد البيهقي في (٤٩٩هـ) فهو قريب من عصر الراغب الأصفهاني الذي توفي (٥٠٢هـ) ووصفه البيهقي : « كان من حكماء الإسلام فهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه » .

كذلك ترجم له من السنيين السيوطي في بغية الوعاة ، كما ترجم له حاجي خليفة في كشف الظنون ، وطاش كبرى زاده في مصبح السعادة .

كذلك اهتم به الخوانساري الشيعي في روضات الجنات ، والعاملي الشيعي في أعيان الشيعة ، وأفابرزك الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة . وغير هؤلاء كثيرون .

وما كان ذلك ليكون لولا أن الراغب - مع الغموض المضروب حوله - كان عالماً فذًّا يشرف من ينتمي إليه هذا العالم .

أمَّا كتبه ؛ فالموجود منها :

١ - الذريعة إلى مكارم الشريعة . ٢ - مفردات الراغب . ٣ - مقدمة التفسير .

٤ - تفصيل النشأتين . ٥ - محاضرات الأدباء .

وأما المفقود فكثير ؛ منه :

١ - الأخلاق . ٢ - الإيمان والكفر . ٣ - تحقيق البيان في تأويل القرآن .

٤ - أفانين البلاغة . ٥ - كتاب حل متشابهات القرآن .

والأمر لا يزال موضع اختلاف [1] .

وفاته :

اضطربت الكتب في تاريخ وفاة الراغب الأصفهاني لكن صاحب « أعيان الشيعة » حقق هذا الأمر وذكر الاضطراب فيه ، وكثير من المحدثين أخذوا عنه هذا البيان [2] ؛ ولذا آثرنا نقل عبارته « توفي سنة ٥٠٢هـ ، وفي كشف الظنون في أخلاق راغب

(١) انظر في هذا : دائرة المعارف الإسلامية ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (٥/٢٠٩) ، والراغب ومنهجه في المفردات (٩٠ - ٩٥) ، مقدمة الذريعة - طبعة الكليات الأزهرية .

(٢) مثل : عباس محمد أحمد : الراغب ومنهجه في المفردات (٥٥) ، ومثل : طه عبد الرؤوف سعد في : مقدمة الذريعة (٥) .

خمسمائة ونيف ، وفي الروضات : أنه توفي (٥٦٥هـ) وهو غلط ، فإنه قال بعد ذلك : إن وفاته كانت قبل وفاة جاد الله الزمخشري مع أن الزمخشري توفي (٥٣٨هـ) ويأتي عن كشف الظنون أن الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة للمترجم له والغزالي توفي (٥٠٥ هـ) » . كما يذكر العاملي أن السيوطي في بغية الوعاة ذكر أنه كان في أوائل المائة الخامسة ولكن الصواب أنه كان في أوائل السادسة [1] ، ولعل السيوطي يذكر أنه كان في أوائل المائة الخامسة ويعني مولده ، فما الذي يمنع أن يكون مولده في العقد الأول من القرن الخامس وعَمَّر حتى بداية السادس الهجري ؟ .

على أية حال فالرأي الراجح والمرتضى أنه توفي (٥٠٢هـ) .

أمَّا مكان وفاته وكيف انتهت حياته ، فلم يتعرض لها سوى العاملي نقلًا عن الروضات ؛ إذ يقول : « وفي الروضات الظاهر أن وفاته ببغداد لا بأصبهان » [2] .

وسوى صاحب الأعلام حيث ذكر كما سبق : « ولما كانت وقعة قتندة بثغر الأندلس شهدها غازيًا واستشهد فيها » [3] .

اتهام الراغب الأصفهاني بالتشيع والاعتزال :

وضح من الإشارات السابقة أن الراغب لم يكن من رجال الدولة ولا مشايعًا لحزب معين فيها ، وقد عرف عن الراغب كذلك أنه لم يمحض كتابًا بعينه ليرد به على مذهب أو طائفة ، وإنما كان جُلُّ اهتمامه بالإنسان وقضاياه في معاشه ومعاده [4] .

يضاف إلى هذا الغموض الذي شاب سيرة حياته ، ولم يكن الغموض خاصًّا بأسفاره وأعماله ، وإنما تخطى ذلك إلى مذهبه وانتمائه الفكري ، وكان من نتيجة هذا أنْ عدَّهُ أصحاب التراجم السنية عالمًا من علماء أهل السنة ، كما عدَّهُ أصحاب التراجم الشيعية عَلَمًا وحكيمًا من حكمائهم ، ونتج عن كل هذه الظروف أن ألصقت به تهمة التشيع حينًا ، وتهمة الاعتزال حينًا آخر ، وواضح أن هذا الاتهام لم يكن في حياته ، وإنما كان بعد موته ولدى مَن ترجموا له ، ولعله من باب الشغف بتصنيف الناس وكأن الأصل أن يكون المسلمون شيعًا وأحزابًا ... !!

---

(١) السيد محسن الأميني الحسيني العاملي : أعيان الشيعة (٢٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨) طبعة أولى (١٩٤٨م) دمشق .

(٢) السابق (٢٢٠) .　　(٣) الأعلام (٢) الراغب .

(٤) عباس محمد أحمد : الراغب ومنهجه في المفردات (٩٦) .

اتهامه بالتشيع

بدهي أن الذين أثاروا هذه التهمة هم مترجمو الشيعة وإن بدا عندهم بعض الاضطراب ، كما في روضات الجنات حين ذكر صاحبه أن الراغب شافعي المذهب كما بدا في فقه محاضراته ، وذكر أنه أشعريُّ الأصول ، ثم يذكر كذلك أنه مختلف في تشيعه ، والدليل عنده على ذلك : حب الراغب لآل بيت رسول اللَّه ﷺ ، وروايته عنهم ومديحه إيَّاهم ، ثم تبلغ المبالغة بالخوانساري حدًّا يحتاج إلى نظر حين يقرر أن الراغب لم ينقل في كتبه عن خلفاء غير علي وحاول ذلك جاهدًا [١] .

أما العاملي فيقول مثل سابقه بأنه مختلف في تشيع الرجل ثم يقول : « ولكن الشيخ حسين الطبرسي قد صرح في آخر كتاب أسرار الإمامة بأنه كان من حكماء الشيعة » [٢] .

ويربط العاملي بين هذا وبين اتهام الراغب بالاعتزال ليخلص من ذلك إلى أن هذا يؤكد شيعيته « أقول : يؤيد تشيعه قول من قال : إنه معتزلي فإنهم كثيرًا ما يخلطون بين الشيعي والمعتزلي للتوافق في بعض الأصول » [٣] .

وكأني به يوضح - عن غير قصد - اضطراب الخوانساري حين ذكر أنه أشعري الأصول ثم ذكر أنه شيعي ، وقيل : إنه معتزلي ؛ لأنه ما دامت - كما يقول العاملي - أصول الشيعة والمعتزلة متفقة في بعضها فليس من المنطقي أن تتفق أصول الأشاعرة مع واحدة منهما .

أما دليل تشيعه الأكيد فهو كثرة رواياته عن أهل البيت وإيراده لبعض الأحاديث في فضل علي رضي الله عنه .

وليت الأمر وقف عند هؤلاء الشيعة ، فإن باحثًا معاصرًا حاول أن يفسر شيعية الراغب كما حاول أن يفسر اعتزاله ، ومحاولته تتسم - في نظرنا - بالتوفيق المضطرب بين الآراء ؛ إذ يرى هذا الباحث أنه - الراغب - كان شيعيًّا معتدلًا بعيدًا عن المغالاة مستشهدًا على ذلك بكونه من أصفهان - وهي بيئة شيعية - وبروايته عن آل البيت رضوان اللَّه عليهم ، وبكونه اتهم بالاعتزال لقربه من التشيع - ولنلاحظ هنا كلام العاملي فيما سبق - ويورد عدَّة نقاط لا تخرج عن هذا الذي ذكرنا .

---

(١) محمد باقر الخوانساري : روضات الجنات (١٩٧/٣) .

(٢) العاملي : أعيان الشيعة (٢٢١/٢٧) . (٣) السابق (٢٢٢) .

ويرى أنه وضع بين أهل السنة ؛ لأنه لم يكفر الخلفاء ولم يشطح في تفسيره شطحات الشيعة [(١)] .

أما اعتزال الرجل فلأنه - كما يقول الباحث - اهتمَّ بالعقل وبالإنسان ثم يقول : « كذلك سار الراغب على منهجهم - المعتزلة - في نفي الصفات عن اللَّه ، وهو أحد الأصول المهمة في مذهب المعتزلة ، وإن لم يفرد لها بابًا خاصًّا في كتاباته ، ولكنه جعلها في مفترق كلامه » [(٢)] ، ويشير الباحث إلى صفحة معينة في كتاب الذريعة . ويحاول الباحث أن يعتذر عن فهمه السابق حين يذكر أن الاهتمام بالعقل عند الراغب لعله من عدوى الفكر اليوناني ، فكان عذره هذا أقبح من الذنب ؛ لأنه - كما سنذكر - ليس غريبًا على الإسلام اهتمامه بالعقل [(٣)] .

تعقيب

لعله وضح من أدلة هؤلاء أنهم يركزون على حب الرجل لآل البيت ، وعلى نقله عن الإمام علي ﷺ ، وهذا أمر لا يخلو منه قلب مؤمن بكتاب اللَّه وسنة رسوله ؛ لذا فليس لهم في هذا دليل دامغ .

أما أن الراغب ركز روايته عن علي متعمدًا عدم روايته عن غيره فهذا لا يتفق وحقيقة ما جاء في كتب الرجل ، ففي « الذريعة » و« تفصيل النشأتين » روايات عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، كما أن الرجل يروي عن زهاد كالحسن البصري والفضيل بن عياض وغيرهما ، ولعل هذا يرد على سؤال : لماذا يكثر النقل عن علي ﷺ ؟ إذ الأمر مرتبط بمناسبة النقطة التي يبحثها ، هذا إلى جانب أن للإمام علي كلامًا مجموعًا يسهل الاستدلال منه .

كذلك فإن أهل السنة الذين ترجموا للشيخ الراغب لم يشيروا إلى هذه النقطة ، ولو كانت واردة كشائعة أو متضمنة في كتبه لما سكتوا عنها ، بل ربما ما ترجموا للرجل ولا اهتموا به . وما أظن أن هناك مسوغًا لمحاولة افتعال موقف متوسط للرجل بين السنة والشيعة ، وحسبنا أن نتذكر ما أجمع عليه المترجمون له ، من عدم تمذهبه ، ولا تورطه في فكر حزبي ، بل كان مشغولًا باستخراج طريق شرعي للإنسان من خلال فهمه للكتاب والسنة .

---

(١) عباس محمد أحمد : الراغب ومنهجه في المفردات (٧٠ ، ٧٧) .

(٢) السابق (٧٨) .   (٣) السابق (٧٩) .

اتهامه بالاعتزال

جاء في بغية الوعاة « وقد كان ظني أن الراغب معتزلي ، حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام ما نصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس في الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة » وقرنه بالغزالي . وهي فائدة حسنة ، فإن كثيرًا من الناس يظنون أنه معتزلي [١] .

واستخدام كلمة « في ظني » من السيوطي العالم المؤرخ أمر له دلالته ، فلم يكن الأمر عنده محققًا وبالغًا حد الاعتقاد مع معرفته بالفكر وغوصه في أبوابه وفروعه .

كذلك نلحظ أن « كثيرًا من الناس يظنون » عبارة تدل على أن الأمر بين الناس كان في دائرة الشائعات التي تدور بين العامة ، ربما عن قصد ممن أثارها لغرض بعيد ، وربما لكلمة أطلقت بحسن قصد .

ويبدو أن الاتهام بالاعتزال في هذا العصر كان شيئًا مألوفًا حتى بين العلماء أنفسهم أحيانًا ، فقد اتهم ابن الصلاح الماوردي صاحب « أدب الدنيا والدين » (ت٤٥٠هـ) بالاعتزال ، كما جاء في طبقات السبكي ، وبنى ابن الصلاح اتهامه على فهم فهمه من كلام الماوردي ، وإن كان قد أنصف الرجل حين قال : « رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة ... ثم هو ليس معتزليًا مطلقًا ، فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دلَّ عليه تفسيره في قوله ﷻ : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء: ٢] وغير ذلك » [٢] .

ويدفع هذه التهمة محقق أدب الدنيا والدين فيقول : « غير أنا نقول : إن اتهام المحدثين للعلماء بالاعتزال وبالتشيع وبما هو أكبر من ذلك - قد كثر وشاع ، ولعل هذا الذي ذكره ابن الصلاح كان نوعًا من اجتهاد الماوردي ، وترجيحه بين الآراء العلمية ترجيحًا عقليًا ، يوافق بعض آراء المعتزلة أحيانًا ، وهو بريء من الاعتزال جملة ، وكل ما في الأمر أنه غلبت عليه صفة الفقيه العالم الذي يوازن بين الآراء ، ويرجح بعضها على بعض ، دون نظر إلى القائل بهذا الرأي أو ذاك » [٣] .

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة (٢/٢٩٧) .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية (٣/ ٣١٣) .

(٣) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، تحقيق د/ مصطفى السقا (ص٦) من المقدمة (ط١) .

ويؤكد هذا بأن موافقة عالم من العلماء لطائفة ما في بعض آرائهم لا يسوغ عدَّه منهم بل الموضوعية تقضي بأن نتحرى الموقف العلمي ، وغاية ما نرتضيه أن نحكم على الرجل أنه حاد في كذا عن سمته الفكري .

هذا والأمر لا يزال في دائرة الظن ، والظن هنا لا يغني عن الحق شيئًا ؛ لأن الأمر لا يخص واحدًا من عامة الناس ، بل يخص عالمًا يملأ دنيا عصره ، فكيف يقبل أن يكون فكره ومذهبه فيه مجهولين إلى حد الظن الذي يستوي فيه هنا العلماء والعامة .

أما أن هذه التهمة أُلصقت بالراغب لاهتمامه بالعقل في كتاباته ، ونفي الصفات عن اللَّه كما يقول البعض [(١)] ، فهذا أمر يحتاج إلى وقفة ولو موجزة ، **فنقول وباللَّه التوفيق** :

أولًا : لا يختلف اثنان في أن العقل قيمة كبرى ، حتى فهم لدى البعض أن الإنسان كُرِّم من أجل العقل لا بالعقل ، ولعل هذه القيمة الكبرى للعقل هي التي جعلت الإمام القرطبي يعتبر أن التفضيل الذي يعول عليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، إنما يكون بالعقل الذي به تتم معرفة اللَّه سبحانه ، وتفهم كلامه ، وتصديق رسله ، ويذكر هذه الأهمية مقرونة بأنها عمدة التكليف .

أقول : لعل شيوع هذه الأهمية هو الذي حدا بالإمام القرطبي إلى هذا الفهم مع أن اللفظ القرآني لا يمنع التفضيل بغير العقل كما حكى القرطبي عن الأئمة المفسرين [(٢)] .

ويقول الأستاذ العقاد : وإذا كان العقل وازعًا يعقل صاحبه عن الشر ويقلب النظر ويوازن بين الأشياء ، وهو كذلك رشد يميز بين الهداية والضلال ، وأخذ من الماضي للحاضر يعي ويتدبر . أقول : وإذا كان كذلك فإنه موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ونهي عن منكر .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا تتذكرون ؟ أليس فيكم رجل رشيد ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر السماء والأرض ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم وخالق

---

(١) عباس محمد أحمد : الراغب ومنهجه في المفردات (٧٩) .

(٢) القرطبي : تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ، الإسراء (٢٩٣) .

الأرض والسماء ؛ لأنهم ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم : ٨] (١) .

فإذا أضفنا إلى هذه الأهمية تقدير الشرع للعقل ، وحاجته إليه في التفهم لا في الإثبات وأنه يلتقي مع الشرع في الحق الذي يأتي به الرسل الكرام ، وأن الشريعة كفلت حماية هذا العقل وجعلته من الضروريات التي هي من مقاصد الشريعة الإسلامية .

أقول : إذا أخذنا كل هذا في الاعتبار كان لنا أن نقول : إن الاهتمام بالعقل استجابة لأمر إسلامي نصي في القرآن والسنة ، ولسنا بحاجة إلى أخذ هذا الاهتمام عن اليونان أو عن غيرهم (٢) .

ثانيًا : من الفهم السابق لقيمة العقل في الإسلام كان اهتمام العلماء المسلمين على اختلاف أزمانهم واتجاهاتهم وها هي ذي مجرد أمثلة على صحة ما نقول :

يقول الحارث المحاسبي في الرعاية لحقوق اللَّه (ت٢٤٣ هـ) : « مثل العقل مثل البصر ، ومثل العلم مثل السراج ، فمن لا بصر له لا ينتفع بالسراج ، ومن له بصر بلا سراج لا يرى ما يحتاج إليه » (٣) .

وقد أفرد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في كتابه « أدب الدنيا والدين » فصلًا عن فضل العقل وذم الهوى ، ذكر فيه أن العقل أسُّ الفضائل وأن اللَّه قد جعله للدين أصلًا ، وللدنيا عمادًا ، وألف به بين الناس مع اختلاف هممهم ومآربهم ، وربط بين العقل ومعرفة حقائق العلوم ثم تحدث عن العقل الغريزي وهو الحد الحقيقي الذي يتعلق به التكليف ، والعقل المكتسب الذي يمثل التمرس والخبرات التي يكتسبها الإنسان من العمل ، كما ناقش محل العقل واختلاف العلماء فيه هل هو بالقلب أو بالدماغ ؟ وربط العقل بالأخلاق حيث إنه الرادع عن الهوى والمحارب للشيطان ، إلى غير هذا من

---

(١) عباس العقاد : الإنسان في القرآن (٢٣٣ ، ٢٤٩) . عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية (١٨) .

(٢) للتفصيل انظر : أبو اليزيد العجمي : حقيقة الإنسان في ضوء الحقيقة القرآنية ، الفصل الثاني كاملًا . سلسلة دعوة الحق ، نشر رابطة العالم الإسلامي (المحرم ١٤٠٤هـ) .

(٣) المحاسبي : الرعاية لحقوق اللَّه (٦٩) .

مباحث أبرزت اهتمام الماوردي بالعقل الإنساني [١] .

كما اهتم به ابن السمعاني منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت٤٨٩ هـ) حين تحدث عن طبيعة العقل هل هو جوهر يمكن أن يستقل بذاته أو هو نوع من العلم يدخل في جملة أقسامه ، ويذكر في ذلك بعض الآراء فيقول : « واختلفوا في حقيقته على أقاويل شتَّى : فقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال : هو آلة التمييز .

وقال بعضهم : العقل بصر القلب ، وهو بمنزلة البصر من العين تدرك به المعلومات كما يدرك به البصر المشاهدات ، قاله أبو الحسن علي بن حمزة الطبري .

وقال بعضهم : هو قوة تفصل بين حقائق المعلومات .

... والعقل عقلان : عقل غريزي ؛ وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ، وهو من حيث القوة موجود في كل خليقة من الآدميين ، قالوا : ووجوده في الطفل كوجود النخلة في النواة ، والسنبلة في الحبة .

والثاني عقل مستفاد ؛ وهو الذي تتقوى به تلك القوة ، وقد يحصل باختيار من العبد ، ويحصل بغير اختيار منه .

قالوا : والعقل الغريزي بمنزلة البصر للجسد والمستفاد بمنزلة النور ، فكما أن البصر متى لم يكن له نور من الجو لم يدرك بصره شيئًا ، فكذلك العقل إذا لم يكن له نور من العلم المستفاد لم تفد بصيرته ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] » [٢] .

وإذا كان هذا هو اهتمام العلماء قبل الراغب (ت ٥٠٢هـ) فإن شيخ الإسلام ابن تيمية اهتم بهذا الأمر فوق كل اهتمام سبقه ؛ إذ أفرد للصلة بين العقل والشرع سفرًا ضخمًا من أجزاء عديدة هو درء تعارض العقل والنقل [٣] ، ومنطقي أن يتحدث فيه عن قيمة العقل والبحوث المتصلة بهذا .

ولقد تحدث عن العقل المستفاد وأنه لا يتدخل في ثبوت الرسالة أو صدق رسولها ، وهو ليس أصلًا لثبوت الشرع ؛ إذ الشرع ثابت علمناه بعقولنا أو لم نعلمه ، وبحث

(١) الماوردي : أدب الدنيا والدين (١٧/٣) تحقيق مصطفى السقا . الطبعة الأولى .

(٢) ابن السمعاني : قواطع الأدلة في الأصول ، تحقيق د/ محمد حسن هيتو ، مجلة معهد المخطوطات العربية يونية (١٩٨٢م) صفحات (٢٤٩ - ٢٥١) .

(٣) في عشرة أجزاء / طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

صلة العقل بالعلم الخبري والعلم النظري .

« فإن الشرع المنزَّل من عند اللَّه ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه ، فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه وإلى أن نعلمه بعقولنا » [١] .

وحين يتحدث عن العقل الغريزي يقرر أن حاجتنا إليه ماسَّة « لأن تلك الغريزة ليست علمًا يتصور أن يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة ، وما كان في الشيء امتنع أن يكون منافيًا له ، فالحياة أو الغريزة شرط في كل العلوم ؛ سمعيِّها وعقليِّها ، فامتنع أن تكون منافية لها ، وهي أيضًا شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال وإن لم تكن علمًا ، فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له » [٢] .

فبعد هذه الإشارات الدالة على اهتمام العلماء ؛ يصلح أن نبني حكمًا بالاعتزال على عالم مسلم لمجرد أنه اهتم بالعقل في بحوثه ؟ يغلب على الظن أن أمانة البحث تقضي بالإجابة بـ « لا يصح هذا » ، وإلا اتهمنا الجميع بالاعتزال حتى أشد الناس سلفية وارتباطًا بأهل السنة .

ثالثًا : بعد أن تداعت حجة الاهتمام بالعقل سببًا لاتهام الراغب بالاعتزال ، نقول : أمَّا بالنسبة لما ذكره أحد الباحثين من أن الشيخ الأصفهاني يوافق المعتزلة في نفيهم الصفات عن اللَّه سبحانه . نقول : تفرد بهذا الزعم هذا الباحث ، فلم نجده عند غيره ممن ذكرنا تعريفهم بالرجل شيئًا كهذا .

وإلى جانب تفرده به فهو محض افتراء ؛ لأن الصفحة التي أشار إليها من « الذريعة » ليس بها ما نسبه إلى الرجل ، فضلًا عن أن دراستنا للذريعة تثبت أن الراغب الأصفهاني يذكر في أكثر من موضع أن صفات اللَّه سبحانه نعلمها من الكتاب والسنة ، ويقرر أنه لو لم ترد صفات كالرؤوف والرحيم في القرآن وصفًا للَّه لما تجاسر أحد على وصفه بها ؛ لأن البشر يصفون أنفسهم بها ، وهو العالم اللُّغوي يدرك الفرق بين إطلاق اللفظ بالنسبة للَّه سبحانه وبينه صفة للبشر المخلوقين [٣] .

وبهذا لم يبق لزاعم حجة ، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل واللَّه من وراء القصد .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/٨٨) . (٢) درء تعارض العقل والنقل (١/٨٩) .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، مبحث ذكر المكر والحيلة والخديعة ، وكذا الفصل السابع بمباحثه كلها ، هذا فضلًا عن عبارات عديدة تؤكد أنه ليس من النفاة للصفات كما زعم الزاعم .

الذريعة إلى مكارم الشريعة

لعل أول شيء يجب أن نقرره هنا هو أن كتاب « الذريعة » صحيح النسبة إلى مؤلفه الراغب الأصفهاني ، ويتفق على ذلك كل الذين ترجموا للراغب وتعرضوا لبيان مؤلفاته [١] .

لكن هذا لم يمنع من حدوث لبس أوقع في خطأ ، فقد ذكر العيدروس في كتابه « تعريف الأحياء بفضائل الأحياء » المطبوع على هامش « إتحاف السادة المتقين » للمرتضى الزبيدي ، ذكر العيدروس (عبد القادر بن شيخ بن عبد اللّٰه العيدروس) أن كتاب الذريعة للغزالي .

ولكن الدكتور عبد الرحمن بدوي نبّه على هذا فقال : « وقد لاحظ موريس بويج في كتابه عن مؤلفات الغزالي أنه لأبي القاسم الحسين الراغب الأصفهاني » [٢] .

مرحلة تأليفه

ليس في الأمر قول قاطع ؛ لأن الغموض الذي ضُرِبَ حول الرجل لم يهيئ ترتيب مؤلفاته بوضوح ودقة ، لكن ذلك لا يمنعنا من تقديم ما فهمناه في هذا الصدد .

ففي مقدمة « الذريعة » يقول الراغب : « كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ... » وهذا معناه أن « الذريعة » ألفت بعد الكتاب الذي أشار إليه الشيخ ولا يزال مفقودًا .

ثم يقول الشيخ الراغب في مقدمة « المفردات في غريب القرآن » ما نصه : « وأشرت في كتاب (الذريعة إلى مكارم الشريعة) : أن القرآن وإن كان لا يخلو الناظر فيه من نور ما يريه ونفع ما يوليه فإنه :

كالبدر من حيث التفتَّ رأيته ... يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبا
كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقًا ومغاربا

---

(١) انظر : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (٥/٢١١) ترجمة د/ رمضان عبد التواب وآخر . عباس محمد أحمد : الراغب ومنهجه في المفردات (٩٩) . العاملي : أعيان الشيعة (٢٧ / ٢٦٦) وكثير من الكتب التي ذكرنا في ترجمة الراغب الأصفهاني سابقًا .

(٢) د . عبد الرحمن بدوي : من مؤلفات الغزالي (٣٨٣) طبعة ثانية ، الكويت (١٩٧٧م) .

لكن محاسن أنواره لا يتقنها إلا البصائر الجلية ، ... »[1] .

وهذا معناه أن « الذريعة » أُلِّفَ قبل « المفردات في غريب القرآن » .

لكن صاحب كشف الظنون قال عند ذكر « الذريعة » ما يفيد أنه يعتبر الذريعة مقدمة لكتاب « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » ، والأمر هنا يتوقف على ماذا يعنيه حاجي خليفة بمقدمة للكتاب السابق ، فإن كان يعني سبقه له زمنًا وتفصيلًا فهذا لا نخالفه فيه ، أمَّا إذا كان يعني كمقدمة مجملة أتى تفصيلها في « التفصيل » فهذا ما لا تقره المادة العلمية الموجودة في كليهما .

والأقرب إلى الظن أن كتاب « الذريعة » تفصيل وتعميق لما ورد بكتاب « المفردات في غريب القرآن » ورسالة « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » كما يلحظ من مباحث كليهما وطريقة المعالجة فيهما .

وبذلك نميل إلى أن « الذريعة » توسط دراستين قرآنيتين ، هما : « تحقيق البيان » و « المفردات في غريب القرآن » ، كما أن الذريعة قد مهد لإيجاز قضاياه في رسالة « تفصيل النشأتين » أو جاء بيانًا واضحًا لما فيها من قضايا .

وعلى مجموع الاحتمالات فإن « الذريعة » - بما يتضح فيه من سعة معرفة ، وعمق في فهم الأمور - قد أُلِّفَ في مرحلة نضج وتفهم من الراغب الأصفهاني ، ويتضح هذا حين يجد القارئ فيه اللُّغة إلى جوار الحكمة وسندهما من القرآن والسنة ، مما يتطلب دراسة مستقلة ومفصلة له .

المكانة العلمية للكتاب

ولسنا نعني بذلك تقديم رسالة تحليلية وتأصيلية في آنٍ معًا ، نخرج منها بنتائج مفهرسة ومرتبة لوضع الكتاب في المكتبة الإسلامية ؛ إذ إن هذا يتطلب دراسة مطولة تعني بالمناهج ومقارنتها ، ونرجو أن يتيسر لنا ذلك إن شاء اللَّه .

لكن الذي نعنيه هنا هو تأكيد لما أشرنا إليه قبلًا من مسوغات الاهتمام بالمؤلف والكتاب ، يقول كارل بروكلمان : « (كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة) وهو كتاب في الأخلاق ، يقال : إن الغزالي كان يحمله دائمًا معه »[2] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، المقدمة ، صفحة (د) .

(٢) تاريخ الأدب العربي (٥/٢١١) .

ويقول محمد كرد علي : « وقيل : إن الغزالي كان يستصحب كتاب « الذريعة » ويستحسنه لنفاسته »[١] .

ويقول كاتب مادته في دائرة المعارف الإسلامية – وهو يتحدث عن كتاب « حل متشابهات القرآن » – : « ويتضح لنا من فقرة في المقدمة أنه كان قد أتم كتابه الكبير في الأخلاق ، وعنوانه : « الذريعة إلى مكارم الشريعة » قبل كتاب المفردات

« ويقال : إن الغزالي كان يحمل دائمًا نسخة من هذا الكتاب »[٢] .

ولعل ذلك راجع إلى الموضوع الذي تبناه الكتاب إلى جانب الإضافات التي أضافها تكميلًا لموضوعه واهتمامًا بباب في الأخلاق له أهميته هو باب الأخلاق الاجتماعية التي تضبط حركة التعامل بين المسلم وغيره في مجالات شتَّى هي محور ابتلائه وجهاده ضد ما ينقص من الإنسانية .

فالموضوع الرئيسي للكتاب هو وضع الضوابط التي تأخذ بيد الفرد لتؤهله لما خلق له من الخلافة المتضمنة للعبادة ، ولحمل الأمانة ، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لكن هذا الموضوع الأساسي والكبير للكتاب لم يمنع الأصفهاني من إضافات قد تدخل جزءًا من الكتاب في مناهج البحث وأصول التعليم ؛ كما نرى مثلًا حين يتحدث عن العلوم ، ومعاداة الجهال لبعضها ، وأحوال الناس في استفادتهم العلم مبينًا أثر الفروق الفردية ، وأثر البيئة في ذلك ، وكذلك حين يتحدث عن الرأي الآخر ، وأنواع الجدل ، وآداب المناظرة وغير هذا مما هو في بابه كثير في الذريعة .

كذلك لم يخل الكتاب من مباحث تدخل ضمن ما يسمى « بعلم الاجتماع » ؛ مثل : بحثه قضية الإنسان بين العزلة والاختلاط ، وحاجة الناس في حياتهم إلى الاجتماع والتظاهر ، وكذلك اختلاف الرغبات في حب الأعمال كي تسير الحياة دون توقف .

وبالكتاب كذلك لمسات تدخل في باب « الحكمة والعقيدة » حيث يتحدث عن الأعمال الإرادية والأعمال غير الإرادية ، والأسباب التي ينسب الفعل إليها ، والصلة بين العقل والشرع . وما شابه هذه القضايا .

كل هذا يعالجه الكتاب دون أن تستشعر قلقًا لمبحث ما ، بل تراك كأنك في

---

(١) كنوز الأجداد (٢٦٨) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الراغب .

ترتيب منطقي إلى حد كبير .

ولعل تنوع القضايا ، واختلاف فروع المعرفة التي يدخل الكتاب إليها ، تبرز مكانته العلمية ، وإن كانت تضع سؤالًا : أين نضعه في التصنيف المكتبي للكتاب الإسلامي ؟ ولعل أجمع منحى له هو « الأخلاق الاجتماعية أو الأخلاق الدينية » .

هذا إلى جانب ما سبق ذكره سوغ بذل الجهد في هذا الكتاب والله المستعان .

الكتاب وصلته بالفكر قبله

لعل أكثر الكتب قبل « الذريعة » شبهًا بها في موضوعاتها كتاب « أدب الدنيا والدين » للماوردي (ت ٤٥٠هـ) فجلُّ موضوعاته تكاد تتفق في عناوينها مع ما جاء في « الذريعة » ، الأمر الذي قد يوحي لأول وهلة بتأثر « الذريعة » بـ « أدب الدنيا والدين » ، ولكن النظرة المتأنية تظهر خلاف هذه النتيجة .

فقد عالج الماوردي « فضل العقل وذم الهوى » وبحث فيه كثيرًا مما بحثه الأصفهاني في الذريعة كأنواع العقل ، ومحله ، والحاجة إليه ، والصراع الذي بينه وبين الهوى [١] .

كما عالج الماوردي أدب العلم ، شرفه وفضله ، أخلاق العلماء ، وأخلاق المتعلمين ، واختلاف الناس في المعارف والحاجة إلى ذلك [٢] .

كما تعرض الماوردي لقضية عقدية مهمة هي صلة العقل بالشرع وأيهما أسبق من الآخر . كما تحدث عن أمور اجتماعية كالكسب ، وتحدث عن بعض الفضائل والرذائل ، كالحياء والصدق والكذب والحسد وغير ذلك [٣] .

وهذه الموضوعات جميعها عولجت في « الذريعة » ، ولكي ندرك الصلة إيجابًا أو سلبًا نذكر موضوعًا عند كليهما :

يقول الماوردي عن الحياء [٤] : اعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : حياؤه من الله تعالى .

والثاني : حياؤه من الناس .

---

(١) أدب الدنيا والدين (٣ / ٢٥) .

(٢) السابق (٢٥ ، ٥٩ - ٦٥ ، ١١٩ ، ١٢٠) .

(٣) السابق (١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ - ٢٤٥) .

(٤) السابق (٢٢٦ ، ٢٢٧) .

والثالث : حياؤه من نفسه .

فأما حياؤه من اللَّه تعالى فيكون بامتثال أوامره ، والكف عن زواجره ، وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « **استحيوا من اللَّه حق الحياء** » ، فقيل : يا رسول اللَّه فكيف نستحي من اللَّه ﷻ حق الحياء ؟ قال : « **من حفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وترك زينة الحياة الدنيا ، وذكر الموت والبلى ، فقد استحيا من اللَّه** ﷻ **حق الحياء** » وهذا الحديث من أبلغ الوصايا .

وأمَّا حياؤه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **من تقوى اللَّه اتقاء الناس** » ، وروي أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس ، وقال : لا خير فيمن لا يستحي من الناس .

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات ، وقال بعض الحكماء : ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الأدباء : من عمل في السر عملًا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ، ودعا قومٌ رجلًا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال : « إني دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني » . اهـ .

أما نص الراغب الأصفهاني عن الحياء [1] فهو : « الحياء انقباض النفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ، وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، وجعله اللَّه تعالى في الإنسان ليرتدع عما تنزع إليه الشهوة من القبائح ، وهو مركب من جبن وعفة ؛ ولذلك لا يكون المستحي فاسقًا ولا الفاسق مستحييًا لتنافي اجتماع العفة والفسق ، وقلَّ ما يكون الشجاع مستحييًا والمستحي شجاعًا ؛ لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ، ولعزة وجود ذلك يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء نحو قوله :

يجري الحياء الغض من قسماتهم ... في حين يجري من أكفهم الدم

وقال آخر :

كريم يغض الطرف فضل حيائه ... ويدنو وأطراف الرماح دواني

ومتى قصد به الانقباض فهو مدح للصبيان دون المشايخ ، ومتى قصد به ترك

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ورقة (٦١) من النسخة (أ) (نسخة برلين) .

القبيح فمدح للكل .

..... فأما مداواة اكتساب الحياء فحق الإنسان إذا همَّ بقبيح أن يتصور أجلَّ مَن في نفسه حتى كأنه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه ؛ ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال ، ولا من الذين لا يميزون ، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد .

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة : البشر وهم أكثر من يستحي منه ، **ثم نفسه** ، **ثم اللَّه** ﷻ ، ومن استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره ، ومن استحيا منهم ولم يستحِ من اللَّه ﷻ فلعدم معرفته باللَّه تعالى .

فإن الإنسان يستحي ممن يستعظمه ويعلم أنه يراه أو يسمع بخبره فيبكته ، ومن لا يعرف اللَّه فكيف يستعظمه وكيف يعلم أنه مطلع عليه . وقول النبي ﷺ : « **استحيوا من اللَّه حق الحياء** » في ضمنه حث على معرفته ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] تنبيهًا أن العبد إذا علم أن اللَّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .... » .

ولعلنا لا نستبعد أن يكون الراغب قد قرأ فكر الماوردي واطلع عليه ، فلا تزال كثير من أسس الفكرة عن الحياء متشابهة إلى حد كبير ، لكن الباحث لا يستطيع القطع بالتأثر ؛ لأن ترتيب الفكرة وطريقة المعالجة ، واستخدام المصطلحات الأخلاقية ، ودقة الاستشهاد بالآية والحديث ، ووضوح جانب التنظير للحياء كفضيلة ، كل هذا ربما لا نجده عند الماوردي إلا ملامح شاحبة مما يقوي الظن عندنا بأن الراغب - سواء عرف الماوردي أم لا - فإن فكرته أدخل في باب المفاهيم الخلقية الإسلامية من الماوردي الفقيه الأديب ، وأنه لم يحذ حذو الماوردي في معالجاته ؛ إذ على الرغم من الاتفاق في الموضوعات التي ذكرنا فإنه - الراغب - يضعها ضمن خطة أخرى ويضيف إليها كثيرًا من المباحث المكملة لكن ذلك لا يجعلنا نقول : إن الراغب لم ينقل من أحد ممن سبقه ؛ لأنه وضح - كما أشرنا ونحن نتحدث عن معالجات موضوع العقل عند المحاسبي وابن السمعاني وابن تيمية - أن الراغب نقل ألفاظًا بعينها في باب بيان فضل العقل إما من المحاسبي أو من ابن السمعاني دون أن يشير إليها [1] ، ولكننا نضع الأمر في نصابه حين نقول : إن من يستخدم عبارات غيره في موضوع هو له فيه فهم واستقلال في المعالجة يختلف عن التبعية الفكرية لمن سبقه حذو القُذَّة بالقُذَّة ، وهذا ما أردنا التنبيه عليه .

---

(١) انظر مبحث اتهام الراغب بالاعتزال .

وللأمانة فإن الأمر يحتاج إلى دراسة مقارنة تستوعب جوانب المنهج وقواعده ومكانها غير هذا التمهيد .

ملاحظات عامة في « الذريعة » :

نرى – مع إيماننا بضرورة دراسة مقارنة – أن نقدم ملاحظات عامة لاحظناها من خلال معايشتنا للذريعة ، وأهم هذه الملاحظات ما يلي :

١ – سمة التقسيم وتحديد الفضائل :

أخذ الراغب بتقسيم ابن مسكويه (ت ٤٥٦هـ) المتأثر بالتقسيم الأرسطي حيث تحدث عن قوى الإنسان وجعلها ثلاثة : القوى الفكرية ، والقوى الغضبية ، والقوى الشهوية ، كما جعل الفضائل الكبرى أو أصول الفضائل التي تتولد من ضبط هذه القوى أربعًا ؛ هي : فضيلة الحكمة وهذه من القوة الفكرية ، وفضيلة الشجاعة وهذه من القوة الغضبية ، وفضيلة العفة وهذه من القوة الشهوية ، ومن وجود هذه الثلاث فضائل توجد فضيلة رابعة هي « العدالة » (١) .

لكن الراغب لم يتبع ابن مسكويه في هذا التقسيم حرفيًا ، بل دلف من هذا إلى حديث عن الخلافة والعبادة وحدد رسالة الإنسان من خلال معالجة ربطها بالقوى السابقة من ناحية ، وجدد في تناولها من جهة أخرى ؛ ذلك أن الراغب يملأ هذا التقسيم بفهم إسلامي ، ومحتوى قرآني وحديثي ، الأمر الذي يجعلنا نقول : إن الراغب مع أخذه بالتقسيم الأرسطي فإنه لم يخضع لكل ما جاء به ، بل كأنه أثبت أن من الممكن الاستفادة من شكل لا يؤثر على المضمون الإسلامي . وقد لاحظنا على الراغب – كما يظهر مع التحقيق – تأثره ببعض كلمات أرسطية ؛ مثل : « الكون والفساد » « القوى السبعية » وذلك في مناسبات متعددة ، لكنها قليلة يغطي عليها إسلامية اللُّغة والمحتوى عند الراغب الأصفهاني .

أما تحديده لمعنى الفضيلة ووقوعه في حبائل الوسطية الأرسطية التي تعني أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، أقول : هو في هذا قد تبع أو سار مع كثيرين من المفكرين الإسلاميين الذين خدعوا بآيات وأحاديث تدل على التوسط ، وقد أشرنا إلى هذا ضمن التحقيق للذريعة .

٢ – نُقُولٌ لم تردَّ إلى أصحابها :

شاع في زمن بين العلماء أن يأخذوا ممن سبقهم دون أن يشيروا إلى ذلك ، وقد بدا

---

(١) انظر الفصل الأول من الذريعة وقارنه بابن مسكويه – تهذيب الأخلاق – (٦٥ – ١٩٠) .

هذا واضحًا لدى الغزالي في الإحياء ؛ إذ إن بعض الدراسات وجدت جملًا بألفاظها في مكانها نفسه للمحاسبي ولغيره ، وقد يكون منها للراغب نظرًا لاعتزاز الغزالي بالذريعة وحمله لها كثيرًا كما يقال [١] .

وقد وجد ذلك عند الراغب نفسه كما أشرنا إلى موضوع العقل ؛ إذ العبارات تكاد تتحد عند المحاسبي وعند ابن السمعاني وعند الراغب ، لكنها غالبًا ما تكون في وصف شيء أو تقسيمه ، وإلا فالراغب له سمته الخاص به في الاستشهاد وبيان المعنى اللُّغوي والاصطلاحي وغيرهما [٢] .

٣ - كثرة الاستشهاد بالآيات والأحاديث :

لعل هذه علامة مميزة لاتجاه الراغب الأصفهاني ؛ حيث ما يطرق موضوعًا إلا ويحشد له من الآيات والأحاديث ما يؤكد المعنى الذي يقصده ، وحسبك أن تعلم أن نسخته المخطوطة وهي مائة ورقة تقريبًا تحتوي على قرابة المائتي حديث ، وقرابة ضعف ذلك من الآيات الكريمة .

واستدلاله بهذه النصوص في مجموعه جيد ودقيق ؛ لأنَّا لا نجهل أن الراغب الأصفهاني هو صاحب « تحقيق البيان في تأويل القرآن » وإن كنَّا لم نطلع عليه ، وصاحب « المفردات في غريب القرآن » ؛ وقد أشار في مقدمة المفردات إلى عزمه على تأليف كتاب يعني ببيان الألفاظ القرآنية التي يظن أنها مترادفة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [٣] ، وكل هذا ينبئ عن تتابع المعاني القرآنية وحضور الآيات في عقله ووجدانه ، ويلحظ هذا كل من يقرأ في « الذريعة » دون تحديد لموضوع معين .

٤ - وضوح التأصيل اللُّغوي في تعريفات الفضائل والمسميات :

وقد أفرز اتصال الراغب بالنص القرآني حاسة لغوية تعني ببيان الأشياء بدقة بالغة ؛ ولذا وجدنا تشقيقات ودلالات في كل مباحث الذريعة ، فمثلًا حين يتحدث عن العقل يتحدث عن أسمائه كالحجر والنهى ، ثم يتحدث عن أسماء تتصل بالعقل كالفطنة ، والفهم ، والخاطر ، والوهم ، والبديهة ، والروية ، والخبر ، والظن ، والفراسة ، وغير ذلك [٤] .

---

(١) انظر : زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي (١٢٥) طبعة (١٩٥٣م) .

(٢) انظر : الذريعة ، مباحث فضل العقل ، وأنواع العقل ، وتوابع العقل .

(٣) المفردات ، المقدمة (ص٥) إشراف د . محمد أحمد خلف الله (الأنجلو المصرية ١٩٧٠م) .

(٤) انظر : الفصل الثاني ، المبحث السابع .

وكل هذه المصطلحات يعرفها الراغب في اللغة ككلمة معجمية ، ثم يبرز دلالتها الاصطلاحية التي تتصل بالقضية موضوع البحث .

٥ - إشارات موجزة إلى بعض القضايا دون تفصيل :

كذلك يجد القارئ للذريعة أن الراغب له صلة بالحكمة والعقيدة ، ويجده يثير قضايا بإشارات خاطفة دون أن يقف أمامها كثيرًا ، كما فعل في صلة العقل بالشرع فقد أثارها لكنه لم يقف عند الآراء فيها ، كما يشير أحيانًا إلى بعض الآراء مثل الحسن والقبح عند المعتزلة دون أن يبحث هذا الأمر ، ولعل إشاراته هذه - من وجهة نظره - ضوء يثير أصحاب الفضول للكشف والتعمق ، وإن كنا نرى أن الأفضل في مثل هذه الأحوال إما أن يعالج بوضوح أو يسكت بإعراض ، ولكن للإنصاف يجب أن نقدر الراغب في حدود وقته وعصره ، وإمكانية إثارة هذه القضايا أو حظر ذلك .

« الذريعة » في طبعات عدة :

طبعت الذريعة عدة مرات أولها في سنة (١٢٩٩هـ) وآخرها في سنة (١٤٠٠هـ) ، وبيان الأمر فيها كما يلي :

أولًا : مبلغ علمنا أن طبعة (١٢٩٩هـ) أول طبعة لهذا الكتاب ، وقد طبعته مطبعة دار الوطن . كما طبعته للمرة الثانية سنة (١٣٠٨هـ) ، والطبعتان لا يختلفان عن بعضهما ؛ إذ الثانية مأخوذة من الأولى ، ولكن ختام كل طبعة يحمل اسم المصحح . ففي طبعة (١٢٩٩هـ) جاء : « يقول مصححه كثير العثار محمد المعروف بالنجار قد تم بحمد اللَّه طبع كتاب الذريعة في أحكام الشريعة » .

وكان ذلك في (ثاني عشر شعبان ١٢٩٩هجرية على صاحبها أسمى السلام وأتم التحية) ، فخذه وقد بَدَرَ بَدْرُ طبعه ، لحسن شكله وعموم نفعه ، مقابلًا على أصله الفريد الذي لم يخل أكثره عن التحريف والتعقيد ، والمرجو العفو عن من جنى ، ولمن أصلح الحمد والثنا ، والحمد للَّه على التمام وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى جميع أنبيائه الصلاة والسلام » . اهـ .

أما خاتمة النسخة (١٣٠٨هـ) ففيها ثناء على الكتاب وعلى مطبعة الوطن ، ولكن المصحح هنا هو « الراجي عفو الباقي عبد الهادي موسى البولاقي » كذلك لم يذكر أنها مقابلة على الأصل الفريد ، ولا أدري هل ذلك من باب الأمانة العلمية أم اكتفاء بما سبق تقريره في الطبعة الأولى .

وكذلك تجيء طبعة (١٣٢٤هـ) المطبعة الشرقية صورة للطبعتين السابقتين .

ثانيًا : بعد قرابة نصف قرن طبعت بمكتبة الكليات الأزهرية سنة (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) وكتب عليها اسم الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد بما يوهم أن عملًا جديدًا تم بها وبخاصة أنه وقع تحت مقدمة صغيرة عن الأخلاق باسم المحقق ، ولكن الحقيقة أنها نسخة طبق الأصل من الطبعات السابقة مع إضافة بعض الحواشي التي لا تتصل بموضوع الكتاب فضلًا عن عدم التعرض للأحاديث ولا للأعلام والكلمات المأثورة . وعلى مشارف القرن الخامس عشر الهجري طبعت الذريعة في دار الكتب العلمية ببيروت (١٤٠٠هـ) وجاءت نسخة مطابقة تمامًا لما سبق ، غير أنها ذكرت دار الكتب العلمية بدل مطبعة الوطن أو غيرها . وكذلك - ومما يؤسف له - أنها نقلت نهاية الطبعة (١٣٠٨هـ) إذ جاء اسم مصححها هو هو « الراجي عفو الباقي : عبد الهادي موسى البولاقي » فكانت دليلًا على أنها تتبع ما قبلها حذو القذَّة بالقـذَّة .

تعقيب :

الشأن في كتاب طُبع طبعات متعددة أن يكون في غنًى عن أن يقدم محققًا ؛ لأن من النمو المنطقي لمتابعة المعرفة أن تصلح أخطاؤه مرة فمرة حتى ينجو منها ، لكن الذي حدث هنا يخالف هذا المنطق فهي كلها صور لشيء واحد ، تكرر فيها الخطأ الذي جاء في أول طبعة للكتاب .

ولعل أهم ما يلفت النظر أن النسخة التي قوبلت عليها أول طبعة (١٢٩٩هـ) ليست الفريدة كما زعم المصحح في خاتمة الكتاب ؛ إذ من المعروف - كما سيجيء - أن للكتاب نسخًا خطية عديدة ، بعضها - وهو متعدد - في دار الكتب بالقاهرة ، وبعضها في غيرها من مكتبات العالم .

والأخطاء التي تتردد في الطبعات كلها ليست هينة ولا يسيرة :

١- فالمطبوع طُبع على نسخة غير جيدة ولعلها متأخرة زمنيًا ، وهناك ما هو أكمل منها وأقدم .

٢- وُجِدَ نقص كبير يصل حد السطور العشرة أحيانًا - كما هو مذكور في تحقيقنا هنا .

٣- القارئ للنسخة ليعدَّها للطباعة قرأ كثيرًا من الكلمات على غير حقيقتها فاضطرب المعنى .

٤ - المصحح - مع إحسان الظن بالآخرين - لم يراع الدقة المطلوبة فسقطت أحرف « لا » ، « أو » ، فاضطرب المعنى واختل أسلوب الراغب .

هذه إلى جانب ما ذكرته من مسوغات علمية للاهتمام بالرجل والكتاب ، ألزمتني أمانة تحقيق هذا الكتاب على أكثر من أصل خطي لأصلح الخلل وأقيم المعنى ، والله ولي التوفيق .

« الذريعة » في نسخ خطية متعددة :

ذكر بروكلمان وهو يترجم للراغب الأصفهاني أماكن عديدة من مكتبات العالم توجد بها نسخ خطية للذريعة « فيينا ١٨٣٩ - راغب باشا ١١٧٩ - كوپريو ١٣٧١ رقم ٢ - برلين oct ٣٣٤٥ - المتحف البريطاني or ٧٠١٦ (ثالث ٧٦) - لاله لي ١٧٤٤ - أيا صوفيا ٢٨٩٦ - ٢٨٩٨ ، ٤٠٢٧ ، ١٨٤٤ - الفاتح ٩٠ - ٣٨ - نور عثمانيه ٢٣٨٣ - مشهد ٦/ ٦ ، ٢١ » (١) .

كما ذكرت فهارس دار الكتب المصرية عديدًا من النسخ لها بعضها مكرر لسابقه ، وبعضها مستقل ومختلف عنه (٢)

وقد طلبت مصورة لنسخة برلين سابقة الذكر فوجدتها من أقدم التواريخ ؛ إذ نسخها كان عام (٥٩٢هـ) ، أي بعد وفاة الراغب بتسعين عامًا ، وحين قابلتها على المطبوع وجدت الفرق كبيرًا ، بل أقول : كشفت عوار النسخ المطبوعة ، فاعتبرتها النسخة الأم ورمزت لها بـ « أ » .

ثم اطلعت على نسخ عديدة في دار الكتب المصرية مثل « ١٣ » مجاميع وهي واضحة ، لكن ليس عليها ما يثبت أي معلومات زمانًا أو شخصًا للكاتب مثلًا ، وهي مهداة إلى دار الكتب (١٢٣٠هـ) كما اطلعت على نسخة أخرى برقم (٢٣٤٣٥) ووجدتها كالسابقة غير أنها تذكر الأبواب والفصول بالأرقام في بداية المقدمة وكثيرًا ما يحدث خطأ في الأرقام .

وقابلتها على المطبوعة فوجدت اختلافات يسيرة ، وهي أقدم من سابقتها كما يظهر من نوع الخط ، لكنها بها بعض النقص الذي جعلني أستبعدها من نسخ المقابلة .

ثم وجدت بدار الكتب المصرية نسخة أخرى برقم (٢٢٩٩٤ ب) ، وبعد

---

(١) تاريخ الأدب العربي (٥/٢٠٩) .

(٢) فهرس الكتب العربية الموجود بدار الكتب المصرية حتى ١٩٢١ ، الجزء الأول : الملحق (ص٤٢) .

تفحصها آثرت اعتبارها نسخة أخرى للمقابلة ورمزت لها بـ « د » نسبة إلى دار الكتب المصرية .

وأما الاختيار فسببه أنها مع كونها منسوخة في (١١٢١هـ) فإن في صفحة العنوان ما يفيد أنها نسخت من أصل كتبه محمد سعيد في (٦٩٧هـ) .

ثم إنه في آخر النسخة تعقيب لأحمد بن ناصر الدين بن علي البقاعي الشامي ، كتبه ذيلًا لهذه النسخة عام (١١٤٣هـ) وأهمية التعقيب تأتي من أنه قرأ هذه النسخة فوجد الناسخ قد أخطأ كثيرًا فزاد ونقص ، وكأن صاحب التعقيب رأى أنه لا بد من موقف يصحح به هذا ، فقابل هذا على نسختين كانتا تحت يده . الأمر الذي جعل هذه النسخة - بعد تصحيحها وشطب الأخطاء التي كانت بها - نسخة محققة من أصلين ، فإذا تسنى لنا هذا مع نسخة برلين قديمة التأريخ نكون قد وفقنا بفضل اللَّه على ما يقربنا من التيقن ويبعدنا عن الاضطراب .

ونص التعقيب : « الحمد للَّه رب العالمين ، الكتابة لذاتها حسنة ومحمدة ، كما أن التحريف سيئة مجردة ، فالمحسن فيها كالمحسن إلى الناس ، والمفسد فيها كالمسيء إليهم بجميع الحواس ، فالأول يمدح بكل لسان ، والثاني يذم لتحريفه بنص القرآن ، فرحم اللَّه امرأً أسس مباني ما ينقله على الصحة من حيث لا يبدله ؛ ليكون فهم تلك المعاني من هاتيك المباني على طبق ما قصده مؤلف الكتاب .

وقد أساء هذا الناسخ كما رأيت في كل فصل وباب وبيت ، فأتعب من بعده بحرمة ما هدم ، من تلك المفاني المشيدة بمعاني النعم ، حتى صرف مدة بمعارضة هذا الفرع على أصلين ، وعسى أن لا يقال رجع بخُفَّي حُنين .

العبد الفقير إليه تعالى في كل حال ، المنشئ له الحمد والشكر بالغدو والآصال أحمد ابن ناصر الدين بن علي البقاعي الشامي .

غفر اللَّه لهم ولكل من هو بخير داعٍ . وصلَّى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم أولًا وأخيرًا » .

في أواخر محرم سنة (١١٤٣هـ) .

وفي الصفحة الأولى لهذه النسخة توقيعات عديدة استدللنا منها على أصل النسخة التي أصلحها البقاعي أكرمه اللَّه ، وقد قرأت النسخة فوجدت الناسخ كان قد أحدث زيادات من عنده في المتن ، ونقص أحيانًا لسبب لا يعلمه إلا اللَّه ، ولكنها بعد التصحيح

أصبحت مكتملة ، بل وجدتها تلتقي مع النسخة « أ » في كثير من تكميلات النسخة المطبوعة .

إذن النسخ التي عليها المقابلة والعمل هي :

« أ » ترمز إلى نسخة برلين رقم (oct / ٣٣٤٥) .

« د » ترمز إلى نسخة دار الكتب المصرية برقم (٢٢٩٩٤ ب) .

« ط » ترمز إلى النسخة المطبوعة ؛ لأنه رغم تعدد الطبعات فكلها شيء واحد كما ذكرنا .

منهجنا في التحقيق

لا نزعم أننا نتفرد بشيء لم تجر الأعراف العلمية عليه في أصول التحقيق ، وإنما نذكر هذا بيانًا لما يمكن أن يغمض في ذهن قارئ الكتاب بالنسبة للنص الأصلي أو طريقة الحواشي :

١ - مقابلة النص لإكمال الناقص ، وإزالة الاضطراب ، وفي ذلك كان همنا الأول إقامة النص مستقيمًا مع المعنى ، منبهين في الحواشي على ما حدث من اختيار للفظ من نسخة أو نسختين ، وإذا أضفنا شيئًا تراءت لنا ضرورته وضعناه بين قوسين هلاليين هكذا ( ) .

٢ - وفي داخل القراءة الفاحصة للنص وجدنا غموضًا في بعضه ، أو حاجة علمية لحاشية ما ، فأثبتناها وراعينا فيها الإيجاز وأشرنا إلى مصادر توثيقها قدر الطاقة .

٣ - ذكرنا السور وأرقام الآيات الواردة في النص .

٤ - خرجنا أحاديث النص كلها وفي ذلك نسأل اللَّه الثواب على ما بذلنا من جهد ؛ لأن الراغب الأصفهاني ليس من رجال الحديث ، وجلُّ الأحاديث المذكورة بألفاظها اضطراب مما أتعبنا في الاهتداء إليها ، **وهنا ننبه** إلى أننا حين نذكر لفظ الحديث في الهامش فمعناه أنا لم نجد اللفظ المذكور في المتن ؛ إذ لو وجدناه في كتب السنن أو غيرها نبهنا على ذلك حتمًا . وحين يكون لفظ المتن مطابقًا للفظ الحديث نذكر مكانه في مظانه ، واللَّه المستعان .

٥ - حاولنا جهدنا أن ننسب الأقوال لأصحابها من مظانها الأصيلة كما حدث في كلمات الإمام عليٍّ مثلًا ، والحسن البصري ، وأبي بكر الصديق وغيرهم .

٦ - ترجمنا للأعلام ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا .

٧ - حاولنا توضيح ما ظنناه غامضًا من بعض ألفاظ النص ومصطلحاته .

٨ - نسبنا من الشعر ما أمكننا ذلك .

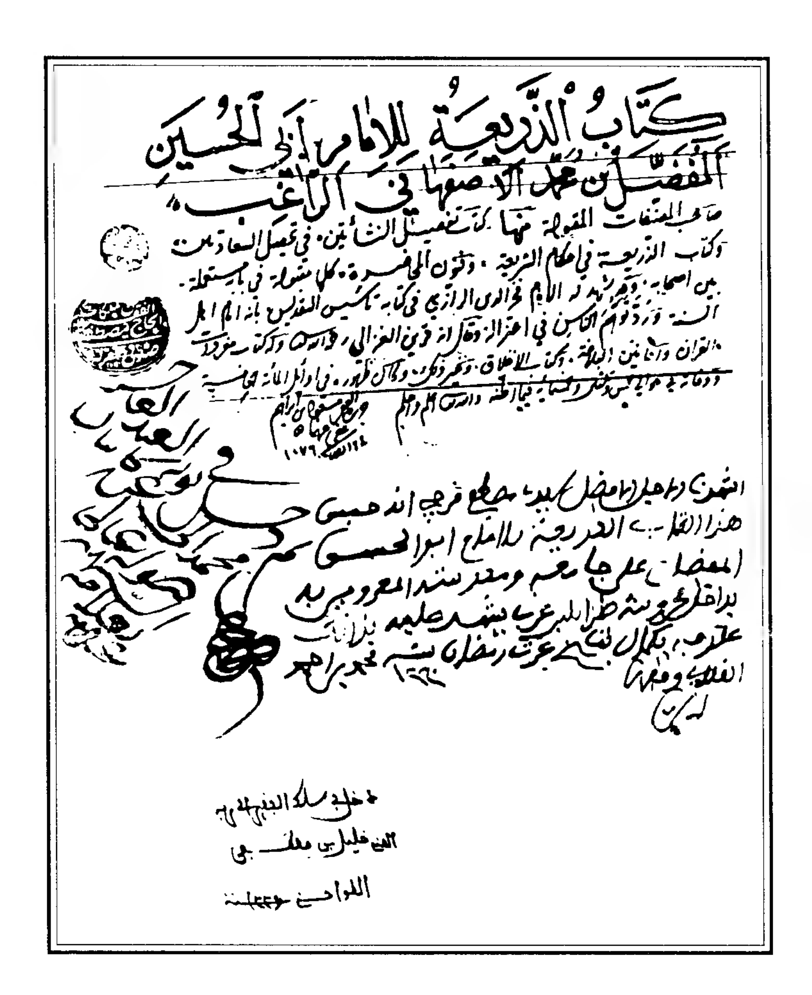
والله أسأل أن يكتب هذا العمل لنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أبو اليزيد أبو زيد العجمي

الرياض في ٢٠ صفر ١٤٠٤هـ

* * *

صور المخطوطات


كتاب الذريعة للإمام أبي الحسين
المفضل بن محمد الأصفهاني الراغب
صاحب المصنفات المقبولة منها كتاب تفصيل النشأتين في تحصيل السعادتين

غلاف النسخة « أ »

الرحمن الرحيم عونك يا رب

نسأل الله تعالى أن يجعل ... سبب الوجود نوراً يهدينا إلى الإقبال عليه ويوصلنا

إلى الاصطفاء لديه ويرينا طرق حسن معاملته والقوة على النفاذ في طاعته وأن يجعلنا

من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال إن عبادي ليس لك

عليهم سلطان، وجعلهم الشيطان مثنوية اليمين حيث قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين

إلا عبادك منهم المخلصين. قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رحمه الله

كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن إلى الفرق بين

أحكام الشريعة ومكارمها، وأن المكارم المطلقة هو اسم لما لا يتحاشى من

وصف الباري جل ثناؤه بأكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعفو وإن كان

وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر وأن الأحكام يتناول

ذلك والعبادات أوامر بالكتاب الكريم يستحق الإنسان أن يوصف بكونه

خليفة الله المعني بقوله عز وجل إني جاعل في الأرض خليفة وبقوله

ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وقوله وهو الذي جعلكم خلائف

الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم. وأشرت أن خلافة

الله عز وجل لا تصح إلا بطهارة النفس كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة

الجسم. واستخرت الله الآن في عمل كتاب يكون ذريعة إلى مكارم

الشريعة، وبينت كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية التي جعلها الله تعالى

شرفاً للأنبياء، وكيف يترقى منها إذا وصل إليها إلى منزلة الخلافة التي جعلها الله تعالى

شرفاً للصديقين والشهداء، وبينا الجمع بين أحكام الشريعة ومكارمها علماً

وإبرازها عملاً ليكتسب العلى، ويتم التقوى، ويبلغ الجنة المأوى.

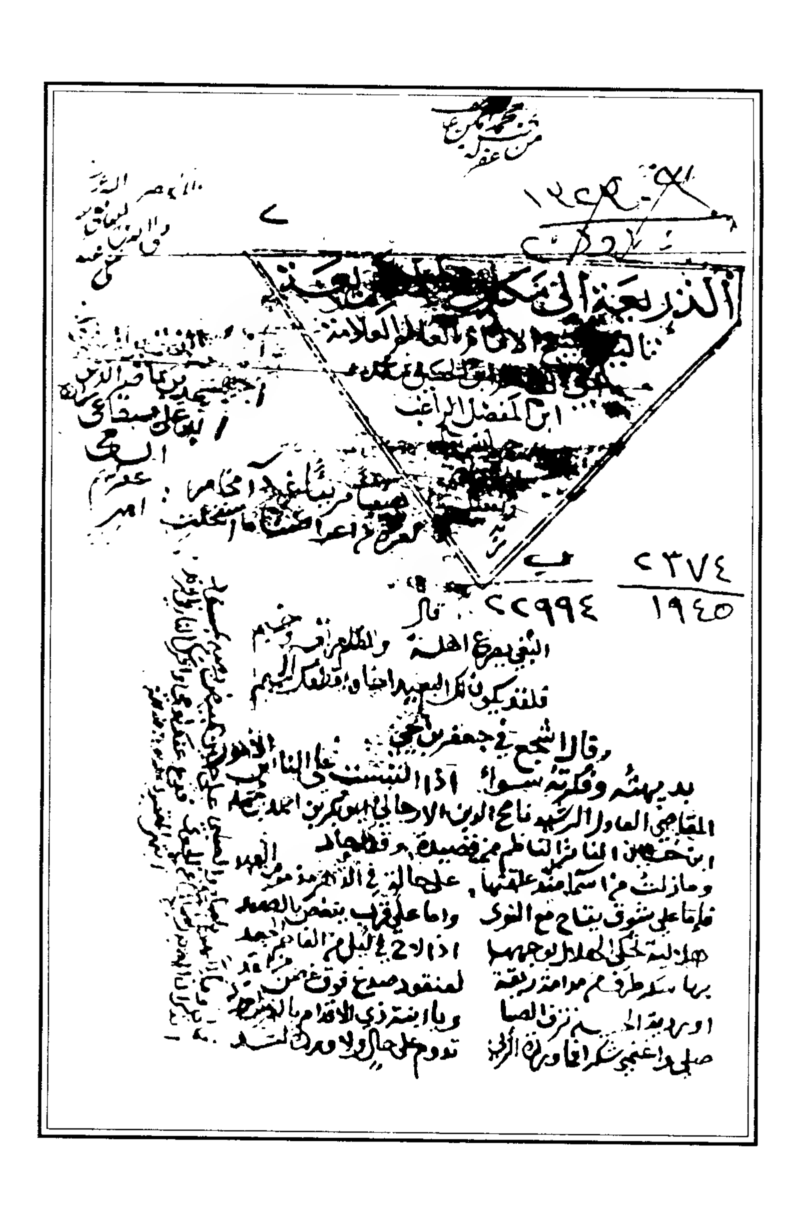
ورغبني إليها الأخ الفاضل وفقك الله تعالى [illegible]

ما رأيت

الصفحة الأولى من النسخة « أ »

ممن تذكر فذكر وتبصر فبصر واتعظ فوعظ وسقط فاغبط فاعظم
المحنة ان يأمر من لم يأتمر ويزجر من لا ينزجر وان تدعي الحكمة من لا
اذا لقيته المجالس لا تحتسبه واذا لقيته المساوي لا تحتويه يرى القذاة في عيون
اخوانه فيذكرها ويترك الجذع المعترض في اجفانه لا يعين بنفع غيره ويغش
نفسه كمن كسا الناس من عري وعورته للناس بادية ما ان يواريها
وكالمسن الذي يشحذ الحديد ولا يقطع وكالحجر الصلد الذي يمر به الماء
النافع فلا ينبع هو به وقد قال عليه السلام ان الله تعالى يؤيد هذا الدين
باقوام لا خلاق لهم فنرغب الى الله تعالى ان يجعلنا برحمته ممن ائتمر بنبيه عليه
السلام حيث قال اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل
سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل
موتك فما اعظم في القيمة الحسرة والندامة ان لم يتغمدني الله برحمته التي
وسعت كل شيء فتمهل بارز المجاز ويسرني الجواز فقد جاز حصادي لوان
بطيء فتاديه اللهم وصل على خاتم النبيين محمد وآله اجمعين
وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
~~اللهم وصل على محمد افضل وعلى آل محمد افضل ما صليت على احد من خلقك~~
صلاة لا تنتهي ابدا ولا تحصى عددا واغفر لكاتبه ولصاحبه ولوالديه
ولجميع المسلمين ولمن قال آمين يا رب العالمين
ووقع الفراغ من نساخة هذا الكتاب عند عشر الخالي من شهر
ربيع الآخر من شهور سنة اثنين وتسعين وثمانمائة غفر الله لكاتبه ونفع به
صاحبه والمسلمين واستعمله بما يرضيه بمحمد وآله الطاهرين
بحمد وصلى الله على رسوله سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليما

الصفحة الأخيرة من النسخة « أ »



غلاف النسخة « د »

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله بجوده الذي هو سبب الوجود بنوره أن يهدينا إلى
الإقبال عليه ويميلنا إلى الإصغاء إليه ويدلنا على حسن معونته
والقوة على النفاذ في طاعته وأن يجعلنا من جملة من أن
يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال إن عبادي ليس لك عليهم
سلطان وجعل الشيطان منهم بمعزل حيث قال فبعزتك
لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال الشيخ أبو
القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رحمه الله كنت أشرت
فيما أمليته من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن إلى الفرق بين
أحكام الشريعة ومكارمها وأن المكارم المطلقة هي اسم لما
يتحاشى من وصف الباري جل ثناؤه بالكلم بالحكمة والجود
والعفو وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف
به البشر والتي هي الأحكام تتبعنا ولذلك والعبادات وأن
باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة
الله المعني بقوله عز وجل إني جاعل في الأرض خليفة وبقوله
تعالى ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وبقوله
وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض
درجات ليبلوكم فيما آتاكم أي سكان الأرض بعضها
بعضا وأشرت إلى أن خلافة الله لا تصح إلا لطاهر النفس وقد
استخرت الله وعملت في ذلك كتابا يكون ذريعة إلى مكارم
الشريعة وبينت كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية

التي

وله الحمد وصلاته على محمد النبي وآله

قوله باكتساب المكرمة أي في قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم

النفس كما أن أشرف العمل لا يصح إلا لطاهر ... تعالى

الصفحة الأولى من النسخة « د »

ان الله ينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم ونرغب
إلى الله تعالى برحمته أن يجعلنا ممن ائتمر للنبي صلى الله
عليه وسلم حيث قال بادر بحسناتك قبل خمس شبابك قبل
هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل
فقرك وحياتك قبل موتك فما أعظم في النهاية الحسرة
والندامة إن لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل
شيء فتمهل يا زائر المجاز وتبشر بالجواز فقد حان
حصادي ولم يصلح بذاري ولم يحصل رشادي
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة
يوم الخميس المبارك ثالث عشر ذي القعدة
المعظم قدره الذي هو من شهور
سنة ألف ومائة واحد
وعشرين من الهجرة النبوية
على صاحبها
أفضل الصلاة
والسلام
الحمد لله رب العالمين

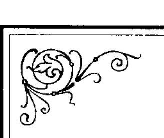
الكتابة لذاتها حسنة ومحمودة كما أن التحريف لنفسه
سيئة مجردة فالمحسن فيها كالمحسن إلى الناس
والمفسد فيها كالمسيء إليهم بجميع الحواس
فالأول يفتح ... والثاني ...

الصفحة الأخيرة من النسخة « د »

وبداية تعليق أحد مقابلي النسخ

ببعض القراآت، فرحم الله امرأً استمر ما بين
ما ينقله على الصحة، من حيث لا يبدّ له، ليتيسّر
فهم تلك المعاني، من بين تلك المباني، على طبق
ما قصده مؤلف الكتاب من إشارة أو تلميح
أو سؤال أو جواب، وقد أسآ هذا الناسخ
كما رأيت، في كل فصل وباب وبيت،
فأتعب من بعده برمّته ما هدمه من تلك
المغاني المشيّدة بمعاني النعم، حتى صرت
مدّة بمعارضة هذا الفرع على أصلين
وعسى أن لا ينال فيه رجع بخُفَّي حُنين
السعيد المفتقر إلى الله تعالى في كل حال، المنثني
له الحمد والشكر بالغدوّ والآصال، أحمد بن ناصر الدين
ابن علي بن بقاعي الشامي، عفا الله لهم ولكل من هو
بخير دا ع ...
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر شهر ، ولا آخرا
محرم سنة ١١٣٣

بقية تعليق مقابل النسخ (نسخة د)




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

مقدمة المؤلف




بسم الله الرحمن الرحيم

الذريعة إلى مكارم الشريعة
لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

نسأل اللَّه تعالى أن يجعل لنا [(١)] بجوده الذي هو سبب الوجود - نورًا يهدينا إلى الإقبال عليه ، ويميل بنا إلى الإصغاء إليه ، ويدلنا على حسن معاملته ، والقوة على النفاذ في طاعته ، وأن يجعلنا من جملة من ضمن أن يحرسهم من غائلة الشيطان ، حيث قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] وجعلهم الشيطان مثنوية [(٢)] اليمين حيث قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] [(٣)] .

قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ : كنت قد أشرت فيما أمليته من كتاب « تحقيق البيان في تأويل القرآن » [(٤)] إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ، فإن المكارم المطلقة هي اسم لما لا يتحاشى من وصف الباري جلَّ ثناؤه بها أو بأكثرها [(٥)] نحو الحكمة ، والجود ، والحلم ، والعلم ، والعفو ، وإن كان وصفه تعالى بذلك على حد أشرف مما يوصف به البشر ، وإن الأحكام تتناول ذلك و (تتناول) العبادات .

وإنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة اللَّه [(٦)] المعني بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

---

(١) قوله : (أن يجعل لنا) انفردت بها النسخة المطبوعة .

(٢) الاستثناء الذي يخرجهم من الحكم المطروح في ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

(٣) انفردت النسخة (د) بزيادة بعد الآية هي : « وله الحمد والصلاة على محمد النبي وآله » .

(٤) ذكرته كتب الفهارس والتراجم وذكره الراغب في المفردات ، لكنه مفقود لم يعثر عليه بعد ، انظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (٥/٢٠٩) ترجمة د. رمضان عبد التواب ، طبعة دار المعارف بمصر . عباس أحمد غزاوي : الراغب ومنهجه في المفردات (٥٥) (ماجستير آداب الإسكندرية) ، المفردات في غريب القرآن ، إشراف د . محمد أحمد خلف اللَّه ، الأنجلو المصرية (١٩٧٠) مقدمة المشرف .

(٥) « بها أو بأكثرها » تعرت عنها النسخة (د) والمعنى يتطلبها .

(٦) تحرج كثير من العلماء من استعمال خليفة اللَّه ، ووجهوا معنى الخلافة إلى الحكم بالعدل وأن يخلف الإنسان غيره في حمل الرسالة ، بل وينعي ابن تيمية على ابن عربي فهمه للخلافة بأنها خلافة عن اللَّه ، ويرد ذلك ؛ لأنه ينافي قيومية اللَّه سبحانه وينفي عنه كثيرًا من صفاته العلا ، انظر الفخر الرازي في تفسيره (٢/ ١٦٥) ، طبعة طهران . والفتاوى لابن تيمية (٣٥ ، ٤٢ ، ٤٦) طبعة دار الإفتاء (١٣٩٨هـ) .

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] .

وأشرت أن خلافة الله ﷻ لا تصح إلا بطهارة النفس ، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم .

وقد استخرت الله الآن ، وعملت في ذلك كتابًا ليكون ذريعة إلى مكارم الشريعة ، وبينت كيف يصل الإنسان إلى منزلة العبودية التي جعلها الله تعالى شرفًا للأتقياء ، وكيف يترقى عنها إذا وصلها إلى منزلة الخلافة [١] التي جعلها الله تعالى شرفًا للصديقين والشهداء . فبالجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علمًا ، وإبرازهما عملًا يكتسب العلا ، ويتم التقوى ، ويبلغ إلى جنة المأوى .

ورغبني أيها الأخ الفاضل - وفقك الله وأرشدك [٢] ، وأعاذك من شر نفسك - في تصنيفه ما رأيت من تشوقك أن تزين ما وليه الله من حسن خَلْقك وخُلُقك بما تتولاه من تحسين أدبك ، وإكمال مروءتك ، فما أجدر رواك [٣] الصبيح أن تحصِّل وراءه الرأي الصحيح .

حتى تصادف أُترجًا يطيب معًا حملًا ونَورًا فطاب العود والورق [٤]

فما أقبح المرء أن يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه جنة يعمرها بوم ، وصرمة يحرسها ذئب ، كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه : أما البيت فحسنٌ وأما ساكنه فرديءٌ ، وأن يكون باعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه ثورًا عليه حلى ، فقد سمَّى بعض الحكماء الأغنياءَ الأغبياءَ تيوسًا صوفها درر ، وحمرًا جلالها حبر [٥] ، ودخل حكيم على رجل فرأى دارًا مستجدة [٦] ، وفرشًا مبسوطة ، ورأى صاحبها خلوًا من الفضيلة

---

(١) نرى أن الخلافة ليست ترقيًا عن العبودية بل ، هي تحقيق لها بما تقتضيه من حمل للأمانة ولا يستحق وصف (عباد الرحمن / عبادي) إلا من اضطلع بمهام الخلافة .

(٢) هي هكذا في المخطوطتين (أ) ، (د) ، وفي المطبوعة : « وأرشدك » .

(٣) في المطبوعة : « محياك » وفي الأخريين كما هي مثبتة هنا .

(٤) في النسختين (أ) ، (د) : « وطاب » بالواو . والأترج : شجر ناعم الأغصان والأوراق والثمر ثمرة ، كالليمون ، ذكي الرائحة . معجم الوسيط (٤/١) .

(٥) جمع جل وهو ما تلبسه الدابة ليحميها ، وحبر : برد يماني للزينة . القاموس ، فصل الحاء .

(٦) في (أ) ، وفي (د) : « مستجدة » ، وفي المطبوعة : « منجدة » . ولعلها « متجددة » فسقطت نقطة التاء والدال الثانية . ولا خلاف في المعنى .

فبزق في وجهه ، فقال له : ما هذا السفه أيها الحكيم ؟ فقال : بل هذه حكمة ، إن البزاق ليرمي إلى أخس مكان في الدار ، ولم أر في دارك أخس منك ، فنبه بذلك (١) على دناءة الجهل ، وأن قبحه لا يزول بادخار القَنيّات (٢) .

فكن (٣) أيها الأخ عالمًا ، وبعلمك عاملًا ، تكن من أولياء اللّه الذين ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] ، واحذر الشيطان أن يسبيك ، ويغريك بأعراض الدنيا وزخارفها ، فيجعلك من أوليائه ويخوفك بوساوسه (٤) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

واعلم أنه قبيح بذي العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنسانًا ، أو إنسانًا وقد أمكنه أن يكون ملكًا (٥) ، وأن يرضى بقنية معارة ، وحياة مستردة ، وله أن يتخذ قنية مخلدة ، وحياة مؤبدة :

فلم ير في عيوب الناس شيء كنقص القادرين على التمام (٦)

وإن أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين ﷺ : « مات خزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة » (٧) .

---

(١) في (د) ، (ط) : « فنبه » ، وهي أوفق ؛ لأن الحكيم لا يقصد تعليم هذا وحده .

(٢) الحادثة تنافي خلق الحكيم المسلم المأمور بعدم الإهانة حين الإصلاح ، وبخاصة أن للوجه حرمة خاصة في الإسلام حيث روى ابن ماجه : « لولا مخافة اللّه لبصقت في وجهه » وقد ذكرت هذه القصة عند ابن زكريا الرازي (ت ٢٥٠هـ) في الطب الروماني ، وهذا معناه أن الراغب ربما نقلها منه ، أو من الفكر اليوناني عن طريق رؤيته هو أو غيره . الطب الروحاني (٦٤) تحقيق د . عبد اللطيف العبد ، النهضة المصرية (١٩٧٧م) . سنن ابن ماجه ، الطهارة (٢٢) . تفسير ابن كثير (٢٧٦/٢) دار الفكر ، بيروت (١٩٧٠م) .

(٣) « فكن » هكذا في (د) فقط وهي أوفق في المعنى .

(٤) في (ط) : « بوسواسه » وفي غيرها « بوساوسه » والأخيرة أصح .

(٥) لعله يشير إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ... ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . أما أن يقبح أن يكون إنسانًا فهذا فيه نظر ؛ لأنه ليس في إمكانه أن يكون ملكًا بطبيعته « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » ولأن رسالته أنيطت به بحكم أنه إنسان بالمعنى القرآني للإنسان « خليقة » ولعل الأصفهاني يرى رأي من يحاول التفضيل بين الملك والإنسان مع أن كلًّا مفضل في بابه .

(٦) ديوان المتنبي ، طبعة صادر ، بيروت (٤٨٣) . انظر الفخر الرازي (١٦٦/٢ ، ١٧٢) طبعة طهران (ط٢) .

(٧) نهج البلاغة (٣٨٦) شرح الإمام محمد عبده ، تحقيق محمد عاشور ، محمد البنا ، (د . ت) .

وإن أردت أن تشاهدهم في الجنة يتنعمون فاستعد حال حارثة حيث قال للنبي ﷺ : أصبحت مؤمنًا حقًّا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟** » فقال في جملة جوابه : وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون ، فصدقه ﷺ فقال له : « **عرفت فالزم** » [١] .

ولا يخدعنك عن طلب ذلك وإدراكه ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [هود : ١٩] فقد وصفهم اللَّه تعالى بالصمم والعمى إذ قال : ﴿ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾ [هود : ٢٠] . ثم ذمهم بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [هود : ٢١] ثم فرق بينهم وبين من ضادهم فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] . فأخبر اللَّه تعالى أنهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصره [٢] اللذين بهما تنال حقائق المسموعات والمبصرات .

وهذا الكتاب يشتمل على سبعة فصول وأبواب [٣] .

---

(١) في النسخة (د) ذكر للحديث بكامله ، فقد سأله النبي ﷺ : « **كيف أصبحت ؟** » ، قال : أصبحت مؤمنًا باللَّهِ تعالى ، فقال النبي ﷺ : « **لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟** » ، قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار يتعادون ، فقال ﷺ : « **أصبت فالزم** » أو في رواية « **أبصرت فالزم** » . (ولعل هذا من مصحح النسخة وليس من الأصل) ، قال الحافظ العراقي عنه : رواه البزار من حديث أنس ، والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف ، الإحياء (١١٣/١٤) طبعة نشر الثقافة والحديث أورده ابن حجر في الإصابة (١٧٤ ، ١٧٥) ، قال البيهقي : هذا منكر ، وقد خبط فيه يوسف بن عطية الصغار وهو ضعيف جدًّا ، وهكذا ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٥/١) وقال : رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به ، وقال الذهبي في الميزان (٤٦٩/٤) : ومن مناكيره ، وذكر هذا الحديث كنز العمال (٣٥٢/١٣ ، ٣٥٤) .

(٢) في (أ) : « وبصيرته » . وهي وإن كانت صحيحة المعنى إلا أن السياق يصحح ما في غيرها .

(٣) يلاحظ أن تعداد الفصول والأبواب وارد في جميع النسخ . غير أن المطبوعة تستخدم كلمة باب بعد الفصل ، ولعلها من الناسخ ؛ لأنها ليست في (أ) كما نسبه على ذلك مصحح نسخة (د) ؛ إذ ذكر أنه وجد في بعض النسخ أبوابًا ، وفي بعضها لم يجد ، مما يرشح أنها من فعل النساخ وقد أضفنا نحن « وتحته مباحث » كما يلاحظ أن المباحث موجودة في جميع النسخ مع تقديم كلمة أو إضافة حرف ، وسوف نترك المقارنة هنا حتى نصل إلى كل عنوان في مكانه الرئيسي إن شاء اللَّه .

ذكر الفصول وأنواعها :

الفصل الأول : في أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه : (وتحته مباحث) : مثل أهل الدنيا وما رشحوا له - ماهية الإنسان وكيفية تركيبه - في قوى الإنسان - تعاون القوى الروحانية وكيفية إدراكها - بيان فضيلة الإنسان على سائر الحيوانات - ما به يفضل الإنسان - كون منزلة الإنسان بين البهيمة والمَلَك - ما لأجله أوجد الإنسان - السياسة التي بها يستحق خلافة اللّه تعالى ﷻ - الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض - كون طهارة النفس شرطًا في صحة خلافة اللّه تعالى وكمال عبادته - فيما يفزع إليه في طهارة النفس - بيان منازعة الهوى والعقل [١] - الفرق بين ما يسومه الهوى وما يسومه العقل - في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى [٢] - حصول الخلق المحمودة [٣] بطهارة النفس - الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة والهوى - إمكان تغيير الخلق - صعوبة إصلاح القوة [٤] الشهوية وما في هذه القوة من المنفعة والمضرة ، ازدياد الإنسان في [٥] الفضائل والرذائل بتعاطيها [٦] - الفرق بين ما يحمد ويذم [٧] من التخلق - سبب اختلاف الناس في أخلاقهم - وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة - أنواع نعم اللّه تعالى الموهوبة والمكسوبة - حاجة بعض هذه الفضائل إلى بعض - الفضائل المضيفة بالإنسان - الفضائل الجسمانية - ما يتولد من الفضائل النفسية [٨] - الفضائل التوفيقية - ما في تلازم الفضائل [٩] النفسية بعضها بعضًا - البواعث على [١٠] فعل الخير وتحري الفضائل - الموانع من تحري الفضائل - الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها إلى أقصى الرذائل - بيان عادة اللّه في تهذيب الذين ترددوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم - أصناف الناس [١١] .

---

(١) في (ط) : « للعقل » .

(٢) في (ط) : « من جهة النفس والهوى » ولعلها أوفق كما تفيد مادة المبحث .

(٣) في (ط) : « الخلق المحمود » .

(٤) في (ط) : « القوى » بالجمع .

(٥) « من » بدلًا من « في » (ط) .

(٦) (ط) : « بتعاطيهما » .

(٧) (ط) : « فيما يحمد ويذم » .

(٨) كلمة « النفسية » ساقطة من (ط) .

(٩) في (ط) : « ما يتولد من الفضائل » .

(١٠) في (ط) : « الباعث » مفردة ، والجمع أصح .

(١١) هذه كلها ساقطة من (ط) .

الفصل الثاني : في العلم والعقل والنطق وما يتعلق بها وما يضادها (وتحته) : فضيلة العقل - أنواع العقل - المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي - منازل العقل واختلاف أساميها بحسبها - جلالة العقل وشرف العلم - الفرق بين العلم والعقل وبين العلم [١] والمعرفة والدراية والحكمة - توابع العقل - ثمرة العقل من معرفة اللّه تعالى الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه الإنسان من ذلك - وجوب بعثة الأنبياء عليهم السلام وقلة الاستغناء عنهم - ما يعرف به صحة النبوة - كون العقل والرسل هادين الخلق إلى الحق - تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتدرب في العلوم العقلية - الإيمان والإسلام والتقوى والبر - في الإيمان - في أنواع الجهل - في معنى قول النبي ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون بابًا** » - كون العلم مركوزًا في نفوس الناس - حصر أنواع المعلومات - ما يعرف به فضيلة العلوم [٢] - استحسان معرفة أنواع العلوم - معاداة بعض الناس لبعض العلوم - الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه - أحوال الناس في استفادة العلم وإفادته - ما يجب على المتعلم أن يتحراه مع المعلم [٣] - ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه - وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم - وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك - ذكر من يصلح لوعظ العامة - الحال التي يجب أن يكون عليها الواعظ - صعوبة المعيار الذي [٤] تعرف به حقائق العلوم - كراهية الجدال للعوام وذمه على كل حال - ما يجب أن يعامل به الجَدل المماحك [٥] - الوجوه التي تقع فيها الشبهة [٦] والخلاف - بيان اختلاف الناس في الأديان والمذاهب - النطق والصمت - الصدق ومدحه والكذب وذمه - ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب - أنواع الكذب والسبب الداعي إليه - الذكر الحسن من المدح والثناء - الشكر - الغيبة والنميمة - الكلام المستقبح - المزاح والضحك - الحلف .

---

(١) « وبين العلم » ساقطة من (ط) .

(٢) « العلم » مفردًا في (ط) .

(٣) « مع المعلم » ليست في (ط) ولذكرها دلالة .

(٤) في (ط) : « التي » وهي خطأ لغوي .

(٥) في (ط) : « ذو الجدال » ، والمعنى صحيح « وإن كانت صيغة الجدل أقوى » .

(٦) « من أجلها » هكذا في (ط) ، وما في غيرها أوفق ؛ إذ ليست الشبهة من أجل الوجوه ، بل الشبهة في هذه الأحوال .

الفصل الثالث : فيما يتعلق بالقوى الشهوية (وتحته) : الحياء - كبر الهمة - الوفاء والغدر - المشاورة - النصح - كتمان السر - التواضع والكبر- الفخر - العجب - أنواع اللذات وتفاصيلها - ما يحسن تناوله من المطعم والمشرب [١] وما يقبح - ما يحسن تعاطيه من المنكح وما يقبح - ذكر العفة - القناعة والزهد - الورع .

الفصل الرابع : فيما يتعلق بالقوى الغضبية : ما ينبع من القوى الغضبية (الحميَّة) - أنواع الصبر ومدحه - الشجاعة - أنواع الفزع والفرق بين ما يحمد منها وما يذم - مداواة الغم وإزالة الخوف -- أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به - السرور والفرح - [٢] العذر والتوبة - الحلم والعفو - ثوران الغضب وفضل كظمه - الغيرة والجُوار [٣] - الغبطة والمنافسة والحسد .

الفصل الخامس : في العدل والظلم والمحبة والبغض (وتحته) : ذكر العدالة وفضيلتها - أنواع العدالة وما يستعمل ذلك فيه - ما يحسن ترك العدالة فيه - ذكر الظلم - الأسباب التي يحصل منها الأضرار - ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة - ماهية المحبة وأنواعها - فضيلة المحبة - فضيلة الصداقة - ذكر المحبب [٤] في الناس - الحث على مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار - فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته - العداوة والغدر [٥] .

الفصل السادس : فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل (تحته) : حاجة الناس في اجتماعهم إلى التظاهر - تسخير اللَّه لهمم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل أحد بما يتحراه - كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس . مناسبة الأبدان للصناعات - وجوب التكسب - مدح السعي وذم الكسل - تقاسيم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض - في أن أصول الصناعات مأخوذة عن وحي - في بيان [٦] الناض المتعامل به وبيان حكمة اللَّه تعالى فيه - مدح المال وذمه - ذكر المال والأدب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل - سبب إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل - تحقيق كون المال في أيدي الناس - تفاوت أحوال المتناولين للأعراض الدنيوية - في بيان ما ورد من

---

(١) « والمشرب » ساقطة من (ط) .

(٢) هنا في (ط) : زيادة « والتوبة » ، « ولا ندري مناسبتها » .

(٣) في (ط) : والجور .

(٤) في (ط) : « المحبة » .

(٥) في (ط) : « في العداوة » وسقطت كلمة « والغدر » .

(٦) في المطبوعة « في شأن » ، وبقية العنوان يرشح « في بيان » .

الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا - أحوال الناس [1] في مراعاة أمور الدنيا والآخرة - بيان حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك - ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية - ذكر الإنفاق الممدوح والإنفاق المذموم - حقيقة السخاء والجود والشح والبخل - فضيلة الجود وذم البخل - أنواع الجود والمجود به .

الفصل السابع : في ذكر الأفعال : (وتحته) : أنواع الأفعال - الفرق بين الفعل والعمل والصنع - أنواع الصناعات - الأفعال الإرادية وغير الإرادية - ما يستحق به من الأفعال اللوم وما لا يستحق به ذلك - الأسباب التي يمكن نسبة الفعل إليها .

* * *

(١) « أحوال الناس » ساقطة من النسخة المطبوعة .




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفصل الأول

في أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه (1)

(1) « وأخلاقه » زيادة في (ط) فقط وهي موافقة لمحتوى الفصل .




مثل أهل الدنيا وما رشحوا له

الإنسان في هذه الدار كما قال أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ : الناس سفر ، والدنيا دار ممر لا دار مقر [١] ، وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده ، وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله ، وشهوره فراسخه ، وأيامه أمياله ، وأنفاسه خطاه ، يسار به سير السفينة براكبها ، كما قيل : شعر [٢] .

رأيت أخا الدنيا وإن كان خافضًا أخا سفر يُسرى به وهْوَ لا يدري

وقد دعي إلى دار السلام كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] وتوجه به إليها نحو أشرف الزهرات وألذ الثمرات ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] ، بل إلى ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . لكن لما كان الطريق إليها مضلة مظلمة قد استولى عليها أشرار ظلمة ، جعل اللَّه تعالى لنا من العقل الذي ركبه فينا وكتابه الذي أنزله علينا نورًا هاديًا ، ومن عبادته [٣] التي أمرنا بها حصنًا واقيًا فقال في وصف نوره : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... ﴾ [النور : ٣٥] فجعل المصباح مثلًا للعقل ، والمشكاة مثلًا لصدر المؤمن ، والزجاجة لقلبه ، والشجرة المباركة وهي الزيتونة للدين ، وجعلها لا شرقية ولا غربية ، تنبيهًا أنها مصونة عن التفريط والإفراط ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] ، والزيت للقرآن ، وبين أن القرآن يمد العقل مدَّ الزيت المصباح ، وإنه يكاد يكفي لوضوحه وإن لم يعاضده [٤] العقل ، ثم قال : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور : ٣٥] ، أي

---

(١) في نهج البلاغة : « إنما مثل من خبر الدنيا مثل قوم سفر » نهج (٣١١) ، وفيها كذلك « الدنيا دار ممر لا دار مقر » نهج (٣٨٤) ، وبقية ما ذكر هنا ليس من كلام الإمام ولعله للراغب نفسه .

(٢) لعل كلمة « شعر » من عمل النساخ ؛ لأنها تذكر مرة وتترك أحيانًا .

(٣) في (ط) : « كتابه الذي أنزله علينا » ، وفي (د) : « كتبه التي أنزلها إلينا » ، وفي (أ) « كتبه الذي أنزلها علينا » ، ورجحنا (ط) ؛ لأنه كتاب أنزل علينا ويضم الكتب السابقة له .

(٤) في (ط) : « يعضده » ، والمفاعلة « يعاضده » أقوى في إفادة المراد .

نور القرآن ونور العقل [١] ، وبين أنه يخص بذلك من يشاء . وقال في وصف ما جعله الله لنا من الحصن : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، أي المتحصنين [٢] بعبادتي فمن لم يقم برعاية نوره وحماية حصنه عمه في دجاه ، وتمكن من [٣] استغوائه عداه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] ، فمن لم يتزود [٤] من دنياه زاده كما أمر الله تعالى بقوله : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] جاءت رحلته [٥] فيُسْتَرجع منه ما أعير من جسده ، وذات يده فيتحسر حين لا يغنيه [٦] تحسره ، ويقول : ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧] ، ويقول : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] فحينئذ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وأيضًا فإن الإنسان من وجه في دنياه حارث ، وعمله حرثه ، ودنياه محرثته ، ووقت موته وقت حصاده ، والآخرة بيدره [٧] ، ولا يحصد إلا ما زرعه ، ولا يكيل إلا ما حصده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : ٢٠] [٨] ، وكما أن في البيدر مكاييل وموازين وأمناء وحفاظًا ومشاهدين ، وكتابًا [٩] ، كذلك في الآخرة مثل ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ

---

(١) وعند الراغب في هذا التعاضد مستنده ، فقد تحدث العلماء في هذا ، ورأوا أن لا مانع من تعاضد المعنيات الإلهية من قرآن ورسل وعقل في الإنسان وآيات في ، الكون ، وكلها دلائل واضحة لا تترك عذرًا لمعتذر . تفسير الفخر الرازي (٢٣/٢٣١) .

(٢) في (ط) : « المتخصصين » وفي غيرها « المتحصنين » ، والأخيرة أولى لورود لفظ الحصن قبلًا في جميع النسخ .

(٣) في (ط) : « تمكنت » ، وجائز « تمكن » كذلك .

(٤) في (ط) : « فلم يتزود » عطفًا على الكلام السابق وفي (د) ، (أ) : بداية لشرط جديد « فمن لم يتزود ... » .

(٥) في (أ) : « جاءت رحلته » ، أي وفاته ، وفي (د) : « حانت رحلته » ، أي حياته . وفي (ط) : « وحانت رحلته » ، والسياق يرشح ما جاء في (ط) و (أ) ؛ إذ هما بمعنى واحد .

(٦) (د) : « ينفعه » والمعنى واحد .

(٧) مكان تجميع زرعه وحصاده ، القاموس فصل الباء باب الراء (١/٣٦٩) .

(٨) يلاحظ ربط عمل المسلم بغايته الحقيقية حتى لا يفهم الأمر على غير وجهه .

(٩) « وكتابًا » هذه في (ط) فقط .

ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] ، وقال : ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

وكما أن في البيدر تذرية وتمييزًا بين النقاوة والحطام كذلك في الآخرة تمييز بين الحسنى والآثام ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، وقال في أعمال الكفار : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] وقال : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] فمن عمل لآخرته بورك في كيله ووزنه ، وحصل له منه زاد الأبد [٢] كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] ، ومن عمل للدنيا [٣] خاب سعيه ، وبطل عمله كما قال اللّه تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥، ١٦] ، فأعمال الدنيا كشجرة الخلاف بل كالدفلي والحنظل [٤] في الربيع يرى غض الأوراق حتى إذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلًا ، وإذا أحضر مجتناه البيدر لم يفد نائلًا ، ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء فإذا جاء وقت القطاف والاجتناء [٥] أفادتك زادًا ، وادخرت منها عدة وعتادًا . وإلى نحوها أشار تعالى بقوله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

---

(١) وهذه الآية ليست في النسخة المطبوعة .

(٢) في (ط) : « وجعل له زاد الآخرة » وفي (د) : « وجعل اللّه له منه زاد الأبد والمعنى واحد » .

(٣) (د) ، (ط) « لدنياه » .

(٤) الخلاف : شجر الصفصاف أو نوع منه ، والدفلي : نبت مر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب ينفع في بعض الأمراض ، والحنظل : نبات يستعمل للسع الأفاعي والعقارب وصعب أن تقبله النفس . القاموس المحيط (٣) أبواب الحاء والدال والخاء (٣٦٣ - ٣٧٦) .

(٥) في النسخة (د) : « وقت الحصاد » ، حان وقت الاقتطاف والجنا ، وهي مجرد مترادفات لما هو في غيرها .

ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٦] [١] .

ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] .

والله تعالى يؤيد بفضله من يشاء وهو الباري [٢] .

ماهية الإنسان وكيفية تركيبه

الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر، ونفس مدركة بالبصيرة، وإليهما أشار تعالى بقوله: ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١: ٧٢] .

فالإشارة بالروح إلى النفس، وإضافته تعالى الروح إليه تشريفًا لها، [٣] وعنى بها النفس المذكورة في قوله تعالى: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ووجود النفس في الإنسان لا يحتاج إلى أن يدل عليه لوضوح أمره، بل ينبه الجاحد [٤] لها والغافل عنها بأنها هي التي بحصولها في الجسم تحصل الحياة والحركة والحس والعلم والرأي والتمييز، ويكون الجسم متصرفًا بها وحاملًا ومستحسنًا ومستطابًا ومحببًا، وبفقدها عدم هذه الأشياء فيصير جيفة يحتاج إلى عدة تحمله [٥] وهي محل الأعراض الروحانية كالجسم

(١) ذكر الفخر الرازي آراء في الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، مجملها أن الأولى هي: لا إله إلا الله، وأن الخبيثة هي: الجهل بالله، لكن ابن كثير أشار إلى أن هذا عبارة عن عمل المؤمن وقوله الطيب وهو لا يزال يرفع كل حين إلى السماء. انظر تفسير الفخر (١٩/١٣٠، ١٣١)، ابن كثير (٤/١٢١) دار الفكر طبعة ثانية.

(٢) لعل هذا الدعاء من عند الناسخ؛ لأنه ليس موجودًا في (أ) ولا في (د) وهو في (ط) يذكر بين الحين والحين.

(٣) في (أ): «تشريفًا له» يعني الإنسان.

(٤) في (أ): «الجاهل» بدل «الجاحد» لكن ما بعدها يرشح صحة (ط)، (د).

(٥) يفهم من كلام الراغب أنه سوى بين النفس والروح، وللعلماء المسلمين كلام في هذا، فقد أخذ بعضهم بتعريف اليونان «كمال أول لجسم آلي ذي حياة بالقوة» واعتبرها بعضهم ما كان معلولًا من أوصاف العبد مذمومًا من أخلاقه وأفعاله سواء كان ذلك كسبيًا أم خلقيًا، فاعتبروا بذلك الروح أعظم من النفس؛ ولذلك أطلق الجرجاني على الروح أنها إلهية شريفة وأنها الروح الأعظم الذي هو الروح الإنساني «مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها؛ ولذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم ولا يروم وصلها رائم، ولا يدرك كنهها إلا الله تعالى»، والراغب قد اختلف عن البعض في تعريفه، لكنه لم يستقصِ المسألة، لأن القرآن استعمل النفس بمعنى الإنسان كله ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾، ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي =

في كونه محلًّا للأعراض الجسمانية ، وقد حث اللَّه تعالى على التدبر في النفس والتفكر فيها ، وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته تعالى في قوله : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات ٢٠: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وكان يقال في الأمم السالفة : من أنكر الباري رجم لكونه جاحدًا ، ومن أنكر النفس رجم لكونه جاهلًا ، وقيل : كان في كتب اللَّه المنزلة : اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك ، وقال ﷺ : « **أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه** » [(١)] ، بل قد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] ، تنبيهًا لهم أنهم لما نسوه تعالى دلَّ نسيانهم إيّاه على نسيانهم لها .

وقالت الحكماء : قد ركب اللَّه الإنسان تركيبًا محسوسًا معقولًا ، على هيئة العالم وأوجده شبه كل ما هو موجود في العالم حتى قيل : الإنسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير ؛ وذلك ليدل به على معرفة العالم ، فيتوصل بهما إلى معرفة صانعهما ، فغاية معرفة الإنسان لبارئه تعالى أن يعرف العالم ؛ فيعلم أنه موجَد ، وأن له موجِدًا ليس مثله ، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا .

في قوى الإنسان [(٢)]

قد جعل اللَّه للإنسان خمس قوى ، يدل على وجودها فيه ما يظهر من تأثيراتها :

قوة الغذاء : وبها النشأة [(٣)] والتربية والولادة .

= ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ولعل الراغب تأثر بابن مسكويه في مبحثه أن النفس ليست بجسم ولا جزء منه ولا حالة له ، انظر ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق (٧) طبعة بيروت (١٩٦١م) التعريفات للجرجاني (٧٧) ط (١٣٢١هـ) مصر ، محمود قاسم (د) في النفس والعقل (٧١) طبعة ثالثة ، محمد يوسف موسى ، فلسفة الأخلاق في الإسلام (١٣٥) طبعة ثانية . ابن قيم الجوزية ، مدارج السالكين (٧/٢) . طبعة (١٩٥٦م) .

(١) قال النووي : إنه ليس بثابت ، وقال ابن تيمية : موضوع ، وقال الألباني : لا أصل له وإنما حكي كقول ليحى بن معاذ الرازي ، انظر : كشف الخفاء (٢٦٢/٢) ، الفتاوى (٣٤٩/١٦) ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٩٦/١) .

(٢) في (ط) : « في تعديد قوى الإنسان وصفاته » ورجحنا ما هنا ؛ لأن صفاته لم يرد لها ذكر في المبحث ، « وتعديد » مفهومة من العنوان .

(٣) في (ط) : « النشوة » وهي خطأ إما من الناسخ وإما من الطابع .

وقوة الحس : وبها الإحساس واللذة والألم .

وقوة التخيل : وبها تصور أعيان الأشياء بعد غيبوبتها عن الحس .

وقوة النزوع : وبها [١] يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف ، والرضا والغضب والإيثار والكراهة .

وقوة التفكر : وبها يكون النطق والعقل والحكمة والروية والتدبير والمهنة والرأي والمشورة [٢] .

فأما القوى المدركة منها فخمس : الحواس الخمس ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والحفظ . فأما الحواس فلكل واحد منها إدراك مخصوص :

فللمسِّ عشر إدراكات : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين والخشونة ، والصلابة ، والرخاوة ، والثقل والخفة .

وللذوق سبع : الحلاوة ، والمرارة ، والملوحة ، والحموضة ، والحرافة ، والعفوصة ، والتفاهة .

وللشم اثنان : الطيب ، والنتن .

وللسمع اثنان : الصوت البسيط ، والكلام المركب منه [٣] .

وللبصر أحد عشر إدراكًا : النور ، والظلمة ، واللون ، والجسم ، وسطحه ، وشكله ووضعه [٤] ، وأبعاده ، وحركاته ، وسكناته ، وأعداده .

فأدون هذه الإدراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم ، فالنفس لا تكاد تستعين بها إلا فيما يعود نفعها إلى صلاح الجسم .

---

(١) « والشهوة » زائدة من (د) فقط ولزيادتها معنى .

(٢) هذه القوى الخمس ترجع إلى قوة الفكر وقوة الشهوة وقوة الغضب ، وهي تقسيم ابن مسكويه الذي تأثر فيه باليونان أو من تأثر بهم كالرازي الطبيب مثلًا ، وإن كنا ندرك محاولة الراغب إضفاء صبغة إسلامية على هذا التقسيم من حيث المحتوى والنصوص الدالة ، لكن ذلك لم يعفه من شبهة تركه للقوة الروحية ؛ حيث جعلها داخلة في القوة الشهوية ، والحقيقة أن الإنسان مركب من عقل ، وإرادة هي الشهوة أو الرغبة ، وقلب أو روح ، ومباحث الكتاب « الذريعة » تشهد بموافقة الراغب لنا في هذا التقسيم ، انظر ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق (١٩ - ٢٩) ، والرازي : الطب الروحاني (٤٥) تحقيق د . عبد اللطيف العبد « الرازي توفي ٢٥٠هـ » .

(٣) في (ط) : « الصوت الخفيف والصوت الثقيل » ورجحنا ما هنا لإفادته معنى يقتضيه تقسيم الأصوات إلى بسيطة ومركبة .

(٤) في (ط) : زيد « ورفعه » ولعل هذا من الناسخ لفهمه أن وضعه بمعنى خفضه ، والرأي أن المعنى هيئته .

وأرفع الإدراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس ، إلا أن العقل والفكر يدركان الأشياء الروحانية .

فأما السمع والبصر فمتوسطان ؛ لأنهما يخدمان النفس والجسم ، وخدمتهما للنفس أكثر ، ويدركان الأشياء الجسمانية .

والتخيل متوسط بين العقل والفكر و (بين) السمع والبصر ، فيأخذ تارة (من) السمع والبصر ويسلم إلى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة ، ويأخذ تارة من العقل والفكر ويسلمه إلى السمع والبصر وذلك في حال النوم .

ولما كان مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل : مسكن الفكرة وسط الدماغ (١) ، ومسكن الخيال مقدَّمُه ، ومسكن الحفظ والذكر مؤخَّره . ولما كان قوام الدماغ ، بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه منشأ الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبَّر عن هذه القوى تارة بالدماغ فيقال : لفلان دماغ إذا قويت منه هذه القوى المدركة ، وفلان خالي الدماغ إذا ضعفت فيه هذه القوى . ويعبر عنها تارة بالقلب والثاني أكثر ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] (٢) .

ولما كان أكثر إدراك الحقائق (٣) بهذه القوى المدركة ، وكانت الفكرة خادمة للعقل ، والتخيل خادمًا للعقل والفكر تارة ، وللسمع والبصر تارة خص اللَّه بالذكر القلب - وهو أحد الطرفين - والسمع والبصر وهو الطرف الآخر ؛ ولذلك عظم اللَّه المنّة على الإنسان

---

(١) مسألة أن القوة المفكرة في الدماغ أو في غيره تكلم فيها الفقهاء قديمًا ؛ فأحمد يرى : أن العقل في الدماغ وكذلك أبو حنيفة ، ومالك والشافعي يريان العقل في القلب ، ولكلٍّ أدلته ، وقد ترتب على هذا بعض الأحكام الفقهية فيما لو جرح أحد آخر جرحًا أذهب عقله ، وقد حاول ابن القيم الجمع بين الرأيين فرأى أن منشأ ذلك في القلب ونهايته مستقرة في الدماغ . وبحوث وظائف الأعضاء ترى وجود العقل في الدماغ لما لاحظوه من تأثر بين أعضاء الجسم وبين الدماغ وأثر ذلك على العقل ، على حين يرى بعض الفلاسفة الغربيين أن العقل والمخ شيء واحد . انظر ابن الجوزي : ذم الهوى (٥) تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ابن القيم : التبيان في أقسام القرآن (٥٦١) قصة الفلسفة : دل ديورانت (٥٦٠) الكسيس كارل : الإنسان ذلك المجهول (١٨) . عبد الرحمن الزيتدي : العقل ومجالاته (٣٤) ماجستير كلية الشريعة بالرياض (١٤٠٢هـ) .

(٢) قال ابن كثير : لب يعي به ، وقال مجاهد : عقل . مختصر ابن كثير (٣٧٨/٣) .

(٣) في النسخة (د) : « ولما كان إدراك أكثر الحقائق بهذه القوى الثلاث القلب ، والسمع ، والبصر عظم اللَّه المنة على الإنسان » وما بين ذلك مشطوب عليه ، ولعل مصححها رأى نسخة بها ذلك ، والمعنى واحد .

بإعطائه إيَّاه هذه الثلاثة ، وحمد من استعملها ، وذم من أهملها فقال (سبحانه) : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال في ذم من لا ينتفع بها : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، وقال : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] أي لا يفهمون . المعنى أنهم لا [١] يسمعون الأصوات أو لا يبصرون الذوات ، وجعلهم بكمًا من حيث إنهم لا يوردون معنى مستنبطًا بالفكر مدركًا بالعقل .

واعلم أن السمع والبصر كالأخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في إدراكه ، فقد ينوب السمع عن البصر في إبلاغ القلب بما يأخذه عن اللفظ فيدرك في ساعة ما لا يدركه البصر في برهة ، وينوب البصر عن السمع في إبلاغ القلب بمطالعة الكتب ما لا يدركه السمع في مدة سيما إذا كان المخاطب ناقص العبارة ، أو غير متثبت في الكلام ، أو دق المعنى وغمض عن الإفهام [٢] .

تعاون القوى الروحانية وكيفية إدراكها [٣]

القوى الروحانية متعاونات [٤] في إدراكهن لرسوم المعلومات ، فإن الخيال يتصور عن المحسوس فتبقى فيه صورته الروحانية فينتقش بها كما تنقش الشمع بصورة الختم ، ثم يأخذها الفكر ، فيميز بعضها عن بعض بنور العقل ، فيبحث عن خواصها ومنافعها ، ومضارها ، ثم يؤديه إلى القوة الحافظة ، فإن أراد إبرازه قولًا سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان ، وإن أراد إبرازه فعلًا سلط عليه القوة العاملة فتوجده الجوارح [٥] .

وقد ضرب بعض الحكماء [٦] مثلًا لهذه القوى يقرب منه تصور تأثيراتها فقال : إن **القوة المفكرة** ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن وسط المملكة ، **والخيالية** ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده ، **والحافظة** ومسكنها مؤخر الدماغ جارية مجرى خازنه ، **والقوة الناطقة** جارية مجرى ترجمانه ، **والعاملة** جارية مجرى

(١) في (ط) : « أنهم يسمعون » بحذف « لا » ، والحذف هنا يخل بالمعنى المقصود كما تدل العبارة .
(٢) « عن الإفهام » زائدة من (أ) ، (د) ولزيادتها معنى بجوار غمض .
(٣) في (ط) ، (د) زيادة « في » قبل « تعاون » ، وفي (ط) : « كيفيات » بالجمع .
(٤) « متفاوتة » بدلًا من « متعاونات » ، والمعنى لا يؤيدها .
(٥) يلاحظ أهمية تعاون قوى الإنسان ، كما يلاحظ أن الراغب عدَّ اللسان قبلًا مع الحواس التي وصفها بأنها «أدون القوى » وهنا ذكر له النطق كعمل مهم .
(٦) من (د) فقط لكنها دقيقة ، حيث لم يضرب كل الحكماء هذا المثل .

كاتبه ، والحواس جارية مجرى جواسيسه وأصحاب [١] الأخبار الصادقي اللَّهجات فيما يرفعونه من الأخبار ، فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذي وكل به فيرفعه إلى صاحب البريد ، وصاحب البريد يسقط منه ما يراه حشوًا ، ويرفع الباقي صافيًا إلى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ، ويسلمه إلى خازنه إلى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم بإخراجه [٢] .

قالوا : وكما أن للملك أفعالًا يستعين فيها بغيره ، وأفعالًا ينفرد هو فيها بنفسه ، والأفعال التي يتولاها بنفسه أشرف مما يفوضها إلى غيره ، فكذلك للقوة المفكرة أفعال تفوضها إلى غيرها ، وأفعال تختص هي بها ، وهي الرؤية والفكر والاعتبار والتصور [٣] والقياس والفراسة ، فهذه الأشياء تدبير الأمور ، فبالفكر استخراج الغوامض ، وبالاعتبار تحصيل التجربة ، وبالقياس استنباط المجهول بتوسط المعلوم ، وبالفراسة الاطلاع على الأسرار [٤] .

ونحو هذا المثل ما روي أن كعب الأحبار قال : دخلت على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقلت : الإنسان عيناه هاد ، وأذناه قمع ، ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ، ورجلاه بريد ، والقلب ملك ، فإذا طاب القلب [٥] طاب جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول [٦] .

---

(١) في (ط) ، (د) : « الجواسيس » ، ورشحنا ما هنا لتناسبها مع الضمائر السابقة .

(٢) يحق هذا المثل إن قصد به أن القوة المفكرة تأتمر بأمر القلب حتى تتوافق مع الحديث الصحيح « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » متفق عليه ، وتتفق مع الآيات التي تسند الفهم للقلب ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] أما إن أريد بها الطاقة العقلية فهي ليست الملك إلا بالنسبة للقوى المدركة ولبعض الحواس المساعدة في هذا .

(٣) هذه من (د) فقط .

(٤) « فبالفكر وبالاعتبار وبالقياس وبالفراسة » كلها ساقطة من (أ) .

(٥) في (ط) : « الملك » بدل « القلب » . ولا خلاف .

(٦) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء من طرق ثم قال : ولا يصح منها شيء ، وذكر ابن تيمية جزءًا منه على أنه من قول أبي هريرة : « القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده » ، وذكر الشوكاني كلامًا قريبًا منه في المعنى ، ثم قال : روي من طريقين عن أبي سعيد وعن عائشة مرفوعًا وكلاهما موضوع كما قال ابن الجوزي وإن دفع ذلك صاحب اللآلئ ، وبالجملة يمكن تضعيفه . انظر الفتاوى (١٠/١٥) ، والشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (٤٦٦) .

بيان فضيلة الإنسان على سائر الحيوانات [(١)]

للإنسان فضل على الحيوانات [(٢)] كلها في نفسه وجسمه : أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتمييز والرأي ، فإن البهائم وإن كانت كلها تحس وبعضها يتخيل فليس لها فكر ولا رويَّة ولا استنباط المجهول بالمعلوم ، ولا تعرف علل الأشياء وأسبابها .

وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية ، وإنما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة وأقواها في ذلك الفيل والقرد .

وأما فضله في جسمه فباليد العاملة ، واللسان الناطق ، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم [(٣)] ، وقد نبه اللَّه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وبقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٤] ولم يعن الصورة التخطيطية فقط ، بل عناها والصورة المعقولة ، ولتشريفه [(٤)] تعالى إياه بذلك قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ومن زعم أن الإنسان خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث إنه لم يكف الملبس كما كفيته ، ولم يعط سلاحًا في ذاته كما أعطي كثير منها ، فنظره ناقص ؛ إذ قد أعطي الإنسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه أن يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده ، فيتناوله متى أراد ، ويضعه متى أحب . ثم لو أعطي الإنسان بعض الأسلحة التي أعطيتها (الوحشيات) لم يمكنه أن يستعمل غيره كالوحشيات ، وأيضًا فلو أعطي ذلك لكان من الحق أن لا يعطى التمييز ؛ لأنه حينئذ كان يستغني عنه فتبطل فائدته ، وفعل اللَّه تعالى منزه عن ذلك .

فإن قيل : وكيف قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] فاستضعفه ؟ [(٥)]

---

(١) في (د) ، (ط) : زيادة في أول العنوان هي « في » .

(٢) في د : « على سائر ... » ، وهي زيادة لا معنى لها ؛ لأن كلها تفيد المعنى نفسه .

(٣) في (أ) : « على كل واحد مما في هذا العالم » ، وهي عبارة عامة ، ما هنا أضبط منها ؛ إذ يمكن تفسيره بكل خير أوجد في هذا العالم .

(٤) (ط) هكذا ، وهي أصح من الأخريين ففي (أ) : « وبتشريفه » وفي (د) : « وتشريفه » .

(٥) تفردت المطبوعة بزيادة « فاستضعفه » بعد الآية ، والمعنى يتم بدونها ، وقد وجدتها في (د) مشطوبة من المصحح .

قيل : ضعفه بالإضافة إلى الملأ الأعلى لما فيه من الحاجات البدنية التي قد كفيها أولئك (١) .

واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فإنما أوجد لأجل الإنسان ، إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير ، أو الأغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار ، وإما لانتفاع ما ينتفع به الإنسان كالعشب والحشرات ، وما لا يعرف الإنسان نفعه فليس يخرج عن كونه نافعًا ، وقد بين الحكماء نفع جلها ، وما لا سبيل لبعضنا أو لكلنا إلى معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحًا في حكمة اللَّه تعالى في إيجاده . ورب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوان ؛ كالشجر الذي فيه العسل بالقوة . وما سخر لمعرفته واستخراجه إلا النحل ، وما أليق من أنكر حكمة اللَّه تعالى لجهله أن يُنشد :

عليَّ نحت القوافي من مقاطعها وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

واللَّه أعلم .

بيان ما به يفضل الإنسان (٢)

الإنسان وإن كان هو بكونه إنسانًا أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعي ما به صار إنسانًا ، وهو العلم الحق (٣) والعمل المحكم ، فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل ؛ ولهذا قيل : الناس أبناء ما يحسنون (٤) ، أي ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة . يقال : أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسنًا .

أما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار .

وإنما فضيلته بالنطق وقواه ومقتضاه ؛ ولهذا قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة ، فالإنسان يضارع الملك بقوة العلم والنطق والفهم ، ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح ، فمن صرف همته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق أن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكًا وربانيًا كما قال تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] ، ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات

(١) كلمة « أولئك » ساقطة من (د) ، (ط) .

(٢) في بيان هكذا في (د) ، (ط) .

(٣) وصف « العلم » بـ « الحق » تفردت بها (ط) لكنها أصح للتمييز بين علم وعلم .

(٤) للإمام علي : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » نهج البلاغة (٣٧٥) .

البدنية ، يأكل كما تأكل الأنعام فخليق أن يلحق بأفق البهائم ، فيصير إما غمرًا كثور أو شرهًا كخنزير ، أو ضريًا ككلب ، أو حقودًا كجمل ، أو متكبرًا كنمر ، أو ذا روغان كثعلب ، أو يجمع ذلك كله فيصير كشيطان مريد ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

ولكون كثير [١] ممن صورته صورة إنسان وليس هو في الحقيقة إلا كبعض الحيوان ، قال اللّٰه تعالى في الذين لا يعقلون عن اللّٰه : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، وقال : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] [٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٥] [٣] . فبين أن الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التي جعلها اللّٰه لهم هم شر الدواب [٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، أي مثل واعظ الكافرين كمثل [٥] ناعق الأغنام تنبيهًا أنهم فيما يقال لهم كالبهائم ، وبهذا النظر عبر الشاعر عن بعض من ذمَّه فقال :

اللؤم أكرم من وبر ووالده ... واللؤم أكرم من وبر وما ولدا [٦]

ولم يقل « ومن ولدا » تنبيهًا أنه لا يستحق أن يقال له : من ؛ لكونه بهيمة .

وعلى هذا قال المتنبي :

حولي بكل مكان منهم خِلَقٌ ... تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بِمَنِ [٧]

ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الأنواع وبعضها من التفاوت ما بين إنسان وإنسان فإنك قد ترى واحدًا كعشرة [٨] ، بل واحدًا كمائة ، وعشرة أخرى هدرة دون واحد ، كما قيل لامرأة في منامها : أعشرة هدرة أحب إليك أم واحد كعشرة ؟ فقالت :

---

(١) في (أ) : « ولكن كثير » ، وهي خطأ لعله من الناسخ .

(٢) هذه الآية غير موجودة في د و ط .

(٣) هذه موجودة في (ط) فقط .

(٤) في (أ) : (شر من الدواب) ، وغيرها أصح لتوافقه مع لفظ الآيات المذكورة .

(٥) كلمة « مثل » التي بعد الكاف ليست في (ط) وغيرها موافقة لمشاكلة الآية .

(٦) لم أستطع نسبته .

(٧) ديوان المتنبي (١٧٠) .

(٨) في (ط) : زيادة « وعشرة كمائة » ، ولا فائدة منها فالنسبة واحدة ، ولعلها من الناسخ .

بل واحد كعشرة [١] . (لا بل ترى واحدًا كألف وألفًا مثل واحد كما قال القائل) [٢] :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتت   لدى المجد حتى عد ألف بواحد

بل قد ترى واحدًا كعشرة آلاف ، وترى عشرة آلاف دون واحد . كما قال ﷺ وهو أصدق الناس قيلًا : « **الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة** » [٣] . والإبل في تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل هي عشرة آلاف ، بل لو قيل : قد نرى واحدًا كعالم ، وعالمًا مثل واحد لجاز . كما قال ﷺ : « **وزنت بأمتي فرجحتهم** » [٤] .

وعلى هذا قال أبو نواس :

وليس لله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد [٥]

كون الإنسان بين البهيمة والملك [٦]

الإنسان لما ركب تركيبًا بين بهيمة وملك - فشبه بالبهيمة [٧] بما فيه من الشهوات البدنية ، من المآكل والمشارب والمناكح ، وشبهه بالملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود - صار واسطة بين جوهرين : وضيع ورفيع [٨] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ، فالنجدان من وجه العقل والهوى ، ومن وجه الآخرة والدنيا ، ومن وجه الإيمان والكفر ، ومن وجه الهدى والضلال ، ومن وجه موالاة اللّه تعالى وموالاة الشيطان المذكورتان في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

---

(١) « بل واحد كعشرة » سقطت من (أ) فقط .

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة فقط .

(٣) رواه مسلم بلفظ : « تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة باب (٦) حديث (٢٥٤٧) .

(٤) رواه أحمد من حديث طويل عن الجنة ، جاء فيه « فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتي في كفة فرجحت بها .. » مسند أحمد (٥/٢٥٩) .

(٥) ديوان أبي نواس (٢١٨) . طبعة صادر ، بيروت .

(٦) في (د) ، (ط) : « في كون » .

(٧) في (ط) ، (د) : « للبهائم » « وبالبهيمة » أصح لأسلوب التشبيه كذا بكذا ، وأما جمع البهيمة فلا داعي له لسبق ذكرها مفردة ، وفي (د) ، (ط) : « شبهه للملك » والأولى ما ذكرنا .

(٨) في (د) : « شريف ووضيع » والمعنى واحد .

ومن وجه النور والظلمة المذكورتان في هذه الآية ، أي الفضيلة والنقيصة ، أو من وجه الحياة والموت المذكوران في قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] فمن وفقه اللّٰه للهدى ، وأعطاه قوى لبلوغ المدى فراعى نفسه وزكاها ، فقد أفلح ، ومن حرم التوفيق فأهمل نفسه ودسَّاها فقد خاب وخسر ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] (١)

ما لأجله أوجد الإنسان (٢)

الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر كما قيل :

(فـ) ـا الأرض من تربة والناس من رجل (٣)

وإنما شرفه بأنه (٤) يوجد كاملًا في المعنى الذي أوجد لأجله ، وبيان ذلك أن كل نوع أوجده اللّٰه تعالى في هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه (٥) فإنه أوجد لفعل يختص به ، (ولولاه لما وجد ، وله غرض لأجله خُصَّ بما خصَّ به) (٦) ، فالبعير إنما خصَّ بذلك ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس ، والفرس ليكون لنا جناحًا نطير به ، والمنشار والمنحت لنصلح بهما الباب والسرير ونحوهما ، والباب لنحرز به البيت ، والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء (٧) :

١ - عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ؛ وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره (٨) .

٢ - وعبادته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

---

(١) يلاحظ أن توضيح الراغب للنجدين دائر مع تعدده في حدود أشهر التفسيرات في ذلك ، وهي الخير والشر ، ويحمل تفريعه على ذلك . ابن كثير (٢٩٥/٧) ، الفخر الرازي (١٨٣/٢٩) .

(٢) في (د) فقط : « فيما لأجله أوجد الإنسان » .

(٣) ذكر في (د) شطر البيت الأول :

شرق وغرب تجد من صاحب بدلا فـالأرض ....

(٤) في (د) ، (ط) : « تشرفي » بدلًا من « شرفه » وإتيان الاسم بعد « إنما » أقوى .

(٥) في (د) : « وصنعته » ، ولكن عطف المصدر على المصدر هنا أوفق للسياق .

(٦) ما بين القوسين ساقط من النسخة (ط) وحدها .

(٧) « أشياء » ساقطة من (د) ، (ط) .

(٨) في (د) ، فقط : « لنفسه فقط أو لنفسه وغيره » .

وذلك هو الامتثال للباري ﷻ في أوامره ونواهيه [١] .

٣ - وخلافته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] وغيرها من الآيات ؛ وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة .

ومكارم الشريعة هي الحكمة ، والقيام بالعدالة بين الناس ، والحلم ، والإحسان ، والفضل ، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة [٢] المأوى ، وجوار رب العزة تعالى .

وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه ، (ودناءته بفقدان ذلك الفعل منه) [٣] ؛ كالفرس للعدو ، والسيف للقطع والعمل [٤] المختص به في القتال ، ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصًا ، فإما أن يطرح طرحًا ، وإمَّا يرد إلى منزلة النوع الذي هو دونه ، كالفرس إذا لم يصلح للعدو في الكر والفر اتخذ حمولة أو أعد أكولة ، (والسيف إذا لم يصلح للقطع اتخذ منشارًا) [٥] .

فمن لم يصلح لخلافة اللّٰه تعالى ، ولا لعبادته ، ولا لعمارة [٦] أرضه فالبهيمة خير منه ؛ ولذلك قال تعالى في ذم الذين فقدوا [٧] هذه الفضيلة : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] [٨] .

---

(١) في (ط) : « في عبادته » قبل « أوامره ونواهيه » ، وهي مشطوبة في (د) ولا حاجة إلى المعنى بها ؛ لأن الأوامر والنواهي تشمل العقيدة والعبادة وغيرهما .

(٢) في (د) ، (ط) : « يبلغ بذلك إلى » ، والصحيح ما أثبتنا ؛ لأنه يقال : بلغت كذا ، وليس إلى كذا وبخاصة أن الحديث عن المكارم وهي مؤنثة لفظًا .

(٣) ما بين القوسين زائد في (ط) ، (د) .

(٤) للقطع في (أ) فقط ، وهي من النص بدليل ما جاء بعد عن السيف إذا لم يقطع .

(٥) ما بين القوسين انفردت به النسخة (ط) ، ولعلها استطراد من الناسخ .

(٦) في (د) ، (ط) : « لاستعمار » بدلًا من « عمارة » وكلاهما صحيح .

(٧) في (د) ، (ط) : « تكلوا » بدلًا من « فقدوا » ، ولعلها أقوى دلالة .

(٨) حدد الراغب غاية وجود الإنسان في العبادة والخلافة والعمارة ، وبدت كأنها متفرقة ، والحق أنها شيء واحد ذو وجوه ، يجمعها كونها حمل الأمانة لنقلها من جيل إلى جيل خلفًا عن خلف ، وفي حملها عمارة الأرض ؛ لأن من فروض الدين الأمر بالسعي والعمل ؛ وبذا لا تتحقق إنسانية الإنسان بما أودع فيه من طاقات ، لكنها تتحقق باستخدام ذلك فيما خلق له ، انظر للمحقق : حقيقة الإنسان ، نشر رابطة العالم الإسلامي ، تفسير ابن كثير (١/١٢٠) ، طبعة دار الفكر (١٩٧٠م) .

السياسة التي بها يستحق خلافة الله تعالى [١]

قد تقدم أن الخلافة تستحق بالسياسة ، وذلك بتحري مكارم الشريعة ، والسياسة ضربان :

أحدهما : سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به .

والثاني : سياسة غيره من ذويه وأهل بلده ، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ؛ ولهذا ذم اللّه تعالى من ترشح لسياسة غيره ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه ، فقال : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، أي هذبوها قبل الترشح لتهذيب غيركم .

وبهذا النظر قيل : « تفقهوا قبل أن تسودوا » [٢] تنبيهًا أنكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه ، والسياسة العامة ، ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل ، ومن المحال أن يستوي الظل وذو الظل أعوج [٣] ، ولاستحالة أن يهتدي المسوس مع كون السائس ضالًّا قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور : ٢١] فحكم أنه محال أن يكون مع أتباع الشيطان لا يأمر إلَّا بالفحشاء والمنكر .

الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض [٤]

أما مكارم الشريعة فمبدؤها طهارة النفس باستعمال التعلم [٥] ، واستعمال العفة والصبر والعدالة ، ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان . فبالتعلم

---

(١) العنوان بزيادة « في » قبل السياسة خاص بالنسخة (د) فقط .

(٢) رواه البيهقي عن عمر من قوله ، وعلقه البخاري جازمًا به ، وقيل معناه : « قبل أن تزوجوا فتصيروا أرباب بيوت » كشف الخفاء (١/٣١٠) .

(٣) في (د) ، (ط) : خلاف في اللفظ « ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم ظله » .

(٤) في (ط) : فقط « في الفرق ... » .

(٥) في (أ) فقط : « باستعمال التعلم ... » ، والسياق الذي فصل أوضح هذا الحديث ؛ حيث قال : « فبالتعلم ... » .

يتوصل إلى الحكمة ، وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود ، وباستعمال الصبر تدرك الشجاعة والحلم ، وباستعمال العدالة تصحح الأفعال .

ومن حصل له ذلك فقد تذرع المكرمة المعنية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وصلح لخلافة اللّٰه (تعالى) ، صار من الربانيين والشهداء والصديقين .

واعلم أن العبادة أعم من المكرمة ، فإن كل مكرمة [١] عبادة ، وليس كل عبادة مكرمة ، ومن الفرق بينهما أن للعبادات فرائض معلومة وحدودًا مرسومة ، وتاركها يصير ظالمًا متعديًا ، والمكارم بخلافها [٢] ، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف العبادات [٣] ، فتحري العبادات من باب العدل ، وتحري المكارم من باب الفضل والنفل ، ولا يقبل تنفل من أهمل الفرد ، ولا تفضل من ترك العدل ، (بل لا يصح تعاطي الفضل إلا بعد العدل) [٤] ، فإن العدل فعل ما يجب ، والتفضل الزيادة على ما يجب ، وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته ؛ ولهذا قيل : لا يستطيع الوصول من ضيع الأصول .

فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن الفرض فمغرور ، وقد أشار تعالى بالعدل إلى الأحكام ، وبالإحسان إلى المكارم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] ، ففعل الخير هو الزيادة على العبادة [٥] .

وأما عمارة الأرض فالقيام بما فيه تزجية لحياة الناس وصلاح معاشهم ، والإنسان [٦] الواحد من حيث إنه لم يكف أمر معاشه بانفراده في مأكله وملبسه ومسكنه ، ولم يكن له سبيل إلى ثباته في الدنيا إلا بما يسد جوعته ، ويستر عورته ، ويقيه من الحر والبرد ،

---

(١) في (د) ، فقط : « وأن كل مكرمة » عطفًا على أن العبادة أعم .

(٢) « والمكارم بخلافها » . ليست في (أ) .

(٣) في (أ) : « الشرع » بدل « الشريعة » ما لم يفهم وظائف ، وغيرها أصح منها .

(٤) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٥) ومما استشهد به الراغب يظهر أنه لا انفصال بين العبادة وبين المكرمة ، بل صلة الثانية بالأولى صلة النتيجة بالسبب ، فالصلاة عبادة لكنها تنهى عن الفحشاء . والزكاة عبادة لكنها تطهر ، وهكذا فالمكارم فضل ينبني على أساس العبادة وتقتضيه هي بحكم الحكمة منها .

(٦) في (أ) : « والإنسان » ، ولكن الفاء تناسب التفصيل الذي بعدها .

لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٨، ١١٩] ، ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهادًا في سبيل اللَّه ، كما قال ﷺ : « **من طلب الرزق على ما يسن فهو في جهاد ، ومن لم يكن على ذلك فسعيه هباء منثور** » (١) ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣، ١٠٤] .

وكان فيما يتولاه خادمًا للناس ، مسخرًا بلا إرادة منه لخدمتهم ، حتى كأنه من جملة البهائم التي سخرها اللَّه تعالى لعباده ، وامتن (٢) عليهم بها في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : ٨] .

كون طهارة النفس شرطًا في صحة خلافة الله تعالى وكمال عبادته

لا يصلح لخلافة اللَّه تعالى ولا يكمل لعبادته (٣) وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أزيل رجسه ونجسه ، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة (٤) ، لكن نجاسة البدن تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ، وإيَّاها قصد ﷻ بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبه : ٢٨] ، وبقوله : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٥] وبقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وإنما لم يصلح لخلافة اللَّه تعالى إلا من كان طاهر النفس ؛ لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية (٥) ، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل ؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح ، (ولن يخلو مسك

---

(١) هكذا أورده المؤلف ، ولم أجده في كتب الحديث ، والمؤلف ليس من أهل الحديث فيعتمد قوله هذا ؛ ولذا فهذا كلام حتى يثبت كونه حديثًا بمعرفة أهل الحديث المختصين .

(٢) في (د) ، (ط) : « فامتن » ، ولكن الواو هنا أوضح ؛ إذ ليس المراد الترتيب .

(٣) في (أ) : « وكمال عبادته » ، والمرشح ما في غيرها لسياق عطف الفعل على الفعل .

(٤) ويقصد بالنفس هنا ما عناه بعض الباحثين من الجوانب الغريزية والحيوانية في الإنسان ، وطهارتها ضبطها وتوجيهها ، ولا يقصد بها الروح ، كما سبق أن سوى بينهما ؛ لأن الروح لا تنجس ولا يصيبها القذر .

(٥) هذا على فهم من يرى أن الخلافة هي خلافة اللَّه في الحكم بين المكلفين بالعدل كما روي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس والسدي ، تفسير الفخر الرازي : (٢/١٦٥) .

سوء عن عرف سوء)[١] ؛ ولهذا قيل : من طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله ، وقال عليه السلام : « **المؤمن أطيب من عمله والكافر أخبث من عمله** »[٢] بل قد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] ، وبقوله : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف : ٥٨] ، ولأجل أنه لا يطيب عمل من خبثت نفسه قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات : ٣] ، وقال بعضهم في قوله عليه السلام : « **لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب** »[٣] : إنه أشار بالبيت إلى القلب وأشار بالكلب إلى الحرص والحسد ونحوهما ، ونبَّه أن نور اللَّه تعالى لا يدخله إذا كان فيه ذلك ، واستدل لذلك بأن الحرص يقال له : الكلب ، فإنه يقال : فلان أحرص من الكلب .

ويقوي ذلك ما روي : أن التقوى لا تسكن إلا قلبًا نظيفًا . وإلى الطهارتين أشار بقوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٥] ، وكنى بالثياب عن البدن ، قال الشاعر :

ثياب بني عوف طهارى نقية وأوجههم عند المشاهد غران

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقد قال بعض العلماء : إنما سمي الحواريون بذلك ؛ لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم .

من قولهم : حورته ، أي بيضته ، وما روي أنهم كانوا قصارين[٤] فإشارة إلى هذا المعنى ، وإن كان من لم يتخصص بمعرفة الحقائق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة بين الناس .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من (أ) ، وفي (د) كذلك مع دخول ال على « سوء » .

(٢) قد يوهم قوله : « عليه السلام » أنها حديث ، ولكن لم أجد هذا اللفظ أو معناه في كتب الحديث الصحاح وغيرها ، ووجدت في نهج البلاغة : « فاعل الخير خير منه ، وفاعل الشر شر منه » نهج البلاغة (٣٧٠) .

(٣) رواه البخاري بزيادة : « ولا صورة تماثيل » فتح الباري (٣١٢/٦) ، حديث (٣٢٢٥) .

(٤) لأن القصار يبض الثياب ، وكان يهيئها بعد نسجها بالقصرة ، قطعة من الخشب ، والحواري نفس المعنى في الأصل . المعجم الوسيط (٢٠٤/١) (٧٤٥/٢) .

فيما يفزع إليه في طهارة النفس [١]

الذي تطهر به النفس حتى تترشح لخلافة اللّٰه تعالى ، وتستحق به ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية ، كما أن الذي به يطهر البدن هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية ؛ ولذلك أسماها [٢] (اللّٰه تعالى) الحياة ، وسمى ما أنزل من كتابه الماء ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال : ٢٤] فسمَّى العلم والعبادة حياة من حيث إن النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأبد ، كما قال في صفة الماء : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] قال ابن عباس ﷺ : عنى بالماء القرآن ؛ إذ كان به طهارة النفس ، وبالأودية القلوب احتملته بحسب ما وسعته .

قال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، وفي قوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال : ١١] : إنه عنى به القرآن ؛ لقوله [٣] : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وأجدر بصحة قوله تعالى ، فإن الماء المنزل من السماء المختص بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسدَّه هو هذا الماء ، أعني كلام رب العزة ، فأما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسدَّه في الطهارة ؛ لأن الذي ينبع من الأرض يعمل عمله .

والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث : **قوة الفكر** بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم ، **وقوة الشهوة** بقمعها حتى تحصل العفة والجود ، **وقوة الحمية** بإسلاسها [٤] حتى تنقاد للعقل فتحصل الشجاعة والحلم ، ويتولد من اجتماع ذلك العدالة .

فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى الثلاث : أما فساد الفكرة فيتولد منه الجربزة [٥] والبله ، وأما فساد القوة الشهوية فيتولد منه الشره أو خمود الشهوة ، وأما فساد الحمية فيتولد منه التهور أو الجبن [٦] ، ومن محصول هذه الأشياء أو حصول

(١) في (ط) : « من طهارة النفس » ، ومحتوى المبحث يرشح (في) وإن تبادلت الحروف .
(٢) في (أ) و (ط) : « سماها » ، والصحيح ما ذكرناه لعوده على شيئين مضيا .
(٣) في (ط) : « كقوله » ، ولعلها خطأ طبعي .
(٤) في (ط) : « باستيلائها » ، ولكن إسلاس الحمية وتطويعها هو المعنى .
(٥) الجربز : الخب الخبيث ، والمصدر جربزة ، ترتيب القاموس المحيط مادة جربز .
(٦) في (ط) ، (د) تقديم وتأخير في العبارة ففيهما : « أما من فساد كذا فيحصل كذا » ولا ضير .

بعضها يحصل إما الظلم وإما الانظلام ، فجميع أصول الفضائل [١] الخلقية أربعة ، وجميع الرذائل الخلقية ثمانية [٢] .

بيان منازعة الهوى للعقل [٣]

اعلم أن مثل نفس الإنسان [٤] في بدنه كمثل والٍ في بلده ، **وقواه وجوارحه** بمنزلة صناع وعملة ، **والعقل** له كمشير ناصح عالم ، **والشهوة** فيه كعبد سوء جالب للميرة ، **والحمية** له كصاحب شرطة ، والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للوالي بصورة الناصح وفي نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير في تدبيره ، ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته ، وكما أن الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث ، وأدب صاحب شرطته وجعله مؤتمرًا لوزيره ، وسلطه على هذا العبد وأتباعه حتى يكون هذا العبد مسوسًا لا سائسًا ، ومدَّبرًا لا مدبِّرًا استقام أمر بلده . فكذلك النفس أيضًا متى استعانت بالعقل في التدبير ، وأدبت الحمية وسلطتها [٥] على الشهوة وقواها استتب أمرها وإلا فسدت ؛ ولهذا حذرنا اللَّه تعالى غاية الحذر من اتباع الهوى فقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [ص : ٢٦] ، وقال في ذم من اتبعه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، وقال في مدح من عصاه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] وقال عليه الصلاة والسلام : « **أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك** » [٦] إشارة إلى الهوى .

---

(١) في (ط) ، (د) : « رءوس الفضائل » « وأصول » أوفق لمناسبتها للفروع التي تؤخذ منها في بابها .

(٢) وضح هنا اعتماد الراغب الأصفهاني لمعنى الفضيلة على أنها وسط بين رذيلتين كما أخذ بذلك ابن مسكويه عن اليونان ، وقد تأثر بهذه الوسطية كثير من العلماء المسلمين ، كالجاحظ ، وابن سينا ، والغزالي ، والحقيقة أن النصوص التي أوهمتهم صحة هذا المعنى يمكن أن تفهم على وجه آخر يتناسب مع معنى الوسط في الإسلام ، فيختلف عن الوسط الأرسطي ، وللعلماء في هذا كلام يستوفي من مظانه . انظر ابن مسكوية : تهذيب الأخلاق (٢٩) ، وأحمد عبد الرحمن : (د) الفضائل الخلقية في الإسلام (٢٨٨ - ٣٠٦) .

(٣) في (ط) : « بيان ملازمة الهوى للعقل » ، والمحتوى الذي يدل عليه المبحث يثبت أنها منازعة ، ومن عجب أنها تذكر في (ط) ، هنا وعند تعداد الأبواب في المقدمة .

(٤) هذه ساقطة من (ط) ، والمعنى يقتضيها كما سيأتي في تفصيل المبحث .

(٥) في (أ) : « سلطتها » ، أي الحمية ، ونستصوب ما ذكرنا ؛ لأن الحمية تنوب عن العقل في مدافعة الشهوة كما سيجيء .

(٦) قال عنه العجلوني : رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف ، وله شاهد من حديث أنس ولا أصل له بهذا =

والعقل وإن كان أشرف القوى وبه صار الإنسان خليفة اللَّه تعالى في العالم فليس دأبه إلا الإشارة إلى الصواب كطبيب يشير على المريض بما يرى فيه بُرأه ، فإن قبل منه المريض وإلا سكت عنه ؛ ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه في المدافعة والممانعة ؛ ولهذا لا يتبين فضيلة العقل لمن لا حمية له وبهذا النظر قيل : المهين من لا سفيه له ، وقال الشاعر (النابغة) :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض المستأسد الحامي

وأيضًا مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث إلى ثغر كي يراعي أحواله ، **وعقله** خليفة مولاه ضم إليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه فيما يفعله إذ عاد إلى حضرة مولاه [١] **وبدنه** بمنزلة فرس دفع إليه ليركبه ، **وشهوته** كسائس خبيث ضم إليه ليتفقد فرسه ، ولا قدر لهذا السايس عند المولى ، **والقرآن** بمنزلة كتاب أتاه من مولاه ، وقد ضمن كل ما يحتاج إليه عاجلًا وآجلًا كما وصفه تعالى بقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل : ٨٩] ، وبقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، والنبي ﷺ رسول اللَّه أتاه بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه مما يقرؤه من الكتاب .

وقبيح أن ينسى هذا الوالي مولاه ، ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ، ويصرف همه كله إلى تفقد فرسه وسائسه ، ويقيم سائس فرسه مقام خليفة ربه .

ومن وجه آخر الإنسان من حيث ما جعله اللَّه عالمًا صغيرًا وجعل بدنه كمدينة والعقل كملك مدبر فيها ، وقواه من الفكرة والخيال والحواس كجنده وأعوانه ، والأعضاء كرعيته ، والشهوة كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته ، صار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن جاهد عدوه فهزمه وقهره [٢] على ما يجب وكما يجب حمد أثره إذا عاد إلى حضرته كما ضمنه تعالى حيث قال : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥] فدفاع الهوى أعظم جهاد كما قال ﷺ ، وقد سئل : أي الجهاد أفضل فقال : « **جهادك هواك** » [٣] . وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره إذا عاد إليه

= اللفظ ، وذكر الحافظ العراقي أن البيهقي رواه من حديث ابن عباس ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين ، كشف الخفاء (١٤٣/١) الإحياء في أماكن متعددة .

(١) في (أ) : استعمل كلمة « الوالي والملك » بدلًا من « مولاه » .

(٢) في (ط) : « أعداءه فهزمهم أو أسرهم أو قهرهم » ، وفي (د) : « عدوه فهزمه أو أسره أو قهره » ، ولعل الإفراد أنسب للسياق « والشهوة كعدو ينازعه » والمعنى واحد .

(٣) في معناه حديث رواه البيهقي عن جابر بسند ضعيف وفيه « **قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** » ، =

كما قال ﷺ : « **كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته** » [١] وأن اللَّه تعالى يقول للكافر يوم القيامة : « **يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالَّة ولم تجبر الكسير ، اليوم أنتقم منك** » [٢] .

وأيضًا مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه ، وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقًا وفرسه مروضًا ، وكلبه معلمًا ، فهو قمين بإدراك حاجته من الصيد ، ومتى كان أخرق وفرسه جموحًا أو حرونًا ، وكلبه عقورًا فلا فرسه ينبعث تحته منقادًا ولا كلبه يسلس [٣] معه مطيعًا ، فهو قمين أن يعطب فضلًا عن أن (لا) يدرك ما طلب .

وللإنسان مع هواه [٤] ثلاثة أحوال :

الأولى : أن يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

والثانية : أن يغالبه فيقهره مرة ويُقهر مرة ، وإيَّاه قصد بمدح المجاهدين ، وعناه النبي ﷺ بقوله : « **جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم** » [٥] .

والثالثة : أن يغلب هواه ككثير [٦] من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء ، وهذا المعنى قصد بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠، ٤١] ، وله قصد النبي ﷺ بقوله : « **ما من أحد إلا وله شيطان وإن اللَّه تعالى أعانني عليه حتى ملكته** » [٧] ، فإن الشيطان يتسلط على الإنسان بحسب وجود الهوى فيه ، واللَّه أعلم بالحقيقة .

= قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « **مجاهدة العبد هواه** » . وقال الحافظ العراقي عن حديث « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » ابن ماجه في الشطر الأول ، والنسائي في الشطر الثاني ، وكلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين ، وقال : رواه الحاكم وصححه . انظر كشف الخفاء (١/٤٢٥) ، والإحياء ، تخريجات الحافظ العراقي .

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري ، فتح الباري (٢/٣٨٠) .

(٢) من أول « وأن اللَّه تعالى يقول للكافر ... حتى منك » قال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلًا .

(٣) في (أ) ، (ط) : « يستلين » ، والأوفق « يساس » لمناسبتها للطاعة المقصودة .

(٤) « مع هواه » زيادة في (ط) ، (د) ، وهي مفيدة .

(٥) سبق نظيره ، وهو قريب من « المجاهد من جاهد نفسه في ذات اللَّه » ، رواه أحمد والطبراني والقضاعي عن فضالة بن عبيد مرفوعًا ، وفي الباب عن جابر وعقبة بن عامر ، كشف الخفاء (٢/١٩٩) .

(٦) كلمة « ككثير » هنا بها نظر ؛ لأن كل الأنبياء لا يطيعون هواهم بالمعنى الذي ذكره هنا .

(٧) في معناه مع اختلاف يسير في اللفظ رواه البخاري / بدء الخلق (١١) مسلم (٤) حديث رقم (٢٨١٤) .

الفرق بيـن ما يسومه العقل وبيـن ما يسومه الهوى [(١)]

من شأن العقل أن يرى ويختار أبدًا الأفضل والأصلح في العواقب ، وإن كان على النفس في المبدأ مؤنة ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك فإنه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت ، وإن كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي الرمد الذي يؤثر أكل الحلاوات واللعب في الشمس على أكل الإهليلج [(٢)] والحجامة ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات** » [(٣)] .

وأيضًا فإن العقل يري صاحبه ما له وما عليه ، والهوى يري صاحبه ما له دون ما عليه [(٤)] ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « **حبُّك الشيء يعمي ويصم** » [(٥)] ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدًا في الأشياء التي هي له لا عليه ، ويظن أنه هوى لا عقل ، ويلزمه أن يستقصي النظر فيه [(٦)] قبل إمضاء العزيمة ، وحتى قيل : إذا عرض لك أمران فلم تدر أيَّهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه . فأكثر الخير في الكراهية ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

وأيضًا فإن ما يرى العقل يتقوى إذا فزع فيه إلى اللّه تعالى بالاستخارة ، وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع إليها بالاستشارة ، وينشرح له الصدر [(٧)] إذا استعين فيه

(١) (د) « في بيان » ، أما (ط) ففيها : « وبين ما يسومه » بزيادة « بين » وهي أصح لغة .

(٢) الإهليلج : معرب إهليلة : وهو ثمر يتخذ للعقاقير . معجم متن اللغة / هلج .

(٣) رواه مسلم عن أنس بن مالك . صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، حديث (٢٨٢٢) .

(٤) في (أ) ، (د) : اضطراب في اللفظ والأصح ما في (ط) .

(٥) رواه أبو داود عن أبي الدرداء مرفوعًا بإسناد ضعيف ؛ لأن فيه ابن مريم ، وإن قال العراقي : إن ابن مريم لم يتهمه أحد بالكذب ، وقد قال الصفاني : إنه موضوع ، لكن العراقي والحافظ ابن حجر قالا : يكفينا سكوت داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن . كشف الخفاء (٣٤٢/١) ، وتخريجات الإحياء / أحمد (١٩٤/٥) . أبو داود (١٣٠) .

(٦) في (ط) : « أنه هوى لا عقل ويلومه وينبغي أن يستفتي » ، ولعل الناسخ قرأ ويلزمه ويلومه وقرأ يستقصي يستفتي لكنا أخذنا بما في (أ) ، (د) لرجحانهما عندنا .

(٧) في (أ) : « ويتسع له الصدر » لكن « ينشرح » أقوى ؛ لأنها اللفظ القرآني ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾ [طه : ٢٥] .

بالعبادة . وما يشير به الهوى فبالضد من ذلك .

وأيضًا فالعقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل .

وربما تشبّه الهوى بالعقل فيتعلق بشهوة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق إذا سئل عن عشقه ، والمتناول لطعام رديء إذا سئل عن فعله .

قال بعض العلماء : إذا مال العقل نحو مؤلم جميل والهوى نحو ملذ قبيح فتنازعا بحسب غرضيهما وتحاكما إلى [١] القوة المدبرة بادر نور اللّه تعالى إلى نُصرة العقل ووساوس الشيطان إلى نُصرة الهوى كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] [٢] .

فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور الحق فعميت عن نفع الأجل ، واغترت بلذة العاجل ، فجنحت إلى الهوى ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

ومتى كانت من حزب اللّه وأوليائه اهتدت بنوره ، فاستهانت بلذة العاجل ، وطلبت سعادة الآجل كما قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢] .

ومما نبّه به على فساد الهوى قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ ﴾ [المؤمنون : ٧١] ، أي لو أعطي كل إنسان ما يهوى - مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال في الدنيا الخير الأبدي بلا مزاولة (ولا يعلم أنه أعطى ذلك) [٣] لكان فيه فساد العالم بأسره .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٦] [٤] : ضرب الشجرة الطيبة مثلًا للعقل ، والخبيثة مثلًا للهوى ،

---

(١) في (ط) : « فيتنازعان ويتحاكمان » بالمضارع بدل الماضي ، ولكل تسويغ .

(٢) هذه الآية لم تذكر في المطبوعة .

(٣) ما بين القوسين ساقط من (ط) فقط .

(٤) يلاحظ أن هناك جزءًا ساقطًا من الآية فنصها ﴿ ... أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ =

ففرع الطيبة النور والإسلام ، وفرع الخبيثة الكفر والضلال . فإن قيل : ما الفرق بين الشهوة والهوى ؟ قيل : **الشهوة ضربان** : محمودة ومذمومة .

فالمحمودة من فعل اللَّه سبحانه ، وهي قوة جعلت في الإنسان لتنبعث بها النفس لنيل ما يظن فيه صلاح البدن .

المذمومة من فعل البشر ... وهي استجابة النفس لما فيه لذتها البدنية ، والهوى هو هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعت الفكرة ؛ وذلك أن الفكرة بين العقل والشهوة ، فالعقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن ، وإذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة صارت وضيعة وولدت المقابح . **والنفس** قد تريد ما تريد بمشورة العقل تارة وبمشورة الهوى تارة ؛ ولهذا قد يسمى الهوى إرادة .

في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى

أول ما يعرض من ذلك السانح ثم الخاطر ، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله : « **إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق بالحق ، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق** » ، ثم قرأ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] (١) ، ثم من بعدهما الإرادة ثم العزم ثم العمل .

فالسانح علة الخاطر ، والخاطر علة الإرادة ، والإرادة - وهي الهمة - علة العزم ، والسانح والخاطر يعبر عنهما بالهاجس والواجس (و) يتجافى عنهما ما لم يصيرا إرادة وعزمًا .

فحق الإنسان إذا خطر له خاطر أن يسبره عاجلًا ، فإن وجده خيرًا رباه حتى يجعله فعلًا ، وإن وجده شرًّا بادر إلى قلعه وقمعه قبل أن يصير إرادة ، ويطهر قلبه منه تطهير أرضه من خبيثات النبات ، وهذا المعنى أراد الحسن رحمه الله بقوله : رحم اللَّه عبدًا وقف عند همه ، فإن كان للَّه أمضى وإلا كف (٢) .

قال بعض الحكماء : إن تداركت الخطرة اضمحلت وإلا صارت شهوة ، وإن

طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ... ﴾ [إبراهيم : ٢٤ : ٢٦] .

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، الترمذي (٥) كتاب تفسير القرآن باب (٣) حديث (٢٩٨٨) .

(٢) العبارة للحسن البصري : قوت القلوب (١٦٨/١) طبعة أولى (١٣٥١هـ) .

تداركت الشهوة تلاشت وإلا صارت طلبًا ، وإن تداركت الطلب تلاشى وإلا صار عملًا [(١)] .

وقال بعض الحكماء : إن ولي اللّٰه سبحانه إذا أتته لمة الشيطان انزعج لذلك ، ورأى ببصيرته ظلمة ، ووجد روعة ، فإذا أتته لمة الملك [(٢)] انشرح صدره ، وأولياء الشيطان بخلافه . قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

واللّٰه ولي الرشاد .

حصول الخلق المحمود بطهارة النفس

قد تقدم أن طهارة النفس (تكون) بإصلاح القوى الثلاث :

فإصلاح الفكرة : بالتعلم حتى يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين القبيح والجميل في الفعال .

وإصلاح الشهوة : بالعفة حتى تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة .

وإصلاح الحمية : بإسلاسها حتى يحصل الحلم ؛ وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب ، وتحصل الشجاعة ؛ وهي كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين .

وبإصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان ، وهذه جماع المكارم ، وطهارة النفس وحسن الخلق الممدوح يقول النبي ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا وألطفهم بأهله** » [(٣)] ، ويعني باللطافة بالأهل تهذيبهم وتأديبهم المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾ [التحريم : ٥] . والممدوح أيضًا بقوله عليه السلام : « **أحبكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون** » [(٤)]

---

(١) « تلاشت » ناقصة من (ط) ، (د) ومن جميع النسخ نقص « تلاشى » .

(٢) في (ط) ، (د) : « لمة الرحمن » والملك هنا هو لفظ الحديث فلعله أولى .

(٣) رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها بلفظ : « **إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله** » ، وفي الباب عن أبي هريرة وأنس ، حديث صحيح ، وقال عنه العراقي : رواه الترمذي والنسائي والحاكم وقال : رواته ثقات على شرط الشيخين . سنن الترمذي (٥) كتاب الإيمان باب (٦) حديث (٢٦١٢) .

(٤) قال عنه العراقي : رواه الطبراني في مكارم الأخلاق عن جابر بسند ضعيف ، وروى مسلم : « **إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا** » ، وروى الترمذي هذا المعنى بلفظ مختلف وفيه زيادة وقال : حديث حسن غريب / مسلم / كتاب الفضائل حديث (٢٣٢١) ، الترمذي كتاب البر / حديث (٢٠١٨) .

وقيل : جماع المكارم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] وذلك أنه بالإيمان يحصل العلم والحكمة ؛ وذلك بإصلاح الفكرة ، وبالمجاهدة بالأموال والأنفس تحصل العفة والجود اللذان هما تابعان لإصلاح الشهوة ، والشجاعة والحلم اللذان هما تابعان لإصلاح الحمية ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال النبي ﷺ في تفسير ذلك : « **هو أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك** » [(١)] ، فالعفو عمن ظلمك نهاية الحلم والشجاعة ، وإعطاء [(٢)] من حرمك نهاية الجود ، ووصل من قطعك نهاية الإحسان ، والله أعلم .

الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة [(٣)]

الطبع : أصله من طبع السيف : اتخاذ الصورة المخصوصة من الحديد [(٤)] ، وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارًا بضرب الدراهم ، والنحتية اعتبارًا بالنحتة ، والنجر اعتبارًا بنجر الخشب ، والغريزة اعتبارًا بما غرز عليه . وكل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل إلى تغييرها والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة ، اعتبارًا بالشامة في أصل الخلقة .

والسجية : اسم لما يسجى عليه الإنسان من قولهم : عين ساجية ، أي فاترة خِلْقة ، وأكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره .

وأما الخُلُق في الأصل فهو كالخَلق كقولهم الشَّرْب والشُّرْب ، والصَّرْم والصُّرُم ، لكن الخُلُق يقال في القوى المدركة بالبصيرة ، والخَلْق في الهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وجعل الخلق تارة للقوة الغريزية ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « **فرغ الله من الخلق والخلق والرزق والأجل** » [(٥)] ، وتارة يجعل اسمًا للحالة المكتسبة

---

(١) رواه البخاري ، فتح الباري (٣٠٦/٨) ، شرح حديثي (٤٦٤٣ ، ٤٦٤٤) ، تفسير سورة الأعراف (باب ٥) .

(٢) في (ط) : « وإعطاء المال » وأرى أن التخصيص بالمال هنا تضييق لسعة المعنى المراد .

(٣) في (د) : « في الفرق » ، ولعل هذا يرشح إضافة « مبحث في » .

(٤) في (ط) : « في الحديد » ، ولكن « اتخاذ » ترشيح « من الحديد » .

(٥) الحديث صحيح ذكره ابن عساكر عن أنس ﷺ بلفظ « **فرغ الله من أربع : من الخلق ، والخُلق ، والرزق والأجل** » ، ويشهد له أحاديث بنفس المعنى ، الألباني ، صحيح الجامع الصغير (٨٢/٤) .

التي يصير بها الإنسان خليقًا أن يفعل شيئًا دون شيء ، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ؛ ولهذا خص كل حيوان بخلق في أصل خلقته ؛ كالشجاعة للأسد ، والجبن للأرنب ، والمكر للثعلب .

ويجعل الخلق تارة من الخلاقة وهي الملابسة ، وكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان من قواه بالعادة ، وقد روي : « **أفضل الأعمال الخلق الحسن** » (١) وروي : « **ما أعطى الله أحدًا أفضل من خلق حسن** » (٢) فجعل الخلق مرة للهيئة الموجود في النفس التي يصدر عنها الفعل (٣) بلا فكر . وجعل مرة اسمًا للفعل الصادر عنه باسمه ، وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة ، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعًا ، وربما تسمى الهيئة باسم ، والفعل الصادر عنها باسم ، كالسخاء والجود ، فإن السخاء اسم للهيئة التي عليها الإنسان ، والجود اسم للفعل الصادر عنها ، وإن كان قد يسمَّى كل واحد باسم الآخر من فضله .

وأما العادة : فاسم لتكرير الفعل أو الانفعال ، من عاد يعود ، وبها يكمل الخلق ، وليس للعادة فعل إلا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الإنسان إلى الفعل .

فأمَّا أن تجذب (٤) السجية إلى خلاف ما خلقت له ، فمحال ، فالسجيَّة فعل الخالق ﷻ والعادة فعل المخلوق ، ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق ، ولكن ربَّما (٥) يقوي العادة قوة محكمة حتى تعد سجية ، وبهذا النظر قيل : العادة طبيعة ثانية .

---

(١) في معناه ما رواه الترمذي عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : « **ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء** » ، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، أما اللفظ المذكور في المخطوطة فلم أجده بنصه . الترمذي ، كتاب البر ، حديث (٢٠٠٢) .

(٢) في معناه « **خير ما أعطي الناس خلق حسن** » أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أسامة بن شريك قال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبي . البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف ، ابن حمزة الحسيني (٣١٦/٢) .

(٣) التعريف السائد لدى الأخلاقيين الإسلاميين هو : « حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية » ، وهو تعريف نقله ابن مسكويه من أرسطو ، ونقله الكثيرون عنه حتى الغزالي رغم نفي أحد دارسيه ذلك ؛ لأن الدارس نفسه اختار هذا التعريف بعينه . انظر ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق (٣٦) ، زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي (١٣٠) طبعة أولى . الغزالي : الإحياء (٥٢/٣) (والحلبي) .

(٤) في (ط) : وأما حدوث السجية ... إلخ ، ولكن ما ذكرنا تكملة للمعنى السابق عن العادة ، وما بعد يكمل ما فهمنا .

(٥) في (أ) « ثم ربما » والاستدراك أوفق من العطف في هذا السياق .

إمكان تغيير الخلق

اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم : هو من جنس الخلقة ولا يستطيع أحد تغييره عما جبل عليه إن خيرًا وإن شرًّا كما قيل :

وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمنهن محمود ومنها مذمم
ولن يستطيع الدهر تغيير خلقة بنصح ولا يسطيعه متكرم

ويعلق هذا القائل أيضًا بقول النبي ﷺ : « **من آتاه اللَّه وجهًا حسنًا وخلقًا حسنًا فليشكر اللَّه** » [١] وما روي من قوله ﷺ : « **فرغ اللَّه من الخلق والخلق** » الخبر ، ومحال أن يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق ﷻ .

وقال بعضهم : يمكن ذلك ، واستدل عليه بما روي : « **حسنوا أخلاقكم** » [٢] ، ولو لم يكن لما أمر به . وقال : إن اللَّه تعالى خلق الأشياء على ضربين :

أحدهما : بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملًا ، كالسماء والأرض والهيئة والشكل .

والثاني : خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة ، ورشح الإنسان لإكماله ، وتغيير حاله وإن لم يرشحه لتغيير ذاته ؛ كالنواة التي جعل فيها قوة النخل . وسهل للإنسان سبيلًا إلى أن يجعله بعون اللَّه نخلة ، (أو) وأن [٣] يفسده إفسادًا .

قال : والخُلق من الإنسان يجري هذا المجرى في أنه لا سبيل للإنسان إلى تغيير القوة التي هي السجية [٤] ، وجعل له سبيلًا إلى إسلاسها ؛ ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] ، ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، ولما جوَّز العقل أن يقال للعبد لم فعلتَ ؟ ولم تركتَ ؟ وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعًا وقد وجدناه في بعض

---

(١) قريب من اللفظ « **من آتاه اللَّه وجهًا حسنًا واسمًا حسنًا ، وجعله في موضع غير شأن له ، فهو من صفوة اللَّه من خلقه** » رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس بسند ضعيف . كشف الخفاء (١/١٧٧) .

(٢) قال العراقي في الإحياء أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق ، من حديث معاذ : « **يا معاذ حسن خلقك للناس** » منقطع ورجاله ثقات . اهـ . لكن الترمذي أورد حديثًا يقوي معناه : الترمذي ، كتاب البر ، حديث (١٩٨٧) .

(٣) التقسيم يقتضي « أو » ؛ إذ العطف يوحي بأن الإنسان ينبت ويفسد معًا .

(٤) في (ط) : « إلى أن تصير سجية » ، ولكن العبارة بعدها ترشح ما ذكرنا ؛ إذ ليس في إمكان الإنسان تغيير أصل السجية لكن له إسلاسها .

البهائم ممكنًا ، فالوحش قد ينقل بالعادة إلى التأنس ، والجامح إلى السلاسة .

لكن الناس في غرائزهم مختلفون ، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول ، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول ، وبعضهم في الوسط ، وكل (١) لا ينفك من أثر القبول وإن قل . وأرى أن من منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها ، وهذا صحيح فإن النوى محال أن ينبت الإنسان منه تفاحًا .

ومن أجاز تغييره فإنه اعتبر إمكان ما في القوة إلى الوجود وإفساده بإهماله كالنوى فإنه يمكن أن يتفقد فيجعل نخلًا وأن يترك مهملًا حتى يتعفن ويفسد ، وهذا صحيح أيضًا . فإذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

صعوبة إصلاح القوة الشهوية وما في هذه القوة من المنفعة والمضرة (٢)

أصعب هذه القوى الثلاث مداواة قمع الشهوة ؛ لأنها أقدم القوى وجودًا في الإنسان ، وأشدها به تشبثًا ، وأكثرها منه تمكنًا ، فإنها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه ، بل في النبات الذي هو جنس جنسه (٣) ، ثم توجد فيه قوة الحمية ، ثم آخرًا توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز . ولا يصير الإنسان خارجًا من جملة البهائم، وأسر الهوى إلا بإماتة الشهوات البهيمية أو بقهرها وقمعها إن لم يمكنه إماتتها (٤) ، فهي التي تضره وتغره ، وتصرفه عن طريق الآخرة ، وتثبطه (٥) . ومتى قهرها وأماتها (٦) صار الإنسان حرًا نقيًا ، بل يصير إلهيًا ربانيًا ، فتقل حاجاته ويصير غنيًا عما في يد غيره ، وسخيًا بما في يده ، ومحسنًا في معاملاته .

فإن قيل : فإذا كانت قوة الشهوة بهذه المثابة في الإضرار ، فأي حكمة اقتضت أن

---

(١) في (أ) : « ما لا ينفك » وزيادة الميم هنا خطأ ولعلها من الناسخ .

(٢) العنوان هكذا من جميع النسخ ليتكامل ، ففي (د) : سقطت : « صعوبة » ، وفي (أ) : سقطت «والمضرة » ، وفي (ط) : « القوى » بالجمع لعلها خطأ طبعي تناقلته المصورات فيما بعد .

(٣) لعله يقصد جانب الحس في النبات ، وإلا فالميل بالمعنى النفسي مستبعد هنا .

(٤) في (د) ، (ط) : « إماتته إياها » ، والاتصال هنا أولى من استخدام ضمير الفصل ، وليس المطلوب من الإنسان إماتتها ؛ لأنها دافع حياة ، كما سيجيء بعد سطور ، لكن المطلوب هو توجيه الشهوات وضبطها .

(٥) « وتثبته » في (أ) فقط .

(٦) في (ط) : « قمعه أو أماته » وسياق الضمائر قبلها ينكر ذلك .

يبلى بها الإنسان ؟ [١] .

قيل : الشهوة إنما تكون مذمومة إذا كانت مفرطة ، وأهملها صاحبها حتى ملكت القوى ، فأما إذا أُدِّبَت فهي المبلغة إلى السعادة ، و جوار رب العزة ، حتى لو تصورت مرتفعة لما أمكن الوصول إلى الآخرة ؛ وذلك أن الوصول إلى الآخرة بالعبادة ، ولا سبيل إلى العبادة إلا بالحياة الدنيوية ، ولا سبيل إلى الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن ، ولا سبيل إلى حفظ البدن إلا بإعادة ما يتحلل منه ، ولا يمكن إعادة ذلك [٢] إلا بتناول الأغذية ، ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة ؛ فإذًا الشهوة محتاج إليها ، ومرغوب فيها ، وتقتضي الحكمة الإلهية إيجادها وتزيينها كما قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

لكن مثلها كمثل عدو تخشى مضرته من وجه ، وترجى منفعته من وجه [٣] ، ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به [٤] ، فحق العاقل أن يأخذ نفعه ولا يسكن إليه ، ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به . وما أصدق في ذلك قول المتنبي إذا تصور في وصف الشهوة ، وإن قصدها فما أجود ما أراد :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بد [٥]

وأيضًا فهذه الشهوة هو المشوقة لعامة الناس إلى لذات الجنة من المأكل والمشرب والمنكح ؛ إذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة .

ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا إلى ما وعدوا به من قول النبي ﷺ : « **فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر** » [٦] .

---

(١) « الإنسان » ساقطة من (أ) فقط ، وهي ذات دلالة هنا ، فالابتلاء للإنسان .

(٢) النسخ تختلف في قليل من ترتيب اللفظ والمعنى متفق ؛ لذا آثرنا أوسطها ففي (د) سقطت « ولا يمكن إعادة ذلك » وفي (ط) : « ولا سبيل إلى إعادة ذلك » .

(٣) « وترجى منفعته من وجه » ساقطة من (أ) .

(٤) « به » ساقطة من (أ) .

(٥) ديوان المتنبي (١٩٨) .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة بلفظ قال رسول الله ﷺ : « **قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ » . البخاري ، بدء الخلق ، فتح الباري (٣١٨/٦) رقم (٣٢٤٤) .

في ازدياد الإنسان في الفضائل والرذائل بتعاطيها [(١)]

كل متعاطٍ لفعل من الأفعال النفسية فإنه يتقوى به بالازدياد منه ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها ، وباحتمال كبارها يستحق الحمد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الإيمان يبدو نكتة بيضاء في القلب ، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض ، وإذا استكمل العبد الإيمان ابيضَّ قلبه كله ، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء ، (و) كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد ، فإذا استكمل النفاق اسودَّ القلب كله [(٢)] .

والإنسان يكمل في الفضيلة بأربع درجات :

اثنين في الاعتقاد ؛ وهما : أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة ، لا عن شبهات واهية ، وإقناعات متداعية .

واثنين في الفعل ؛ وهما : أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فبتجنب الرذيلة يتوصل إلى الفضيلة ، وأن يتعود العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها ، كما قال عليه السلام : « **وجعل قرة عيني في الصلاة** » [(٣)] .

وكما أنه يكمل بأربع درجات فإنه ينتكس بأربع درجات :

درجتين في الاعتقاد ؛ وهما : أن لا يعتقد شيئًا من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلًا ، وأن يعتقد عن تقليد اعتقادًا فاسدًا ، فيتلطخ به .

ودرجتين في العمل ؛ وهما : أن لا يتعود العادة الجميلة رأسًا ، وأن يتعود العادة القبيحة .

فمن صار في الفضيلة إلى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، ومن صار في الرذيلة إلى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٣] ، ثم قال :

(١) « في ازدياد » في (ط) ، (د) « وبتعاطيهما » في (ط) فقط .

(٢) عبارة الإمام علي في نهج البلاغة : « إن الإيمان يبدو لمظة في القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة » وهي كما ذكرت هنا ، بل أزيد في كنز العمال على ، نهج البلاغة (٤٣٠) كنز العمال (١/٤٠٧) ، ويلاحظ أن « ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق » سقطت من (ط) .

(٣) روى أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال : « **حبب إليَّ النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة** » مسند أحمد (٣ / ١٩٩) ، وذكره العراقي : « **حبب إليَّ من دنياكم ثلاث** ... » وقال : رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه العقيلي .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤]

وقيل لحكيم : ألا تعظ فلانًا ؟ فقال : ذلك على قلبه قفل ضاع مفتاحه ، فلا سبيل إلى معالجة فتحه .

وللإنسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال :

إما : أن يكون في ابتدائها ، فيقال : هو عبدها وابنها ؛ ولهذا قال بعضهم : من لم يخدم العلم لم يرعه .

والثاني : أن يتوسطها فيقال : هو أخوها وصاحبها .

والثالث : أن ينتهي فيها بقدر وسعه ، ويتصرف فيها كما أراد فيقال : هو سيدها وربها ، ومنه قيل : فلان رباني في العلم ، فإن رب الشيء هو الذي يربه ، وسيده هو الذي يملك سواده ، أي جميعه .

وغاية الفاضل في الفضيلة أن تقع منه الفضائل أبدًا من غير فكر ولا رَوِيَّة ؛ لغلبة قواها عليه ، وبعد ما ينافيها منه ، كالصانع الحاذق في صنعته .

وغاية الرذل في الرذيلة أن تقع منه الرذائل لغلبة قواها عليه [١] ؛ ولهذا حُدَّ الخُلُق بأنه : حال للإنسان داعية إلى الفعل من غير فكر ولا رويَّة [٢] .

الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق [٣]

الفرق بين الخلق والتخلق أن التخلق معه استثقال واكتئاب [٤] ، ويحتاج إلى بعث وتنشيط من خارج ، والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج إلى بعث من خارج .

والتخلق [٥] والتشبه بالأفاضل ضربان :

ضرب محمود : وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدرب ، ويتحراه صاحبه سرًّا

---

(١) في (ط) ، (د) : زيادة « أفعال » قبل الفضائل والرذائل ، ولعل الصواب عدمها ؛ لأن كلًّا من الفضيلة والرذيلة كما تكون فعلًا تكون قولًا .

(٢) سبق أن ذكرنا تورط كثير من العلماء المسلمين في نقل هذا التعريف للخلق عن اليونان .

(٣) « في الفرق » هكذا في (ط) ، (د) .

(٤) في (ط) : « واكتساب » ، ولعلها خطأ من الناسخ أو الطباعة .

(٥) « والتخلق » ساقطة من (أ) .

وجهرًا على الوجه الذي ينبغي وبالمقدار الذي ينبغي [١] وإيَّاه قصد الشاعر بقوله :

ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا

بل قد قال ﷺ : « **ما العلم إلا بالتعلم ، وما الخلق إلا بالتخلق** » [٢] :

وضرب مذموم : وذلك ما كان على سبيل المراءاة ، ولا يتحراه [٣] صاحبه إلا حيث يقصد أن يُذكر به ، ويسمى ذلك رياءً وتصنعًا ، وتشيعًا ، ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشيعه كما قال (في) كليلة (ودمنة) : الطبع المتكلف كلما زدته تثقيفًا ازداد تعقيفًا ، وعلى ذلك قال الشاعر أبو الطيب المتنبي :

وأسرع مفعول فعلت تغيرًا تكلف شيء في طباعك ضده [٤]

وإيَّاه قصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بقوله : « من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله ﷻ » وحال المتشبع كالجرح يندمل على فساد فلا بد أن ينبعث ولو كان بعد حين :

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد [٥]

وكما أن العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه وإن جاهده ، فمتى حركه إلى اليمين تحرك نحو الشمال ، كذلك أيضًا الشره والظلوم والمتهور وإن جاهدوا أنفسهم فإن قواهم تأبى مطاوعتهم ، وقد ذم النبي ﷺ ذلك بقوله : « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** » [٦] ، تنبيهًا أنه كاذب بقوله وفعله ، فيتضاعف وزره . وقد حمل على ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] وإيَّاه قصد

---

(١) وقد تحدث العلماء عن هذا الضرب بكثير من التفصيل ، ومنهم ابن حزم الذي حكى تجربته هو في رياضة نفسه وتعويدها الخلق الذي يجب . ابن حزم : الأخلاق والسير في مداواة النفوس (٧٠ ، ٨٢) ، ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان (١/٩٧ - ٩٩) . تحقيق سيد كيلاني ، والحكيم الترمذي : الرياضة وأدب النفس (٧٥) .

(٢) حديث أبي الدرداء « **إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم** .... » ، وقد روي من عدة طرق يقوي بعضها بعضًا ، رواه الطبراني والبيهقي والخطيب ، وأخرجه البزار بسند في حديث طويل رجاله ثقات ، وقد قال الحافظ العراقي عنه : الطبراني والدار قطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ، كشف الخفاء (٢١٥/١) حديث (٦٢٥) .

(٣) في (ط) ، (د) : « يتحرى » وسبق ذكره والضمير الذي بعد هذا يرشح « يتحراه » .

(٤ ، ٥) البيتان للمتنبي في ديوانه . الأول (٤٥٣) والثاني (٨٨) .

(٦) حديث البخاري جاء فيه : ... فقال رسول الله ﷺ : « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** » فتح الباري (٣١٧/٧) ، صحيح البخاري ، النكاح (١٠٦) حديث (٥٢١٩) .

النبي ﷺ بقوله : « **الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء** » (١) .

وأقبح الرياء النفاق في الدين ، وأقبح النفاق ما كان في أصل الاعتقاد ، وهو إظهار الإيمان مع استبطان الكفر ؛ ولذلك جعل اللّٰه عقابهم أعظم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .

سبب اختلاف الناس في أخلاقهم (٢)

جميع الفضائل النفسية ضربان : نظري وعملي ، وكل ضرب منهما يحصل على وجهين :

أحدهما : بتعلم (٣) بشري يحتاج فيه إلى زمان وتدرب وممارسة ، ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة ، وإن كان فيهم من يكفيه أدنى ممارسة ، وفيهم من يحتاج إلى زيادة ممارسة (٤) ، وذلك بحسب اختلاف الطبائع في الذكاء والبلادة .

والثاني : يحصل بفضل إلهي نحو : أن يولد إنسان فيصير من غير تعلم من البشر عالـمًا كعيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للأنبياء غيرهم (٥) .

وقد ذكر بعض الحكماء أن ذلك يحصل لغير الأنبياء أيضًا في الفينة بعد الفينة (٦) . وكل ما كان بتدرب فقد يكون بالطبع كصبي يوجد صادق اللهجة ، وسخيًّا وجريئًا ، وآخر على عكس ذلك ، وقد يكون بالتعلم والعادة ، فمن صار فاضلًا طبعًا وعادةً وتعلمًا فهو كامل الفضيلة ، ومن كان رذلًا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة .

---

(١) في معناه حديث « **إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهرة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء** » ، قال الحافظ العراقي : قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قلت : بل ضعيفه . الإحياء (١٠/٧٨) ولأحمد والطبراني نحوه من حديث آخر .

(٢) « في سبب » هكذا في (ط) ، (د) .

(٣) « بتعلم » ساقطة من (ط) .

(٤) « وفيهم من يحتاج إلى زيادة ممارسة » ساقطة من (أ) .

(٥) في (ط) ، (د) : « للحكماء » والسياق يقتضي الأنبياء كما في (أ) .

(٦) في (ط) ، (د) : « في الفيبة » ، وصحتها « في الفينة بعد الفينة » لمناسبتها المعنى .

وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة [(١)]

حق الإنسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقًا ، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك ، سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلًا أو لم يمكنه ؛ وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول ، وإن لم يكن ذا مال يبذله ، ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته ، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز (فيها) [(٢)] عدالته . وقد قيل لبعض الحكماء : هل من جود [(٣)] يعم به الورى ؟ قال : نعم ؛ أن تحسن خلقك وتنوي لكل أحد خيرًا .

وقال ﷺ : « **إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم** » [(٤)] .

واعلم أن كل فعل يحتاج فيه إلى إيجاده وتزيينه وتجويده دنيويًا كان أو أخرويًا لكن متى كان أخرويًّا يحتاج فيه مع ذلك إلى أمور لا يتم ولا يكمل إلا بها ، (وهي أنه يجب أن يتعاطاه [(٥)] قصدًا إلى المكرمة وإلا لم يعتد بها) [(٦)] . كما قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] . وأن يتحراه بخلوص طوية كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، وألا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مضرة ، فإنه يكون بفعله ذلك تاجرًا ، ويجب عند بعض المحققين ألا يطلب به منفعة أخروية أيضًا ، فقد قيل : « من عبد اللّٰه بعوض فهو لئيم » [(٧)] ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أولى ممن يفعله بمجاهدة نفس ؛ ولهذا قال ﷺ : « **إن استطعت أن تعمل للّٰه في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير** » [(٨)] ، وقولهم : « الحق مر » فهو باعتبار من لم تتهذب

---

(١) « في وجوب » (د) فقط .

(٢) في جميع النسخ « فيه » مع أن الضمير عائد على معاملة .

(٣) في (أ) : وجود ، وفي (ط) : « موجود » ، والأصح ما هنا من (د) .

(٤) اللفظ الموجود : « **إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق** » رواه الحاكم والبزار وابن عدي والبيهقي عن أبي هريرة . كشف الخفاء (٢١٧/١) حديث (٦٦١) .

(٥) هي في (ط) ، (د) : « يتعاطاها » ، والصواب ما ذكرنا كما تشهد الضمائر بذلك .

(٦) ما بين القوسين ساقط من (أ) « وهي ... يعتد بها » .

(٧) عبارة الإمام علي « أن قومًا عبدوا اللّٰه رغبة فتلك عبادة التجار ... » وهي نفس المعنى - نهج البلاغة - ٣٩٦ .

(٨) ذكر ابن تيمية عند حديثه عن الرضا أنه روي أن النبي ﷺ قال لابن عباس : « **إن استطعت أن تعمل للّٰه بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا** » ، وقد رواه الترمذي من نفس =

نفسه ، ولم يزل مرضه .

فمن يك ذا فم مر مريض   يجد مرًّا به الماء الزلالا [١]

فأما من كمل فإنه يستطيب الحق وإن كان ثقيلًا ، كما قال ﷺ : « **وجعل قرة عيني في الصلاة** » [٢]. ومن أصلح وهذب نفسه فقد حاز أعظم المآلين [٣] .

فمن ملك نفسه وقواها ، وهذبها وزكاها فقد اطلع به على ملكوت السموات والأرض ، وملك أطوع جيش بلا عطاء يلزمه ، وقد نبّه اللَّه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠] ، فجعل النبوة مخصوصة فيهم ، وجعل الملك عامًّا لهم تنبيهًا على المعنى الذي ذكرت ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] ونذكر بعد ذلك أنواع نعم اللَّه تعالى وما يكتسب منها ، واللَّه ولي الفضل والإحسان .

أنواع نعم الله تعالى الموهوبة والمكتسبة [٤]

نعم اللَّه تعالى وإن كانت لا تحصى مفصلة كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فإنها بالقول المجمل خمسة أنواع :

الأول : وهو أعلاها وأشرفها السعادة الأخروية وإيّاها قصد بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] ، وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف ، وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنًى بلا فقر . ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] ، وأصول ذلك أربعة أشياء [٥] : العقل وكماله العلم ، والعفة وكمالها الورع ، والشجاعة وكمالها المجاهدة ، والعدالة وكمالها الإنصاف ، وهي المعبَّر عنها بالدين . ويكمل ذلك بالفضائل البدنية

= الطريق . الفتاوى (١٠/٤٠) .

(١) هو للمتنبي في ديوانه (١٤١) .   (٢) سبق تخريجه .

(٣) في (ط) : « فهو أعظم الملكين » ، ولعلها « المالكين » ، وفي (د) : « فقد صار أعظم المالكين » .

(٤) النسخة (د) : « في أنواع » ، وفي (ط) : لا توجد كلمة « أنواع » بل تبدأ « نعم اللَّه ... » .

(٥) في (ط) : « وأوصل ذلك إلى أربعة أشياء » ، وواضح أنه اضطراب في المعنى .

وهي أربعة أشياء : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ويتم بالفضائل المطيفة بالإنسان ؛ وهي أربعة أشياء : المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة ، ولا سبيل إلى تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله ﷻ ، وذلك بأربعة أشياء : هدايته ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . فجميع ذلك خمسة أنواع هي عشرون ضربًا ، ليس للإنسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسي فقط .

واعلم أن الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الأخروية وما عداها فتسميته بذلك إما لكونه معاونًا في بلوغ ذلك ، أو نافعًا فيه . فكل ما أعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة .

وهذه الأشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الأخروية متفاوتة الأحوال ؛ فمنها ما هو نافع في جميع الأحوال ، وعلى كل وجه . ومنها ما هو نافع في حال دون حال ، وعلى وجه دون وجه ، وربما يكون ضره أكثر من نفعه .

فحق الإنسان أن يعرفها بحقائقها حتى لا يقع الخطأ عليه في اختياره الوضيع على الرفيع ، وتقديمه الخسيس على النفيس .

والناس في تحري ذلك قسمان [١] : طالب خير ، وهارب من شر . كما قيل :

كل يحاول حيلة يرجو بهـــا ... دفع المضرة واجتلاب المنفعة

والمرء يغلط في تصرف حاله ... فلربما اختار العناء على الدعة

لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ويقدر في الشيء أنه رزق نافع (وحشوه سم ناقع) [٢] ؛ ولذلك يحق على العاقل أن يجلي بصيرته ، ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلًا يكون كمن أراد حبلًا يتنطق به ، فرأى حيَّة فظنها مبتغاه ، فأخذها فلدغته .

وقد قسمت الخيرات على وجه آخر فقيل :

الخيرات ثلاث : مؤثرة لذاتها ، ومؤثرة لغيرها ، ومؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها .

فالمؤثرة لذاتها السعادة الأخروية والنفسية .

والمؤثرة لغيرها الدراهم والدنانير ، فإنا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي تستدفع بها لكانت هي والحصباء سواء .

---

(١) في (ط) ، (د) ، « والناس في متحرياتها طالب لخير » ، ولعل التقسيم هنا أوضح .

(٢) « وحشوه كسم ناقع » ساقطة من (أ) .

والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم ، فمعلوم أن الرِّجل وإن أريدت للمشي [١] فالإنسان يريد أن يكون صحيح الرجل وإن استغنى عن المشي ، ويقال أيضًا : الخيرات ثلاث : نافع ، وجميل ، ولذيذ .

والشرور ثلاثة : ضار ، وقبيح ، ومؤلم . وكل واحد من ذلك ضربان :

أحدهما : مطلق ؛ وهو الذي يجمع الأوصاف الثلاثة في الخير كالحكمة فإنها نافعة ، وجميلة ، ولذيذة ، وفي الشر كالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم .

والثاني : مقيد : وهو الذي جمع شيئًا من أوصاف الخيرات ، وشيئًا من أوصاف الشرور ، فربَّ نافع مؤلم كجدع قصير أنفه [٢] ، فإنه وإن نفعه في إدراك الثأر فقد آذاه ، وربَّ نافع قبيح كالحمق ، فإنه وإن نفع من حيث ما قيل : استراح من لا عقل له ، فهو جد قبيح .

وربَّ نافع من وجه ضار من وجه ، كمن في سفينة فخاف الغرق فألقى متاعه في الماء ، فخلصت السفينة .

وكل ما نفعه ، وجماله ، ولذته أطول مدة وأعم فائدة [٣] ، فهو أفضل . فحق على العاقل أن يرغب إلى اللَّه في أن يعطيه ما فيه مصلحته مما لا سبيل له بنفسه إلى اكتسابه ، وأن يبذل جهده مستعينًا باللَّه في اكتساب ما له كسبه ، وبلوغ الأعلى فالأعلى منه على الترتيب ، فبذلك يشرف ، ومن ضيَّع أنفس المقتنيات مع التمكن من تحصيله فهو دنيُّ الهمة ، راضٍ بخسيس الحال .

وأشرفها ما إذا حصل لم يغضب ولم يحتج في حفظه إلى أعوان ، وكان نافعًا عاجلًا وآجلًا ومطلقًا في كل حال ، وكل زمان ، وكل مكان ، وذلك هو الفضائل النفسية ولا سيما العقل والعلم .

فأما القنيات الخارجية نحو المال والجاه فإنها يقال لها : الخيرات المتوسطة ؛ لأنها تنجذب إلى الفضيلة مرة وإلى الرذيلة مرة (و) لأنها سبب للخيرات إذا كانت مع العقل ، وسبب الشرور إذا كانت مع الجهل ، وقد نبَّه اللَّه تعالى على كون ذلك سببًا للشرِّ بقوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، وبقوله : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ

---

(١) في (ط) : « وإن أزيلت للمشي » ، والصواب « أريدت » وقد صور الخطأ مرات ومرات .

(٢) في المثل « لأمر ما جدع قصير أنفه » يضرب للشيء يكون وسيلة لأمر مستور . المعجم الوسيط (١/١١٠) .

(٣) « وأغمر عائدة » في (ط) . « وأعمر عائده » في (أ) ، والصواب ما نقلناه من (د) .

وَأَوْلَـٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٨٥] ولذلك قيل : السعيد هو الخيِّر العاقل غنيًّا كان أو فقيرًا ، قويًّا كان أو ضعيفًا . فإن قيل : ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع ؟ وهل بينها فرق ؟ [١] .

قيل : أما الخير المطلق فهو المختار من أجل نفسه ، والمختار غيره لأجله ، وهو الذي يتشوقه كل عاقل ، بل قد قيل : هو الذي يتشوقه الكل بلا مثنوية ، فإن الكل يطلب في الحقيقة الخير وإن كان قد يعتقد في الشر أنه خير فيختاره .

فمقصده الخير ويضاده الشر وهو المجتوى [٢] من أجل نفسه ، والمجتوى غيره من أجله .

قال النبي ﷺ : « **لا خير في خير بعده النار ، ولا شر في شر بعده الجنة** » [٣] فجعل الخير المطلق الجنة ، والشر المطلق النار كما ترى ، وقد يقال لكل ما يتوصل به إلى الخير : خير ؛ ولهذا سمى اللَّه تعالى المال خيرًا في قوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة : ١٨٠] ، لكن المال والجاه في الحقيقة قد يكون خيرًا لبعض الناس وشرًّا لبعضهم ، فمعلوم أنه كان شرًّا لمن قال تعالى فيه : ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة : ٣] .

وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة في الآخرة ، وهي الأربع التي تقدم ذكرها من البقاء بلا فناء ، والقدرة بلا عجز ، والعلم بلا جهل ، والغنى بلا فقر .

وقد يقال لما يتوصل به إلى هذه السعادات الأربع : سعادة ، وهي الستة عشر المتقدمة ، ويضادها الشقاوة .

وأما الفضيلة فاسم لما يحصل به الإنسان ميزة [٤] على الغير ، وهي اسم لما يتوصل به إلى السعادة ، ويضادها الرذيلة .

وأما النافع فهو ما يعين على بلوغ الفضيلة والسعادة والخير ، والنافع في الشيء ضربان :

ضروري : وهو ما لا يمكن الوصول إلى المطلوب إلا به ؛ كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ إلى النعيم الدائم .

---

(١) في (ط) : « وهل بينهن » ، وفي (أ) : « وهل بينهما » ، والصواب ما جاء في (د) « بينها » .
(٢) في (ط) : « المحبوب » ، والمعنى يضاد هذا ، والمجتوى : المكروه . والشر مكروه .
(٣) ليست بحديث ، لكن جاء في نهج البلاغة من كلام الإمام علي بن أبي طالب : « ما خير بخير بعده النار وما شر بشر بعده الجنة ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية » . نهج البلاغة (٤١٦) .
(٤) في (ط) ، (د) : « مزية » والمعنى واحد .

وغير ضروري : وهو الذي قد سد غيره مسدَّه كالسكنجبين في كونه نافعًا في قمع الصفراء ، فإن ذلك قد يسد غيره مسدَّه .

وكل نافع قد يسمى فضيلة وسعادة وخيرًا لكونه مبلغًا إلى ذلك ، وموصلًا إليه .

حاجة بعض هذه الفضائل إلى بعض

قد ثبت بما تقدم أن الخيرات والفضائل خمسة أنواع : أخروية ، ونفسية ، وبدنية ، وخارجية ، وتوفيقية . فيجب أن يعلم أن بعض ذلك محتاج إلى بعض ، (إما حاجة ضرورية بحيث لو لم يوجد ذلك لم يصح وجود الآخر أو حاجة نافعة) [١] بحيث لو لم يوجد لاختل حال الآخر ؛ وذلك أن السعادة الحقيقية الأخروية لا سبيل إلى الوصول إليها إلا باكتساب الفضائل النفسية ، ولذلك قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] فنبه أنه لا مطمع لمن أراد الوصول إليها إلَّا بالسعي ، ولا سبيل إلى تحصيل الفضائل النفسية [٢] إلا بصحة البدن وقوته ، ولأنه لا غنى بكمال الفضائل النفسية والبدنية عن الفضائل الخارجية ؛ فإنه وإن أمكن أن يتصور حصولها لمن لا أهل له ولا مال ولا عشيرة فإنها لا تكمل إلا بها .

الفضائل المطيفة بالإنسان

قد تقدم أن ذلك بالقول المجمل أربعة أشياء : المال ، والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة . وإن هذه الأشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الأخروية ، وجارية مجرى الجناح المبلغ وإن لم تكن الحاجة إليها في بلوغ ذلك ضرورية .

فأما المال : فصاحبه يتمكن من فضائل إذا فقده ثكل بلوغها ، فمعلوم أن كثيرًا من القُرب كالزكاة ، والحج ، يثكله الفقير ، فإن الفقير في تحري المكارم كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح ، وكباز متصيد بلا جناح ، وفضله مغطى كماء تحت الأرض ، ونار كامنة في الصخر ، وما أصدق ما قال الشاعر :

والمرء يرفعه الغنى   والفقر منقصة وذل

---

(١) « بحيث لو لم يوجد ذلك لم يصح وجود الآخر ، أو حاجة نافعة » كل هذا نقص في (ط) ، والكلام لا يستقيم بدونه . وفي (أ) : « تابعة » بدل « نافعة » .

(٢) كلمة « النفسية » ساقطة من (أ) والمعنى يقتضيها .

وقال المتنبي (في ديوانه ٤٥٤) :

فلا مجد للدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وكان النبي ﷺ يقول : « **اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى** » (١) ، وقال ﷺ : « **نعم العون على تقوى الله المال** » (٢)

وأما الأهل : فنعم العون على بلوغ السعادة ، فمن كثر أهله وخالصوه ، صار له بهم عيون ، وآذان ، وأيد ، وقد قال تعالى حاكيًا عن لوط ﷺ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود : ٨٠] ، وقال الشاعر :

ألم تر أن جمع القوم يخشى وأن حريم واحدهم مباح

وقال ﷺ في نفع الولد : « **إذا مات الرجل انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية بعد موته ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له** » (٣) .

وقال ﷺ : « **ريح الولد من رائحة الجنة** » (٤) ، وقال ﷺ : « **نعم العون على الدين المرأة الصالحة** » (٥) فالمرأة مزرعة الرجل قيضها الله تعالى له ليزرع فيها زرعه ، كما قال تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ ﴾ [النساء : ١١] .

وأما العز : فبه يتأبى عن تحمل الذل ، ومن لا عز له لا يمكنه أن يذود عن حريمه ؛ ولذلك قيل : « الدين والسلطان أخوان توأمان وقرينان مؤتلفان ، ومؤديان إلى عمارة البلاد وصلاح العباد » وقيل : الدين أس والسلطان حارس ، وما لا أس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع . وسمى الله تعالى الحجة سلطانًا لقهرها أولي البصائر ، وقال

---

(١) رواه مسلم بلفظه هذا « والعفاف » بدلًا من « العفة » . صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب (١٨) حديث (٢٧٢١) .

(٢) روى أحمد في مسنده حديثًا طويلًا عن عمرو بن العاص ومنه : « **يا عمرو نعم المال الصالح للرجل الصالح** » مسند أحمد (٢٠٢/٤) .

(٣) رواه مسلم مع اختلاف يسير في لفظ هذا . صحيح مسلم كتاب الوصية ، حديث (١٦٣١) .

(٤) قال عنه العراقي : رواه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منزل بن علي ، ضعيف . كشف الخفاء (١/ ٤٣٥) .

(٥) بهذا اللفظ قال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلًا ، وذكر ما في معناه من الصحيح ، وروى ابن ماجه حديثًا فيه جزء يحمل هذا المعنى ، قال النبي ﷺ : « **ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة** » ضعفه النسائي ووثقه غيره . ابن ماجه ، النكاح (١٨٥٦/٥) . (٥٩٦/١) .

عزَّ اسمه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] (١) .

وأما كرم العشيرة : فإنه يقال له : الحسب والشرف ، والشرف (٢) أخص بمآثر الآباء والعشيرة ؛ ولذلك قيل للعلوية : أشراف ، ومن الناس من لا يعد شرف الأصل فضيلة ، ويقول : المرء بنفسه . واستدل بقول أمير المؤمنين ﷺ : « الناس أبناء ما يحسنون » وبقوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » (٣) . وقول الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنيك محموده عن النسب

وقول الحكيم : الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية .

وليس كذلك كما ظن ؛ لأن كرم الأعمام والأخوال مخيلة لكرم المرء ، ومظنة له ، فالفرع وإن كان قد يفسد أحيانًا فمعلوم أن أصله يورثه الفضيلة والرذيلة ، فإنه لا يكون من النخل الحنظل ، ولا من الحنظل النخل ؛ ولذلك قال الشاعر :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل (٤)

وقيل :

إن السري إذا سرى فبنفسه وابن السري إذا سرى أسراهما

ويبين ذلك أن الأخلاق نتائج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيرًا ما يتأدى إلى الابن ، كالألوان والخلق والصور ، ومن أجل تأديها إليه ، قال عليه الصلاة و السلام : « **تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء** » (٥) ، وقال ﷺ : « **إياكم وخضراء الدمن** » قيل : يا رسول اللَّه وما خضراء الدمن ؟ قال : « **المرأة الحسناء في المنبت السوء** » (٦) .

وما ذكر في نحو قول أمير المؤمنين ﷺ : « الناس أبناء ما يحسنون » فهو حث

---

(١) وقد أورد الرازي آراء في معنى التدافع بين الناس ، ورجح أنهم الأنبياء ثم الأئمة ، ثم الملوك الذابون عن شرائعهم ؛ وذلك لحاجة الإنسان إلى الناس ، وحاجة الجميع إلى نظام يحافظ عليه والسلطان يحرس هذا - تفسير الفخر الرازي (١٩١/٦) .

(٢) « والشرف » سقطت من (ط) .

(٣) نهج البلاغة (٣٧٥ - ٣٩٠) .

(٤) البيتان لزهير بن أبي سلمى ، شعر زهير ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة (٤٤/٢) دار القلم (١٩٧٠) .

(٥) فتح الباري (١٢٥/٩) شرح حديث (٥٠٨٢) النكاح باب (١٢) .

(٦) قال العراقي : تفرد به الواقدي وهو ضعيف ، وقال الدار قطني : لا يصح من وجه ، وقال القاري : لا يكون موضوعًا سواء كان موقوفًا أم مرفوعًا . كشف الخفاء (٢٧٢/١) . حديث (٨٥٥) .

للناس على اقتباس العلم [١] ، ونهي عن الاقتصار على مآثر الآباء ، فإن المآثر الموروثة قليلة الغناء ، سريعة الفناء [٢] ، ما لم تضامَّها فضيلة النفس ؛ لأن ذلك إنما يحمد لكي يوجد الفرع مثله . ومتى أخلف الفرع وتخلف فإنه يخبر بأحد شيئين : إما بتكذيب من يدعي الشرف لعنصره . وإما بتكذيبه في انتسابه إلى ذلك العنصر ، وما فيهما حظ لمختار ، فالمحمود أن يكون الأصل في الفضائل راسخًا ، والفرع به شامخًا ، كما قال الشاعر :

زانوا قديمهم بحسن حديثهم وكريم أخلاق بحسن خصال

ومن لم يجتمع [٣] له الأمران فلأن يكون المرء شريف النفس دني الأصل أولى من أن يكون دني النفس شريف الأصل ، قال الشاعر :

إذا الغصن لم يثمر وإن كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الحطب

فما الحسب الموروث لا در دره بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ومن [٤] كان عنصره في الحقيقة سنيًا وفي نفسه دنيًا فذلك أتى إما من إهماله نفسه وسومها ، وإما لتعوده عادات قبيحة ، وصحبة أشرار ، وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة ، فليس سبب الرذيلة شيئًا واحدًا .

الفضائل الجسمية

قد استهان [٥] قوم بذلك ، وقالوا : كفى بالمرء أن يكون صحيح البدن بريئًا من الأمراض الشاغلة عن تحري الفضائل العقلية ، وليس كذلك ، فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع ، والسفينة للربان ، اللتين [٦] بهما صار صانعًا وربانًا .

وجميع أجزاء البدن بالقول المجمل أربعة : **العظام** التي تجري للبدن مجرى الألواح للسفينة . **والعصب** الذي يجري له مجرى الرباط الذي تشد به الألواح . **واللحم** الذي يجري له مجرى الحشو للرباطات . **والجلد** الذي يجري مجرى الغشاء لجميعها .

(١) في (ط) ، (د) : « على اقتباس العلا » ، ولعل « العلم » يناسب عبارة الإمام .
(٢) سريعة الفناء . تفردت بها (ط) .
(٣) « ومن لم يجتمع » في (ط) : (ولم يجتمع) ، « ومن » هذه لها دلالتها الضرورية .
(٤) في (ط) : « وما كان » ، والأصح « من » لأنها للعاقل .
(٥) في (ط) : « اشتهر قوم » ، وهي ضد المعنى المراد .
(٦) (ط) : « اللذين » مع أن المعبر عنهما مؤنثان .

فإذا اعتدلت هذه الأربعة بأن يعتدل فيها الأربع القوى ، وهي **الجاذبة** ، **والممسكة** ، **والهاضمة** ، **والدافعة** سمي ذلك **الصحة** ، ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع به .

وأما القوة : فهي جودة تركيب هذه الأركان الأربعة ، وهي العظام والعصب واللحم والجلد ، وما يتبعها . وبها يصلح البدن للسعي والتصرف في أمور الدنيا والآخرة .

وأما الجمال : فنوعان :

أحدهما : امتداد القامة الذي يكون عن اعتدال الحرارة الغريزية ، فإن الحرارة إذا حصلت دفعت أجزاء الجسم إلى العلو ، كالنبات إذا نجم ، كلما كان أطلب للعلو في منبته كان أشرف في جنسه . وللاعتبار بذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه **العالي والفائق** ، وكثر المدح بطول القامة نحو قول القائل :

كأن زرود القبطرية علقت علائقها منه بجذع مقوم

وقول آخر :

أشيم طويل الساعدين كأنما نياط نجاد سيفه بلواء

الثاني من الجمال : أن يكون مقدودًا [(١)] قوي العصب ، طويل الأطراف ، ممتدها ، رحب الذراع ، غير مثقل باللحم والشحم كما قيل :

فتى قُدَّ قَدَّ السيف لا متضائل ولا رهلًا لباته وبآدله

ولا نعني بالجمال هاهنا ما يتعلق به شهوات الرجال والنساء ، فذلك أنوثية ، وإنما يعني به الهيئة التي لا تنبو الطباع عن النظر إليها ، وهو أدل شيء على فضيلة النفس ؛ لأن نورها إذا أشرق تأدى إلى البدن إشراقها .

وكل شخص فله حكمان : **أحدهما** : من قبل جسمه وهو منظره ، **والآخر** : من قبل نفسه وهو مخبره ، فكثيرًا ما يتلازمان ؛ ولذلك فزع أصحاب الفراسة في معرفة أحوال النفس أولًا إلى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء : قَلَّ صورة حسنة يتبعها نفس رديئة ، فنقش الخواتيم مقروء من الطين ، وطلاقة الوجه عنوان ما في النفس .

وليس في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه ، وقال ﷺ « **اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه** » [(٢)] ، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : « إذا بعثتم رسولًا فاطلبوا

---

(١) في (ط) ، (أ) : « معدودًا » ، ولعل الصواب ما ذكرنا وبيت الشعر يرشحه .

(٢) قال العراقي : رواه أبو يعلى من رواية لا أعرف حال أصحابها ، ورواه البيهقي من طرق كلها ضعيفة ، =

حسن الوجه ، حسن الاسم » .

فالوجه والعين يظهر فيهما آثار النفس كالمرآة يستدل بها عليها ؛ ولذلك يظهر فيهما أثر سرور النفس وحزنها ، ورضاها وسخطها ، ولذلك عبر بالوجه عن الجملة ، وعن رئيس القوم ، فقيل : فلان وجه القوم وعينهم ، حتى قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] . وكون الوجه المقبول في دلالته على فضيلة النفس – وإن لم يكن حكمًا لازمًا – فهو على الأعم والأكثر .

وحكي أن المأمون استعرض جيشًا فمر به رجل قبيح الوجه ، فاستنطقه فرآه ألكن ، فأمر بإسقاطه ، وقال : إن الروح إذا كانت ظاهرة كانت صباحة ، وإذا كانت باطنة كانت فصَّاحة ، وأراه لا ظاهر له ولا باطن .

وكفاك من البيان في فضل كمال الجسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ، وقال : ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

وأما طول العمر : فلولاه لقل حظ الإنسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الأخروية ، والله ولي الفضل والإحسان وعليه المعول والتكلان .

ما يتولد من الفضائل النفسية :

أمهات الفضائل النفسية وإن كن أربعًا ، فلها بنات هن أمهات لفضائل أخر . وبيان ذلك أن العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر ، وجودة الذكر ، ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأي ، وتولد من اجتماع أربعتها جودة الفهم ، وجودة الحفظ .

والشجاعة متى تقوت تولد منها الجود في حال النعمة ، والصبر في حال المحنة ، والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية ، كما قيل .

خلقنا رجالًا للتجلد والأسى   وتلك الغواني للبكا والمآتم

والعفة إذا تقوت ولدت القناعة ، والقناعة تمنع عن الطمع في مال الغير [١] فتولد الأمانة .

= وأورده صاحب كشف الخفاء بروايات ومن طرق عدة ، وقال : وقد قال بعضهم : إن في طرقه ضعفًا ، بل وقال بعضهم بالوضع فيه . ثم قال : ومع هذا فلا يتهيأ الحكم على الحديث بالوضع الذي قاله الصفاني وكثيرون كما أشار إلى ذلك ابن حجر وغيره . كشف الخفاء (١٣٦/١) حديث (٣٩٤) .

(١) في (ط) : « مال غيره » و « فولدت » بالماضي » ، ولا أرى مرجعًا للضمير في غيره ، كما لا حاجة إلى عطف الماضي على المضارع والحديث فيه معنى المستقبل .

والعدالة إذا تقوت تولد الرحمة ، والرحمة هي الإشفاق من أن يفوت ذا حق حقه ، فهي تولد الحلم ، والحلم يقتضي العفو ، والإنسانية والكرم يجمعان هذه الفضائل ؛ وذلك أن الإنسانية هي الفضائل النفسية المختصة بالإنسان ، وبقدر ما يكتسبه الإنسان يستحقها ، وفيها تفاضل كثير [(١)] كما تقدم في الفرق ما بين الإنسان والإنسان .

فمنهم من قد ارتفع حتى لحق أفق الملك ، فلو تصورنا ملكًا جسميًّا لكان هو إيَّاه ، لارتفاعه عن الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

ومنهم من اتضع حاله حتى صار في أفق البهائم ، فلو تصورنا كلبًا أو حمارًا منتصب القامة متكلمًا لكان هو إيَّاه ، لانسلاخه من الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

ومنهم من هو في أواسط هذين ، في درجة من درجات لها كثيرة ؛ ولهذا صح أن يقال : فلان أكثر إنسانيَّة من فلان .

وما يختص به لفظ الإنسانية فهو الأفعال والأخلاق المحمودة ، وأما المذمومات من الأخلاق فتشارك الإنسان فيها البهائم والشياطين .

وأما المروءة : فلها اشتقاقان :

ففي أحدهما : يقتضي أن تكون هي والإنسانية متقاربتين ، وهو أن يجعل من قولهم : تمرأ الطعام ، وأمرأه إذا تخصص المريء لموافقته الطبع ، وكأنها اسم للأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا تكون اسمًا للأفعال المستحسنة كالإنسانية [(٢)] .

والثاني : أن تكون من المرء فتجعل اسمًا للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة فتكون كالرجولية ، وذلك أخص من الإنسانية ؛ إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء ، والمروءة أخص ، فكثير مما يكون فضيلة للمرأة يكون رذيلة للرجل ؛ كالبله والخفر والبخل والجبن ؛ ولهذا قيل : أفضل أخلاق الرجال أرذل أخلاق النساء . فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن [(٣)] .

---

(١) في (ط) : « تفاصيل كثيرة » والصواب ما في (أ) ، (د) .

(٢) المروءة : آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ، وهي كمال الرجولية . المعجم الوسيط (٨٦٧/٢) . انظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (٧٠٨) .

(٣) لعل الراغب الأصفهاني هنا ينقل معنى للإمام علي ، جاء في نهج البلاغة (٣٩٦) « خيار خصال النساء =

وقيل لمعاوية ﷺ : ما المروءة ؟ فقال : إطعام الطعام ، وضرب الهام ، وقيل للأحنف فقال : أن لا يفعل في السر ما يستحي منه في العلانية ، وقيل لآخر فقال : جماعها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

وأما الكرم : فاسم لجميع الأخلاق والأفعال المحمودة إذا ظهرت بالفعل ، والحرية مثله ، لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والأغراض الدنيوية .

وذكر بعض الحكماء أن الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة ، (والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة) [١] ، كمن ينفق مالًا في تجهيز جيش في سبيل اللّٰه تعالى ، أو تحمل حمالة يرفأ بها دماء قبيلة .

فكل كرم حريةٌ ، وليس كل حرية كرمًا ، وأيضًا فالحرية تتعلق بالتلطف عن الأخذ أكثر ، والكرم يتعلق بالإنفاق أكثر ، ويضاد الكرم اللؤم ، والحرية العبودية ، أعني المذكورة في قول الشاعر :

والعبد لا يطلب العلاء ولا   يعطيك شيئًا إلا إذا رهبا

وكما أن الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل ، ولا يدخل في الحرية والكرم النساء ؛ لأنهن مستخدمات ، بل مستعبدات [٢] ؛ ولذلك روي : « لو أمر اللّٰه مخلوقًا بعبادة مخلوق لأمر النساء بعبادة أزواجهن » [٣] .

= شرار خصال الرجال : الزهو ، والجبن ، والبخل ، فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها ، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » . اهـ ، لكن هذا الكلام ليس على إطلاقه ؛ إذ كثير من الصفات تمدح عند الرجل كما هي عند المرأة .

(١) « والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة » ساقطة من (ط) وهي ضرورية .

(٢) لعل نفي الحرية والكرم عن المرأة ووصف الشيخ إيَّاها بأنها مستعبدة يحتاج إلى نظر ، فأين هذا من إعطائها حقها في الإسلام ، ومن وصية الرسول ﷺ بها خيرًا في أحاديث عديدة هي ترجمة لآيات كريمة . انظر المرأة في الإسلام : محمد بن عرفة .

(٣) لعل المذكور هنا هو معنى الحديث كعادة الراغب أو النساخ ، ولكن لفظه كما رواه ابن ماجه عن عائشة ﵂ : « **لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها** ... » قال عنه في الزوائد : في إسناده علي بن زيد وهو ضعيف ، لكن للحديث طرق أخرى ، وله شاهدان من حديث طلق بن علي رواه الترمذي والنسائي ، ومن حديث أم سلمة رواه الترمذي وابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، كتاب النكاح (٤) حديث (١٨٥٢) المجلد (١/٥٩٥) .

فإن قيل : ما حقيقة قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ؟ قيل : لما كان الكرم اسمًا للأفعال المحمودة التي تقدم ذكرها ، وهذه الأفعال إنما تكون فاضلة إذا كان فعلها [١] عن علم ، وقصد بها أشرف الوجوه ، أي وجه اللَّه تعالى ، وذلك هو التقوى ، فليس التقوى إلا العلم وتحري الأفعال المحمودة ، فإذًا كل من كان أتقى كان أكرم [٢] .

والعزيز : الذي يأبى تحمل المذلة ، واشتقاقه من العزاز بالفتح الأرض الصلبة [٣] ، كالمتظلف في الامتناع من تناول الشهوات المذلة ، وأصله من الظلف أي الأرض الصلبة .

وقد فرق بعض الحكماء بين الكريم والعزيز فقال : **الكريم** يأبى أن يعصى له ، والعزيز يأبى أن يعصى عليه .

والظرف : اسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية والبدنية والخارجية تشبيهًا بالظرف الذي هو الوعاء ؛ ولذلك قال أعرابي : فلان حاضن الشرف ومقر الفضل ، ولكونه واقعًا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف ، ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه ظريف ، فالظرف أعم من الحرية والكرم .

وأما الفتوة : فكالمروءة ، فإنها اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الإنسانية ، لكن هي بالرجولية أشبه ، وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصوف ؛ لكونها مشاركة له في جميع أفعالها إلا في الغرض ، فإن غرض الفتيان استجلاب محمدة الأقران ، وغرض المتصوفة استجلاب محمدة الرحمن ، بل مجرد مرضاته تعالى .

وأما الحسب : فقد يقال فيما يختص الإنسان به ، فيعده من مآثره ، وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه ، والشرف نحوه لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء .

في الفضائل التوفيقية

التوفيق : موافقة إرادة الإنسان وفعله قضاء اللَّه سبحانه وقدره ، وهو وإن كان في الأصل موضوعًا على وجه يصح استعماله في السعادة والشقاوة فقد صار متعارفًا في السعادة فقط .

---

(١) « فعلها » ساقطة من (ط) .

(٢) إجابة الشيخ الراغب هنا لا تعفيه من النظر في ما قرره عن المرأة .

(٣) « بالفتح الأرض الصلبة » تفردت بها (د) ، وهي الصواب . مفردات القرآن (٤٩٨) .

والاتفاق : مطاوعة التوفيق ، لكن قد يستعمل في السعادة والشقاوة جميعًا ، فيقال : اتفاق جيد ، واتفاق رديء [(١)] .

والتوفيق : مما لا يستغني الإنسان عنه في كل حال ، كما قيل لحكيم : ما الذي لا يستغني عنه أحد في كل حال ؟ فقال : التوفيق ، وأنشد :

إذا لم يكن عون من اللَّه للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فالسعادة التوفيقية هي الهداية ، والرشد ، والتسديد ، والتأييد . فيجب أن يعلم أن لا سبيل لأحد إلى شيء من الفضائل إلا بهداية اللَّه تعالى ورحمته ، فهو مبدأ الخيرات ومنتهاها ، كما قال تعالى : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] ، وخاطب الناس فقال : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] . وقال ﷺ : « **ما أحد يدخل الجنة إلا برحمة اللَّه** » ، أي : بهدايته . قيل : ولا أنت يا رسول اللَّه ؟ فقال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته وهدايته** » [(٢)] ، تنبيهًا أنه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداءً وانتهاءً ما كان لنا سبيل إلى ذلك .

وللهداية ثلاث منازل في الدنيا :

الأول : تعريف طريق الخير والشر المشار إليهما بقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ، وقد خوَّل اللَّه تعالى الهدى كل مكلف ، بعضه بالعقل ، وبعضه بألسنة الرسل ، وإيَّاه عني بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] . **والثاني** : ما يمد به العبد حالًا فحالًا بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح ، وإياه عني بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] .

والثالث : نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة ، وإياه عني بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام : ٧١] فأضاف ذلك إلى لفظ اللَّه تعظيمًا له ، ثم قال : ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ فجعله الهدى المطلق (وعناه) بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] ، أي نورًا تفرقون به بين الحق والباطل ، وكل ذلك يسمى النور والحياة نحو : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] . وقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

---

(١) انظر مفردات القرآن للراغب ، مادة وفق (٨٢٩) .

(٢) من طرق عدة ، واللفظ متقارب رواه البخاري كتاب المرض باب (١٩) حديث (٦٧٣) . ورواه مسلم باب (١٧) حديث (٢٨١٦) وانظر فتح الباري (١٢٧/١٠) (٢٩٤/١١) .

بتحري هذه المنازل الثلاث يتوصل إلى الهداية للجنة المذكورة في قوله (تعالى) : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

والرشد : عناية إلهية تعين الإنسان عند توجهه في أموره فتقويه على ما فيه صلاحه وتُفتره عما فيه فساده ، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] وكثيرًا ما يكون ذلك بتقوية العزم أو بفسخه وإليه توجه قوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

والتسديد : أن يُقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ، لتهجم عليه في أسرع مدة يمكن الوصول فيها إليه ، وهو المسؤول بقوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] .

والنصرة من اللّه تعالى معونة الأنبياء والأولياء وصالحي العباد بما يؤدي إلى إصلاحهم عاجلًا وآجلًا ؛ وذلك يكون تارة من خارج كمن يقيضه اللّه تعالى فيعينه ، وتارة من داخل بأن يقوي قلوب الأولياء أو يلقي رعبًا في قلوب الأعداء ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

وأما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال له : الدولة والدول ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

وقوله في وصف الفيء : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] .

والتأييد : تقوية أمره من داخل بالبصيرة ، ومن خارج بقوة البطش ، ومن الأول قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

والعصمة : فضل إلهي يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه ، وإن لم يكن منعًا محسوسًا ، وإيَّاه عني بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

وقد روي أن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو عاضٌّ على إبهامه ، فأحجم ، وليس ذلك بمانع ينافي التكليف كما تصوره [1] بعض المتكلمين ، فإن ذلك كان تصوّرًا منه وتذكرًا لما كان قد حذره منه ، وعلى هذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] [2] ، ومن عصمته تعالى أنه يكرر الوعيد

---

(١) في (أ) : « كما توهمه بعض المتكلمين » ولعلها أليق بالمعنى المراد .

(٢) وجدير بالذكر أن المفسرين تكلموا في هذا الموقف كثيرًا ، ومن أحسن ما قيل رأي الفخر الرازي : أن =

على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه ، كقوله تعالى للنبي ﷺ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٦] .

واعلم أن رشده تعالى للعبد ، وتسديده ، ونصرته ، وعصمته ، تكون بما يخوله من الفهم الثاقب ، والسمع الواعي ، والقلب المراعي ، وتقييض المعلم الناصح له ، والرفيق الموافق ، وإمداده من المال بما لا تقعد به عن مغزاه قلته ، ولا تشغل عنه كثرته ، ومن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء ، وعن الغض منه من جهلة الأغنياء ، وأن يخوله من كبر الهمة ، وقوة العزيمة ما يحفظه عن التشوق للدنية [١] ، والتأخر عن بلوغ كل منزلة سنية [٢] .

في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضًا [٣]

العقل والشجاعة والعفة والجود والعدالة وسائر الفضائل تتلازم ، فإن العقل إذا أشرق عقل صاحبه عن الإقدام على ما يورثه مذمة ، ويحمله على الإقدام على المخاوف التي تورثه محمدة ، وعلى أن يسمح بفضل [٤] ما في يده لمن يحتاج إليه ، وأن يبذل لكل ذي حق حقه ؛ وذلك هو العفة ، والشجاعة ، والجود ، والعدالة .

وكذلك إذا كان عدلًا يحمله عدله على ترك ما ليس له مما لا يجوز له [٥] تناوله . وأن لا يحجم عما يلزمه الإقدام عليه ، وأن لا يبخل بفضل ما في يده .

وإذا كان شجاعًا لا تقهره شهوته على تناول ما لا يجوز له تناوله ، وعلى ظلم غيره ، ولا يخاف الفقر فيبخل ؛ ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة ، والسماحة شجاعة ، فقال أبو تمام :

= الهم هم بدفع المرأة عنه ، وبرهان ربه : هو النبوة والعصمة ورؤية عبارة على السقف ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ ، فالبرهان : هو الخلق الرادع عن مجرد حديث النفس الذي يفسر في اللغة بالهم والشهوة . وقيل : السوء : مقدمات الفاحشة من نظر وقبلة وغيرهما ، والفحشاء : الزنى ، ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ : أي الذين خلصهم الله من الأسواء تفسير الفخر الرازي (١١٤/١٨ - ١٢١) .

(١) في (ط) : « الأشياء الدنية » وفي (د) : « التسفف للدنية » والمعنى واحد .

(٢) لعله فهم من كلام الراغب أن الفضائل التوفيقية هي أصل الفضائل ، وما كان أحرى بالشيخ أن يضعها موضعها في التقسيم والمعالجة ؛ إذ مكانها في التقسيم متأخر وفي المعالجة كذلك ، مع أن كثيرًا مما ذكر من فضائل بدنية وغيرها لا قيمة له بدون التوفيق والهداية الإلهيين . (المحقق) .

(٣) في (د) فقط : « بعضها لبعض » ، وكان الأولى أن يكون هذا بعد مبحث الفضائل النفسية .

(٤) في (ط) : « يتمم بتفضل » ، وفي (د) : « تسمح نفسه بفضالات » ولعلها أوجز وأدق .

(٥) في (د) ، (ط) : « ترك تناول ما لا يجوز تناوله » لكن ما ذكرنا أوضح للتفصيل .

أيقنت أن من السماحِ شجاعة ترمي وأن من الشجاعة جودًا

وجعل النبي ﷺ دفع الشهوة جهادًا فقال : « **جهادك هواك** » وجعلت العفة جودًا فقيل : الجود جودان : جود بما في يدك ، وجود عما في يد غيرك ، وهو أعظمهما . وهذه الفضائل إذا حصلت حصل بها الإنسانية والحرية والكرم ، وعنها يتأصل الإسلام ، والإيمان ، والتقوى ، والإخلاص [1] .

البواعث على فعل الخير وتحري الفضائل

البواعث على فعل الخيرات الدنيوية ثلاثة :

أدناها : الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره .

والثاني : رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه .

والثالث : تحري الخير وطلب الفضيلة .

فالأول : من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة ، **والثاني** : من مقتضى الحياء وهو من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا ، **والثالث** : من مقتضى العقل ، وذلك من فعل الحكماء .

ولهذه المنازل الثلاث قيل : خير ما أعطي الإنسان عقل يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يستره ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد .

وكذلك البواعث على الخيرات الأخروية ثلاثة :

الأول : الرغبة في ثواب اللَّه تعالى والمخافة من عقابه ، وذلك منزلة العامة .

الثاني : رجاء حمده ومخافة ذمه ، وذلك منزلة الصالحين .

والثالث : طلب مرضات اللَّه تعالى في المتحريات ؛ وذلك منزلة النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، وهي أعزها وجودًا ؛ ولذلك قال بعضهم : أفضل ما يتقرب به العبد إلى اللَّه تعالى أن يعلم أنه لا يريد العبد من الدنيا والآخرة غيره ، قال اللَّه تعالى :

---

(١) لعل الراغب يقصد أن حصول الإنسانية التي هي بمعنى الخلافة يترتب عليها الإسلام والإيمان والإحسان . وإلا فالنظر أن هذه الفضائل تتأصل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، بمعنى أن درجتنا فيها رهن بدرجة إيماننا (المحقق) .

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، وقيل لرابعة : ألا تسألين اللّٰه في دعائك الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار . وبهذا النظر قال بعضهم : من عبد اللّٰه بعوض فهو لئيم .

وقال بعض العلماء : هذه المنازل الثلاث منازل الظالم والمقتصد والسابق [١] ، وأجدر أن تكون هذه منازل هؤلاء الثلاثة لما روي عنه ﷺ أنه قال : « **سائل العلماء ، وخالط الحكماء ، وجالس الكبراء** » [٢] ، وقد قال بعض العلماء : مساءلة العلماء ترغبك من اللّٰه في ثوابه ، وتخوفك من عقابه ، ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك عن الذم ، ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الباري ﷻ .

الموانع من تحري الفضائل

وذلك ضربان : **قصور ، وتقصير** .

فأما القصور : فبأن لا يكون له المعاني العشرة التي قدمناها ، ولا التمكن من اكتسابها ، أو يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله عائق من مرض أو شغل ضروري يعذره ؛ كحاجته إلى السعي فيما يسد به جوعته ، ويستر به عورته ، وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ودواء الأمرين الفزع إلى اللّٰه والتضرع إليه أن يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته .

وأما التقصير : فأربعة أشياء :

الأول : أن يكون إنسان لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الجميل من القبيح فبقي غفلًا ، ودواءه سهل وهو التعليم الصائب .

والثاني : أن يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعود فعل الصالح ، وزين له سوء عمله فرآه حسنًا ، فتعاطاه ، وأمره أصعب من الأول ، لكن يمكن أن يقهر على العادة الجميلة

---

(١) ترتيب الأوصاف بهذه الصورة لعله يعني أن الظالم هو من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، كما قال ابن عباس في رأي ، والمقتصد هو من تحرى الصواب لكنه ترك بعض المستحبات ، والسابق من حرص على كل ما يقرب إلى اللّٰه وثلاثتهم من الأمة المسلمة ومن أهل الجنة كما جاءت بذلك الآثار . انظر تفسير ابن كثير ، سورة فاطر ، آية (٣٤) .

(٢) مع تقديم في اللفظ وتأخير رواه الطبراني والعسكري عن أبي جحيفة مرفوعًا ، وروي أيضًا عنه موقوفًا وروي بلفظ آخر عن أبي أمامة . رواه الديلمي عن طريق الطبراني ، وقريب منه ما جاء في الموطأ من وصية لقمان لابنه . انظر : كشف الخفاء (١/٣٢٩) حديث (١٠٥٩) والموطأ : علم (١) .

حتى يتعودها وإن كان قد قيل : ترك العادة شديد .

والثالث : أن يعتقد في الباطل والقبيح أنه حق وجميل وتربى على ذلك ، ومداواة هذا أصعب جدًّا ، فقد صار ممن طبع على قلبه ؛ إذ قد تنقش بنقش خسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدي حذفه منه إلى خرقه وفساده .

والرابع : أن يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرًا في نفسه يرى الخلاعة وقهر الناس فضيلة ، وذلك أصعب الوجوه ، وإلى نحوه قصد من قال : من التعذيب تأديب الذئب ليتهذب ، وغسل المسح [1] ليبيض .

فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له : الجاهل ، والثاني يقال له : جاهل وضال ، والثالث يقال له : جاهل وضال وفاسق ، والرابع يقال له : جاهل وضال وفاسق وشرير .

الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها إلى أقصى الرذائل

للإنسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل ، وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] وبقوله : ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، ومدح قومًا بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦١] .

وعن الانحدار منها نهى بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢١] وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ ﴾ [النحل : ٩٢] ، وذم قومًا شأنهم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد : ٢٥] ، وبقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد : ٣٢] ، وبقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ شَيۡـٔٗا عِلۡمٍ ﴾ [النحل : ٧٠] ، فإن الآية تقتضي هذا المعنى وإن كان ظاهرها يدل على الجهل

---

(١) المسح هو كساء من الشعر ، وهو ثوب الراهب ، وهو الحارة من الأرض ، وغسل الأسود منها لا يحيله أبيض - المعجم الوسيط (٨٧٥/٢) .

الذي يورثه الهرم [١] .

فالخيرات يترقى فيها فيبلغ إلى أشرف المنازل بأربع درجات ، وينحدر عنها فيبلغ إلى أرذل المنازل بأربع درجات .

فأما درجات الارتقاء :

فأولاها : أن يرتدع الإنسان عن المآثم ويهجرها ، ويندم عليها ، ويعزم على ترك معاودتها ، وذلك أول درجة التائبين المطيعين للَّه ورسوله .

وثانيها : أن يقوم بالعبادات الموظفة عليه ، ويسارع فيها بقدر وسعه ، وذلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفُّتٍ منه إلى المحظورات بمجاهدة هواه ، وإماتة شهواته ، وذلك منزلة الشهداء .

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة يرضى ظاهرًا وباطنًا بقضاء اللَّه وقدره فلا يتزعزع تحت حكمه ، ولا يتسخط شيئًا من أمره ، ويعلم أن اللَّه تعالى أولى به من نفسه ، وذلك درجة الصديقين .

وهذه المنازل الأربع هي المراد بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وأجدر أن تكون هذه المنازل الأربع هي المأمور بها في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

واعلم أن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة ، فمن رضي عن اللَّه فقد رضي اللَّه عنه ؛ لقوله تعالى : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴾ [البينة : ٨] فجعل أحد الرضائين مقرونًا بالآخر ، فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف خساسة الدنيا ، واطلع على جنة المأوى ، وخطب مودة الملأ الأعلى ، وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣، ٢٤] .

---

(١) ذكر بعض المفسرين أن سن أرذل العمر الذي روي عن علي فيه أنه خمس وسبعون سنة ، في هذا العمر يحصل ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ؛ ولذا قال : ﴿ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٠] ، أي بعد علمه أصبح لا يدري شيئًا ؛ ولذا استعاذ الرسول ﷺ - كما في حديث البخاري - من الهرم ، ابن كثير : تفسير سورة النحل : ظلال القرآن (٢١٨٣/٤) دار الشروق .

وأما درجات الانحدار والارتداد عنها :

فأولاها : الكسل عن تحري الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ المعني بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] .

وثانيها : الغباوة : وهي ترك النظر ، وبغض العمل ، فيورثه ذلك رينًا على قلبه ، وهو المعني [1] بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] .

وثالثها : الوقاحة وهي [2] أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه ، فيورثه ذلك قساوة القلب ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : ٧٤] .

ورابعها : الانهماك في الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه ، ويُحسِّنه ويحببه (إلى غيره) فيورثه ذلك ختمًا على قلبه ، وإقفالًا عليه .

كما قال تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وقال : ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

فالكسل سبب الغباوة ، والغباوة سبب الوقاحة ، والوقاحة سبب الانهماك في الباطل ، كما أن الزيغ يوجب الرين ، والرين يوجب القساوة ، والقساوة توجب الختم والإقفال .

فحق الإنسان أن يراعي نفسه في الابتداء ، ولا يترخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك إلى ارتكاب الكبائر .

كما قيل :

إن الأمور دقيقها مما يهيج به العظيم

وقد قال اللّه تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة : ٨٣] ، فدل أن قعودهم أول مرة أدى بهم إلى أن صار محكومًا عليهم أنه لا يتأتى منهم الخروج معه ﷺ بوجه .

---

(١) « وهو المعني » ساقطة من (ط) .

(٢) في جميع النسخ « وهو » ، ولعل الصواب « وهي » .

في بيان عادة الله تعالى في تهذيب الذين تردَّوا في الرذائل حتى فسدت أخلاقهم [١]

الناس متى تركوا تعاطي الإحسان والأفضال وتحري العدالة فيما بينهم ، فلا يأتونها لا خلقًا ولا تخلقًا ، ولا رياءً ولا سمعةً ، ولا رغبةً ولا رهبةً ، فصاروا في تعاطي الشر سواسية كأسنان الحمار [٢] ، عدمت فيهم الفضيلة كما قال النبي ﷺ : « **لن يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا** » [٣] .

فحينئذ إن بقي في نفوسهم أثر قبول الخير أنشأ [٤] الله فيهم من يهديهم باللسان والسيف المحق كبعثة النبي ﷺ في العرب لما بقي فيهم من أثر الخير من تعظيم الشهر الحرام ، والبيت الحرام ، والوفاء بالذمام .

وإن قلَّ فيهم أثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفًا جائرًا كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] ، وكما قال ﷺ : « **إن الله ينتصف من أوليائه بأوليائه ومن أعدائه بأعدائه** » [٥] ، وعاملهم بما عامل به بني إسرائيل حيث سلط عليهم بختنصر ، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ٥] .

وإن عدم منهم أثر القبول بعث عليهم عذابًا يفنيهم ، إما طوفانًا أو صيحة أو نارًا محرقة أو ريحًا فيها عذاب أليم ، (أو الجراد والقمل والضفادع والدم) [٦] ؛ ليطهر منهم البلاد ، ويريح منهم العباد ، كما صنع الله تعالى بعاد ، وثمود ، وقوم نوح ، وقوم

---

(١) في (ط) فقط : « عبادة الله » ، وهي خطأ ننبه عليه لتكرره في كل الطبعات ، وفي (ط) ، (د) : « ترددوا في الرذائل » ، ولعل (تردَّوا) أنسب لحرف الجر « في » .

(٢) في (ط) فقط زيادة : « سواء بسواء ثنيات كأسنان الحمار » .

(٣) ليس بحديث ولكنه قول عربي ، يعني ضرورة الاختلاف في الصناعات لتعمر الحياة . انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد (٨٨/٢) طبعة بولاق (١٢٩٣هـ) .

(٤) في (ط) فقط : « إن شاء الله فيهم » ، والصواب ما ذكرنا لدقة المعنى فيه .

(٥) المشهور « أن الله ينتقم من الظالم بالظالم » ، وهو ليس له أصل كما ذكر صاحب كشف الخفاء ، وأما لفظ ما هنا فلم أجد له أصلًا كشف الخفاء (٢٣٩/١) .

(٦) « أو الجراد والقمل والضفادع والدم » ساقطة من (ط) .

لوط ، وذلك كالأرض إذا استولى عليها الشوك والدغل [١] فلا بد من نسفها ، وتسليط النار عليها حتى تعود بيضاء .

أصناف الناس

الناس ضربان : خاص ، وعام . **فالخاص** : من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الأعمال بما يتبلغ به إلى جنة المأوى ، دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا . **والعام** : إذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف بالتقليدات ، ومن أكثر الأعمال بما يؤدي إلى منفعة دنيوية .

وإذا اعتبرنا بأمور الدنيا : **فالخاص** : من يتخصص من البلد بما ينخرم بافتقاده إحدى السياسات المدنية ، **والعام** : من لا ينخرم بافتقاده شيء منها .

وهم من وجه آخر ثلاثة : خاصة ، وعامة ، وأوسطهم المسمَّون في كلام العرب بالسوقة .

فالخاص : هو الذي يسوس ولا يساس ، **والعام** : الذي يساس ولا يسوس ، **والوسط** : الذي يسوسه من فوقه ، وهو يسوس من دونه .

ومن جهة أخرى ثلاثة أضرب : **أصحاب الشهوات** : وهمهم الجدة واليسار والأكل والشرب والبِعَال . **وأصحاب الكرامة والرياسة** : وهمهم المدح واجتلاب المحمدة والصيت . **وأصحاب الحكمة** : وكل واحد منهم يستعظم من هو من جنسه ؛ ولهذا احتاج السلطان أن يتخصص بكل ذلك ويستبد به ليكون معظمًا عند كل ضرب من الناس ، فيعظمه أصحاب الحكمة لحكمته ، وأصحاب الكرامة لكرامته ، والرياسة لرئاسته، وأصحاب الشهوات لماله وكثرة قيناته .

ومن وجه آخر ثلاثة أضرب : ملكي ، وشيطاني ، وإنسي .

فالملكي : الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقًّا ، **والشيطاني** : هو الذي يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت إلى مقتضى العقل ، **والإنسي** : الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ

(١) « والدغل » ، « نسفها » ساقطة من (ط) فقط .

إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨ ، ٩٤] .

وهم المؤمن والفاسق والكافر ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٧ ، ١١] .

ومن وجه آخر : مصطفي ، ومسترذل .

والمصطفي : الأبرار ، وهم ثلاثة أضرب [١] : ظالم ومقتصد وسابق . وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] [٢] .

وهم أيضًا – أعني الأبرار – ثلاثة أضرب : **أنبياء** : للمشاهدة والهداية لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] . **وحكماء** : وهم الأولياء للمراقبة والرعاية لقوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٤] .

وعوام : للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وهم أيضًا ضربان : **عبد بالطبع** ؛ وإن كان ملكًا ، **وملك بالطبع** ؛ وإن كان عبدًا مسترقًّا ، والملك من فضل بالفضائل النفسية التي بها يصير الإنسان بحيث يصح أن يوصف بأنه ربَّاني وإلهي وملكي ، ويصلح أن يكون خليفة اللَّه في أرضه .

والعبد من قال النبي ﷺ فيه : « **تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس فلا انتقش ، وإذا شيك فلا انتقش** » [٣] .

---

(١) في (د) ، (ط) : « ومن وجه آخر ضربان : أبرار وفجار فالأبرار ثلاثة أضرب » .

(٢) ذكر الراغب أن الناس مؤمن وفاسق وكافر واستشهد بآيات الواقعة من ٧ – ١١ مع أن تفسير الآيات في مجموع الآراء يفهم أن الناس سيكونون أصنافًا ثلاثة : قوم عن يمين العرش ، وهم جمهور أهل الجنة ، وقوم عن يسار العرش ، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم وهم عامة أهل النار ، وطائفة سابقة بين يدي اللَّه ﷻ ؛ ومنهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين . كذلك فإن استدلال الراغب بآيات الواقعة ٨٨ – ٩٤ ، فيه نظر في هذا الموضع ؛ لأنها تتحدث عن احتضار الأصناف الثلاثة : المقربين السابقين أهل اليمين ، المكذبين الضالين وما ينتظره كل منهم ، تفسير ابن كثير : سورة الواقعة .

(٣) رواه البخاري بلفظ : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا =

وقال بعض الحكماء : ما من إنسان إلا وفيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات ، ليكون الإنسان مشاركًا لها في الجنسية ، وإن كان مباينًا لهما في النوعية [١] ، فمن الناس غشوم كالأسد ، وعابث كالذئب ، وخب كالثعلب ، وشره كالخنزير ، وخاضع كالكلب [٢] ، وجامع كالنمل ، ووقح كالذباب ، وبليد كالحمار ، وألوف كطير الوفا ، وصنع كالسرقة [٣] ، وأنف كالأسد والنمر ، وغيور كالديك ، وهادل كالحمام . ومنهم حسن المنظر والمخبر كالأترج ، ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ، ومنهم قبيح المنظر وحسن المخبر كالجوز واللوز ، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى .

والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطياب الأشجار فلا يقطف ثمرًا ، ولا يكسر شجرًا ، ولا يؤذي بشرًا . ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ، ويحلو طعمه ، ويطيب ريحه ، وفي الأشجار هو كالأترج يطيب حملًا ، ونورًا ، وعودًا ، وورقًا ، ورائحة وطعمًا [٤] .

والمنافق والشرير هو في الحيوانات كالقمل والأرضة ، وفي الأشجار كالكشوت ، مثل الكشوت فلا أصل ولا ورق ، ولا نسيم ولا ظل ولا زهر ، يفسد الثمار ، وييبس الأشجار ، وكالثمرة التي قل ورقها وكثر شوكها ، وصعب مرتقاها .

* * *

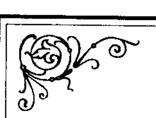
= انتقش » . البخاري : الرقاق (١٠) حديث (٦٤٣٥) ، فتح الباري (٢٥٤/١١) .

(١) « وإن كان مباينًا لهما في النوعية » في (ط) فقط .

(٢) « وخاضع كالكلب » سقطت من (ط) .

(٣) السرقة دويبة تصنع لنفسها بيتًا من دقائق العيدان ومنه المثل « أصنع من سرقة » .

(٤) « ورائحة وطعمًا » سقطت من (ط) ، (د) .




كتاب



الفصل الثاني

في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها






فضيلة العقل [١]

العقل أول جوهر أوجده اللَّه تعالى ، وأشرفه ، بدلالة ما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **أول ما خلق اللَّه تعالى العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت أكرم عليَّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب** » [٢] .

ولو كان على ما توهمه قوم أنه عرض لما صح أن يكون أول مخلوق ؛ لأنه محال وجود شيء من الأعراض قبل وجود جوهر يحمله ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا دين لمن لا عقل له ، لا يعجبنكم إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله** » [٣] . ومن هذا الوجه الذي أشار إليه النبي ﷺ قالت الحكماء : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشر عليه [٤] .

وبالعقل صار الإنسان خليفة اللَّه ، ولو توهم مرتفعًا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلًا عن الإنسان . وبما غرسه اللَّه تعالى منه في الإنسان اهتدى من وفقه اللَّه تعالى إلى تزكية نفسه المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، وحصل به حرث الآخرة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء :

---

(١) « فضيلة العقل » ساقط من (أ) .

(٢) اختلفت الآراء في الحكم على هذا الحديث ، فابن تيمية والصفاني ومن وافقهم يقولون : إنه كذب موضوع باتفاق ، وهناك من يرى أن الحديث ليس موضوعًا باتفاق ، بل رواه بعضهم بإسنادين ضعيفين ، وقيل : رواه أحمد في زوائد الزهد عن الحسن البصري يرفعه وهو مرسل جيد الإسناد ولا يلزم من رواية ابن المحبر له أن يكون موضوعًا لا سيما وقد رواه الأئمة بغير إسناده ، وقد قال السيوطي في الدرر : إني وجدت لهذا الحديث أصلًا صالحًا ، وهو مرسل جيد الإسناد . انظر : جامع الأصول (١٨/٤) ، القاري الهروي : المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٣٥) . كشف الخفاء (١٤٨/٢) .

(٣) قال القاري نقلًا عن النسائي : باطل منكر . كشف الخفاء (٣٦٢/٢) حديث (٣٠٦٥) .

(٤) تفردت (د) بزيادة هي : « وقال ذو النون : ما خلع اللَّه على عبد من عبيده خلعة أحسن من العقل ، ولا قلده قلادة أجمل من العلم ، ولا زينه بزينة أفضل من الحلم ، وكمال ذلك التقوى » ، ولعلها من الناسخ ونقلها للفائدة .

بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنًى بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل .

وإلى العقل أشار بقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ﴾ [النور : ٣٥] . فمعنى نور السموات والأرض [١] أي منور السموات والأرض ، والنور هو العقل ، وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل .

والعقل يقال على ضربين : **أحدهما** : بغير إضافة وهو المذكور بأنه أول مخلوق ، **والثاني** : بالإضافة إلى آحاد الناس ، فيقال : عقل فلان . وهو من الأول بمنزلة الضوء من الشمس .

أنواع العقل

العقل عقلان : غريزي ؛ وهو القوة المتهيئة لقبول العلوم ، ووجوده في الطفل كوجود النخلة في النواة ، والسنبلة في الحبة . ومستفاد : وهو الذي تتقوى به تلك القوة ، وهذا المستفاد ضربان : ضرب يحصل للإنسان حالًا فحالًا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصَّله ومن أين حصَّله . (وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصله ومن أين حصَّله) [٢] وحصوله بقدر اجتهاده في تحصيله . ولكون العقل غريزيًّا ومستفادًا . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « العقل عقلان : مطبوع ومسموع ، ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع » [٣] كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع ، وإلى الأول أشار النبي عليه السلام بقوله : « **ما خلق الله تعالى خلقًا أكرم عليه من العقل** » [٤] ، وإلى الثاني أشار بقوله عليه السلام لعلي رضي الله عنه : « **إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر ، فتقرب إليه أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الله والناس في الدنيا والآخرة** » [٥] وقال : « **ما اكتسب أحد شيئًا أفضل من عقل يهديه إلى**

---

(١) « والأرض » سقطت من (ط) .

(٢) « وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصله ومن أين حصله » سقطت من (أ) .

(٣) الموجود في نهج البلاغة : « العلم علمان : مطبوع ومسموع ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع » والباقي من شرح الراغب . نهج البلاغة (٤٠٩) .

(٤) مرَّ في أول الفصل .

(٥) مشهور بألفاظ قريبة من هذا اللفظ ؛ ولذا أوردته كل نسخة بلفظ متقارب ، أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب » ، قال الحافظ العراقي : وإسناده ضعيف .

هدى أو يرده عن ردى » [١] .

ولاختلاف النظرين قال قوم : العقل مبدع ، وقال قوم : هو مكتسب ، وكلا القولين صحيح من وجه ووجه .

والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر للجسد ، والمستفاد لها بمنزلة النور ، وكما أن البدن متى لم يكن له بصر فهو أعمى ، كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة ، أي العقل الغريزي فهي عمياء ، وكما أن البدن متى لم يكن له نور من الجو لم يفد بصره ، كذلك النفس متى لم يكن لها نور من العلم مستفاد لم تجد بصيرتها [٢] ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

وقد جعل للعقل نظر وإدراك ورؤية وإبصار ، وجعل له أضداده من العمى وغيره ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، وقال : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر – لأن بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر – قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، فذمهم بفقدان البصيرة تنبيهًا أن فقدانها اختياري ؛ إذ هو بتركهم استفادة العلم ، و (أن) أكثر فقدان البصر ضروري ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف : ١٠١] ، فلولا أن العين أريد بها البصيرة لما قال : ﴿عَن ذِكْرِى ﴾ ؛ لأن الذكر لا يدرك بحاسة العين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لمن عيَّره بفقدان البصر : (إنا نصاب في أبصارنا وأنتم تصابون في بصائركم) وكيف لا يكون فقدان البصيرة أعظم ضررًا من فقدان البصر ، وقد تقدم أن البدن بمنزلة فرس والنفس بمنزلة راكبه ، وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من ضرر عمى فرسه .

---

(١) ورد هذا المعنى في كشف الخفاء بلفظ « **ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة** » رواه البيهقي في الشعب وأبو نعيم والديلمي وآخرون عن ابن عمر ورفعه ، وهو ضعيف ، وأورد في الجامع الصغير عن ابن عمر أيضًا بلفظ « **ما أهدى المرء المسلم هدية أفضل من كلمة يزيده اللّٰه بها هدًى أو يرده بها عن ردًى** » كشف الخفاء (٢/١٨٠) .

(٢) في هذه الفقرة تبادلت النسخ ألفاظًا متحدة المعنى آثرنا ما ذكرنا لتناسقه في المقارنة .

المكتسب من العقل الدنيوي والأخروي

العقل المكتسب ضربان : **أحدهما** : التجارب الدنيوية والمعارف الكسبية .

والثاني : العلوم الأخروية والمعارف الإلهية .

وطريقهما متنافيان ، وقد ضرب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - لذلك ثلاثة أمثلة فقال : « إن مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح إحداهما إلا بنقصان الأخرى ، وكالمشرق والمغرب كل من قرب من أحدهما بعد عن الآخر ، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى » (١) ؛ ولذلك نرى أقوامًا أكياسًا في تدبير الدنيا وسياستها بلهاء في تدبير أمور الآخرة ، وقومًا بلهاء في أمور الدنيا أكياسًا في أمور الآخرة ، حتى قال عليه الصلاة والسلام : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** » (٢) .

وقال لمن نسب بعض الصالحين إلى بعض البله : « **أكثر أهل الجنة البله** » (٣) .

ولاختلاف طريقهما قال الحسن رحمه الله : « لقد أدركنا أقوامًا لو رأيتموهم لقلتم : مجانين ، ولو رأوكم لقالوا : شياطين » (٤) .

ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال رجل لمن وصف نصرانيًّا بالعقل : مه ، إنما العاقل من وحّد الله تعالى وعمل بطاعته ، وقال تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] .

ومن تصور اختلاف الطريقين - أعني طريق الدنيا وطريق الآخرة - لم تعرض له الشبهة التي عرضت لقوم قالوا : لو أن هاهنا حقًّا لما جهله الذين لم يلحق شأوهم في تدبير الدنيا ودقائق الصناعات وواضعو الحكم والسياسات ؛ وذلك أنه كما أن من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما لا يوجد إلا في المغرب ، أو يظفر سالك طريق الغرب بما لا يوجد إلا في الشرق ، كذلك من المحال أن يظفر سالك طريق معارف الدنيا

(١) نفس المعنى واللفظ متقارب موجود في نهج البلاغة ، مع ملاحظة عدم وجود المثال الأول الذي هو « ككفتي الميزان » نهج البلاغة (٣٧٨) ، الإحياء (٩/١٦٧) طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية (١٣٥٧هـ) .

(٢) الترمذي : القيامة (٢٥) حديث (٢٤٥٩) .

(٣) البزار من حديث أنس وضعفه ، وصححه القرطبي في التذكرة ، وليس كذلك فقد قال ابن عدي : إنه منكر ، وقال عقبة : إنه بهذا الإسناد منكر ، وذكره القاري في الموضوعات ، وقال العراقي : لا أصل له ، بل هي مدرجة من كلام أحمد بن أبي الحواري (القرن) كشف الخفاء (١/١٦٤) ، والإحياء ، تخريجات الحافظ العراقي .

(٤) هي للحسن البصري مع اختلاف يسير في العبارة « لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا : ما لهؤلاء من خلاق » . الإحياء (١٣/١٤٩) طبعة (١٣٥٧هـ) .

بمعارف طريق الآخرة ، وقد نبّه اللّه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٧] وبقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم : ٧] . ولا يكاد يجمع بين طريق معرفة الدنيا والآخرة معًا على التحقيق والتصديق إلا من رشحهم اللّه تعالى لتهذيب الناس في أمر معاشهم ومعادهم جميعًا ، كالأنبياء وبعض الحكماء .

ولما كان العقل هو الذي يردع الإنسان عن الذنب ، واكتسابه على التمام والكمال في الورى عسير ، لم ينفك أحد من ذنب يرتكبه ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « **ما منّا نبي إلا أذنب أو هم** » [١] .

منازل العقل واختلاف أساميها [٢] بحسبها

العقل : اسم عام لما يكون بالقوة وبالفعل ، ولما يكون غريزيًّا ومكتسبًا ، وهو في اللغة عبارة عن قيد البعير لئلا يند ، وسمي هذا الجوهر به تشبيهًا على عادتهم في استعارة أسماء المحسوسات للمعقولات ، وخص بناء المصدر به لما كان يستعمل مرة للحدث ، ومرة للفاعل ؛ نحو عدل ، وصوم ، وزور ، ومرة للمفعول نحو خلق وأمر . لكن يتصور منه كونه سببًا لتقيد الإنسان به ، وكونه مقيدًا له عن تعاطي ما لا يجمل ، وكونه مقيدًا به من بين الحيوان .

والنُّهى : في الأصل جمع نُهْيَة أو اسم مفرد نحو جُعَل ومُرد ، أو وصف نحو دليل خضع وسائق حُطَم وجعل اسمًا للعقل الذي انتهى من المحسوسات إلى معرفة ما فيه [٣] من المعقولات ؛ ولهذا أجبل أربابه على تدبر معاني المحسوسات في نحو قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه : ٥٣ ، ٥٤] .

والحجر : أصله من الحجر ، أي : المنع وهو اسم لما يلزمه الإنسان من حظر الشرع

---

(١) ليس بحديث ، لم أجده في مظانه ؛ ولذا يبقى هذا كلامًا حتى يثبت عند أهل الحديث قول فيه ؛ لأن الراغب ليس بمحدث ، ونستغربه على الراغب ؛ لأنه يتصادم مع عصمة الأنبياء وفطنتهم وحفظ اللّه لهم بالبرهان كما تقدم في أمر يوسف عليه السلام .

(٢) في (ط) : « لأسمائها » بدل « أساميها » .

(٣) في جميع النسخ « ما فيه » ، ولعل الصواب « ما فيها » .

والدخول في أحكامه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر : ٥] ، وسمي حجًا من حجاه ، أي قطعه ، ومنه الأحجية ، فكأنه سمي بذلك لكونه قاطعًا للإنسان عما يقبح .

• **وأما اللُّبُّ** : فهو الذي قد خلص من عوارض الشُّبه ، وترشح لاستفادة الحقائق من دون الفزع إلى الحواس ؛ ولذلك علق اللَّه تعالى في كل موضع ذكره بحقائق المعقولات دون الأمور المحسوسة ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، فوصفهم بهداية اللَّه إيَّاهم .

وقد سمى اللَّه تعالى العلم نورًا والجهل ظلمة فقال : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وسماه روحًا في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وسماه حياة والجهل موتًا في قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] ، وسماه ماءً بقوله : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] .

والإيمان زبدة العقل والعمل ؛ ولذلك قال في مواضع : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٩] فعلق به ما علق بهما ، وسمى العقل قلبًا ؛ وذلك أنه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات والفضائل سميت به ، ولذلك عظم اللَّه تعالى أمره لاختصاصه بما قد أوجد لأجله وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨، ٨٩] ، وقال : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] فنبه أن القلب إنما يكون في الحقيقة قلبًا إذا كان متخصصًا بما قد أوجد لأجله ، وما أوجد لأجله هو المعارف الحقيقية . وقال عليه السلام : « **إن في البدن مضغة إذا صلحت صلح لها سائر البدن ، وإذا فسدت فسد لها سائر البدن ، ألا وهي القلب** » (١) ولما كان أشرف المعارف هو ما يتخصص به القلب قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] فخصه بالذكر (٢) .

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه البخاري ، الإيمان (٣٩) حديث (٥٢) .

(٢) العلاقة بين العقل والقلب أوضحتها اللغة حين فسر ابن منظور القلب : العقل ، وحين قال الفراء القلب : =

جلالة العقل وشرف العلم

العقل حيث ما وجد يكون محتشمًا حتى إن الحيوان إذا رأى إنسانًا احتشمه بعض الاحتشام ، وانزجر به بعض الانزجار ؛ ولذلك تنقاد الإبل للراعي ، وكذلك جماعة الرعاة إذا رأوا منهم من كان أوفر عقلًا أغزر فضلًا فيما هم بصدده انقادوا له طوعًا .

وكذلك العلماء [(١)] إذا لم يعاندوا انقادوا ضرورة لأكثرهم علمًا ، وأفضلهم نفسًا ، وأوفرهم عقلًا ، ولا ينكر فضله إلا كل متدنس بالمعايب ، متطلب لرئاسة ، محافظ على غرض دنيوي ، قد جعل عقله خادمًا لشهوته ، فلمحافظته على رئاسته ينكر فضل الفاضل .

ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي ﷺ قصدوه ليقتلوه فما هو إلا أن وقع طرفهم عليه فتراءى لهم نور اللّٰه تعالى معربًا عنه ، فألقى في قلوبهم منه روعة ، فهابوه ، فمن مذعن له طائعًا ، وخبيث لا ينكره بعد إلا جاحدًا ، ولهذا المعنى قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تغنيك عن خبره [(٢)]

وقد تقدم أن الإنسان لم يتميز عن الحيوان والبهائم إلا بالعقل ، ولم يشرف إلا بالعلم ، ومن شرف العلم أن كل حياة انفكت منه فهي غير معتد بها ، بل ليست في حكم الموجودة ، فإن الحياة الحيوانية لا تحصل ما لم يقارنها الإحساس فيلتذ بما يوافقه ويطلبه ، ويتألم بما يخالفه فيهرب منه ، وذلك أخس المعارف فمقتضى الحياة الإنسانية أنها إذا تعرّت من المعارف المختصة بها أن لا يعتد بها ؛ ولهذا سمى اللّٰه تعالى الجاهل ميتًا في غير موضع من كتابه فقال : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، ولأجل أن الحياة تقارن العلم سمى اللّٰه تعالى العلم

= الفهم والتدبر ، ولعل هذا هو الذي جعل المفسرين من الصحابة والتابعين يشيرون إلى الوظائف الإدراكية للقلب ففسروا القلب في قوله تعالى : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق : ٣٧] بالعقل . باعتبار أن العقل قوة من قوى القلب ، والقلب يؤدي وظائف العقل ويتفوق عليه بالفقه والفطنة ، لسان العرب ، مادة عقل ، إسماعيل حقي : روح البيان (٣٩/٩) طبعة إستانبول (١٩٢٦م) . تفسير القرطبي (٢٠/٣) ، تفسير ابن كثير (١٢/٤) ، د .محمد الشرقاوي : العقل عند الصوفية (١٩٧٧م) ماجستير مخطوط / دار العلوم .

(١) في (ط) ، (د) : فالعلماء ، ولعل ما هنا أليق لمناسبته لما سبقه من كلام حيث ذكر أن الرعاة يفعلون كذا وكذلك العلماء .

(٢) نسبه الفخر الرازي إلى عبد اللّٰه بن رواحة في مدح الرسول محمد ﷺ ، تفسير الفخر (١٢٣٧/٢٣) .

روحًا في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] [(١)] .

وقد ذكرنا أن حاجة الإنسان إلى العلم أكثر من حاجته إلى المال ؛ لأن العلم نافع لا محالة ونفعه دائم في الدنيا والآخرة ، والمال قد ينفع وقد يضر ، وإذا نفع فنفعه منقطع ، فمن استفاد علمًا ثمَّ ضيعه أو تمكن من استفادته فأهمله فقد خسر خسرانًا مبينًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦] .

الفرق بين العلم والعقل
وبين العلم والمعرفة والدراية والحكمة

العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وهو ضربان :

أحدهما : حصول صور المعلومات في النفس .

والثاني : حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود ، أو نفي شيء عنه هو غير موجود له . نحو الحكم على زيد بأنه خارج أو ليس طائرًا ، فالأول : هو الذي قد يسمَّى في الشرع وفي كلام الحكماء العقل المستفاد ، وفي النحو المعرفة ويتعدى إلى مفعول ، والثاني : هو الذي يسمى العلم دون العقل [(٢)] ، ويتعدى إلى مفعولين ، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما من حيث إن القصد إذا قيل : علمت زيدًا منطلقًا إثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد .

واعلم أن العقل والعلم بقياس أحدهما إلى الآخر على ثلاثة أوجه :

أحدها : عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزي .

والثاني : علم ليس بعقل وهو المتعدي إلى المفعولين .

والثالث : عقل هو علم وعلم هو عقل ، وهو العقل المستفاد والعلم الذي يقال له : المعرفة ، ولا يصح أن يتعدى العقل إلى مفعولين فيقال : عقلت زيدًا منطلقًا كما يقال في « علمت » لكون العقل موضوعًا للعلم البسيط دون المركب ، (وسمي عقلًا من حيث إنه مانع لصاحبه أن تقع أفعاله على غير نظام) [(٣)] ، وسمي علمًا من حيث إنه

(١) يلاحظ أن العلم المقصود هنا هو القرآن ؛ لأنه أصل العلوم والمعارف .

(٢) « دون العقل » ساقطة من (ط) ، والأصح وجودها .

(٣) من « وسمي عقلًا » إلى « غير نظام » ساقط من (أ) .

علامة على الشيء وهذا إذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية .

وأما الفرق بين العلم البسيط - أعني المتعدي إلى مفعول واحد - وبين المعرفة ، فهو أن المعرفة قد تقال فيما تدرك آثاره وإن لم تدرك ذاته ، والعلم لا يكاد يقال إلا فيما يدرك ذاته ؛ ولهذا يقال : فلان يعرف اللّه ، ولا يقال : يعلم اللّه ، لما كانت معرفته تعالى ليست إلا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته ، وأيضًا فالمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجودًا فقط ، والعلم أصله أن يقال فيما يعلم وجوده ، وجنسه وكيفيته وعلته ؛ ولهذا يقال : اللّه تعالى عالم بكذا ولا يقال : عارف به ، لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر .

وأيضًا : فالمعرفة تقال فيما يتوصل إليه بتفكر وتدبر ، والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره ويضاد العرفان والإنكار ، والعلم والجهل .

وأما الدراية : فالمعرفة المدركة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمة وإجالة الخاطر واستعمال الروية ، وأصله من دريت الصيد ، **والدِّرية** تقال لما يتعلم عليه الطعن ، وللناقة التي يسيبها الصائد ليأنس الصيد بها فيرمي من ورائها ، **والمدري** يقال لما يصلح به الشعر ، ولقرن الشاة ، ولا يصح أن يوصف بذلك الباري تعالى ؛ لأن معنى الحيل لا يصح عليه ، ولم يرد بذلك سمع فيتبع ، وقول الشاعر :

اللهم لا أدري وأنت الداري

فهو من تعجرف الأعراب الأجلاف [١]

وأما الحكمة : فاسم لكل علم حسن وعمل صالح ، وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم ، وإن كان الفعل لا يكون محكمًا من دون العلم به ، ومنها قيل : أحكم العمل إحكامًا ، وحكم بكذا حكمًا .

والحكمة من اللّه تعالى إظهار الفضائل المعقولة المحسوسة ، ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر ، وقد **حدت** الحكمة بألفاظ مختلفة على نظرات مختلفة ؛ فقيل : هي معرفة الأشياء الموجودة بحقائقها ، ويعني كليات الأشياء ، فأما جزئياتها فلا سبيل للبشر إلى الإحاطة بها ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم .

وقيل : هي إماتة الشهوات على ما يجب ، وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية المراد من الإنسان .

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٢٤٣) الدال في مع الراء .

وقيل : هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر ، وذلك بأن يجتهد أن ينزه عمله عن الجهل ، وعدله عن الجور ، وجوده عن البخل ، وحلمه عن السفه ، وبنحو هذا العقل يقرب العبد من خالقه سبحانه في الدنيا .

ونسبة العلوم إلى الحكمة من وجه كنسبة الأعضاء إلى البدن في كونها أبعاضًا لها ، ومن وجه كنسبة المرؤوسين إلى الرئيس في كونها مستولية عليها [١] ، ومن وجه كنسبة الأولاد إلى الأم في كونها مولدة لها وهي في معارف الشرع اسم للعلوم العقلية المدركة بالعقل ، وقد أفرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب ، فجعل الكتاب اسمًا لما لا يدرك إلا من جهة النبوات ، **والحكمة** لما يدرك من جهة العقل . وجعلا منزلين وإن كان إنزالهما من اللَّه تعالى .

وقد يكونان مختلفين ، وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما إلى الآخر ، فقد قيل : لولا الكتاب لأصبح العقل حائرًا ، ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب ، وقيل : الكتاب بمنزلة اليد والحكمة بمنزلة الميزان ولا تعرف المقادير إلا بهما ؛ ولذلك عبر عن الحكمة بالميزان في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] .

ولا يبلغ الحكمةَ إلا أحدُ رجلين : إما **مهذب** في فهمه ، موفق في فعله ، ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر . وإما **إلهي** ، يصطفيه اللَّه فيفتح عليه أبواب الحكمة بفيض إلـهي ، ويلقي إليه مقاليد جوده ، فيبلغه ذروة السعادة ، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم [٢] .

توابع العقل

العقل إذا أشرق في الإنسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة ، وقد تقدم ذكرهن ، ويحصل عنه أيضًا الذكاء ، والذهن ، والفهم ، والفطنة ، وجودة الخاطر ، وجودة التوهم ، والتخيل ، والبديهة ، والكيس ، والخبر ، وإصابة الظن ، والفراسة ، والزكانة ،

---

(١) « ومن وجه كنسبة المرؤوسين إلى الرئيس في كونها مستولية عليها » تفردت به (ط) .

(٢) لعله وضح أن المقصود هنا بالجمع بين الكتاب والحكمة الإشارة إلى أن العقل الغريزي لا يتعارض مع النقل ، غير أنه يجب أن ننبه إلى محدودية العقل في مسألة إثبات الشرع وقضايا الألوهية والرسالة وفيما عدا ذلك فالصلة ضرورية ولا تعارض ؛ لأن تلك الغريزة ليست علمًا يتصور أن يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة ، وما كان شرطًا في الشيء امتنع أن يكون منافيًا له ، فالحياة أو الغريزة شرط في كل العلوم سمعيّها وعقليّها فامتنع أن تكون منافية لها ، وهي أيضًا شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال وإن لم تكن علمًا ، فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له . ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٨٩/١) .

والكهانة ، والعرافة ، والإلهام ، ودقة النظر ، والرأي ، والتدبير ، وصحة الفكر ، وسرعة الذكر ، وجودة الحفظ ، والبلاغة والفصاحة .

فأما الذكاء : فالمضاء في الأمور وسرعة القطع بالحق ، وأصله من ذكت النار ، وذكت الريح ، وشاة مذكاة ، مدرك ذبحها بحدة السكين ، وذكي الرجل إذا تم فيه قوة الذكاء ، لكن لما كان أكثر ما يوجد ذلك فيمن تمت سنُّه صار يعبِّر به عن تمام السن ، ومنه قيل : (« جَري المُذَكِّياتِ غِلَابُ » [١] .

وأما الذهن : فقريب من الذكاء ، لكن يقال في إدراك ما وقع فيه التنازع) [٢] .

وأما الفطنة : فسرعة إدراك ما يقصد إشكاله ؛ ولهذا يكثر استعمالها في استنباط الأحاجي والرموز .

وأما الفهم : فمقدمة العقل ، فمن لا يعرف معنى الشيء فهمًا لم يتحققه عقلًا ، وقد سمي الفهم عقلًا ، وإن كانت مرتبته دون مرتبة العقل ، فقوة الفهم أن تدرك به الأشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ، ومعنى ذلك أن العقل يدرك أن العدالة حسنة ، والظلم قبيح ، والفهم يميز بين كل واحد من الفعل هل هو عدل أو جور [٣] .

وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل ، كالحاذق في لعب الشطرنج ، وكل من يوصف بالعقل فإنه يوصف بالفهم .

فأما الخاطر : فحركة الفهم نحو الشيء ، يقال : خطر الشيء ببالي ولا يقال : خطر بالي بالشيء ، فتجوز أن يكون ذلك من المقلوب كقولهم : عيش ناصب ، وقد قيل في قولهم : عقلت الشيء وأحسست أنه أيضًا من المقلوب ، فالشيء هو المؤثر في الحاسة والعقل لا هما فيه .

وأما الوهم : فانقياد النفس لقبول أثر ما يرد عليها من قولهم : حمل وهم وطريق وهم ، والفرق بينه وبين الخاطر أن الخاطر يقال فيما لا تقبله النفس ، والوهم لا يقال إلا فيما تقبله النفس .

وأما الخيال : فنحو الوهم لكن يقال اعتبارًا بما يكون من جهة الحاسة وفيما له صورة

---

(١) يضرب لمن يوصف بالتبريز على أقرانه . المعجم الوسيط : مادة جرى .

(٢) من « جري المذكيات » حتى « التنازع » سقط من (أ) .

(٣) بين النسخ اختلاف في اللفظ « يدرك » هي في (د) ، (ط) : « يعرف » « والجور » في (د) ، (ط) « الظلم » وأمثال هذا في الغالب لا قيمة له من الناحية العلمية ؛ ولذا نتجاوز عن أمثاله .

ما ، ومنه سمِّي الطيف الوارد من جهة المحبوب خيالًا ، والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة ، والطيف لا يقال إلا فيما كان حال النوم ؛ ولهذا ينسب الطيف إلى الخيال لما كان ذلك من جوانبه . قال الشاعر :

نم (فـ)ـما ما زارَكَ الخيال وَلـ كِنَّك بالفكر زرت طيف الخيال

وأما البديهة : فمعرفة ثاقبه تجيء بلا فكر ولا قصد ، فالبديه في المعرفة كالبديع في الفعل .

وأما الرويَّة : فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من روي .

وأما الكيس : فالقدرة على جودة استنباط ما هو أصلح في بلوغ الخير ؛ ولهذا قال ﷺ : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** »[١] من حيث إنه لا خير يصل إليه الإنسان أفضل مما بعد الموت ، وقول العرب : الكيس من [٢] الخيل ، لتصورها بصورة الكيس ؛ لأنها ذات كيس في الحقيقة ، وكاس في مشيته ، أي أظهر الكيس برفع إحدى رجليه . وتسميتهم الغادر : كيسان إما على طريق المجاز ، أو تنبيهًا أن الغادر يعد ذلك كيسًا أو لأن كيسان في الأصل اسم الغادر ثم سمي كل غادر كيسان كتسميتهم كل حداد هالكية .

وأما الخبر : فالمعرفة المتوصل إليها من قولهم خبرته ، أي أصبت خبره ، وقيل : هو من قولهم : ناقة خبيرة ، وهي المخبرة عن غزارتها [٣] ، أي غزيرة اللبن ، فكأن الخبر هو غزارة المعرفة ، ويجوز أن قولهم : ناقة خبيرة ، أي : المخبرة عن غزارتها كقولهم : ناقة ناجرة .

وأما الظن : فإصابة المطلوب بضرب من الأمارة ، ولما كانت الأمارات مترددة بين يقين وشك ، فتقرب تارة من طرف اليقين ، وتارة من طرف الشك جاز تفسير أهل اللغة بهما ، فمتى رؤي إلى طرف اليقين أقرب استعمل « أنَّ » المثقلة والمخففة منها (نحو قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٤٦] ، وقوله : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧١] . ومتى رؤي إلى طرف الشك أقرب استعمل معه « أن » التي للمعدومين

---

(١) رواه الترمذي : القيامة (٢٥) مجلد (٤) حديث (٢٤٥٩) .

(٢) في (ط) ، (د) : ذكر المثل « أكيس من قشة » ، وهو مثل يضرب للصغار خاصة ، وهو جرو القرد . الأمثال (١٦٩/٢) ولكني رجحت ما هنا ؛ لأن الراغب حين ذكر مادة « كاس » في مفرداته لم يذكر المثل الموجود في (د) ، (ط) وإنما ذكر ما يرشح الموجود هنا . انظر المفردات مادة « كاس » (٦٦٨) .

(٣) « وهي المخبرة عن غزارتها » سقطت من (ط) لكن المعنى يكون من غيرها .

من الفعل ، نحو ظننت أن تخرج وأن خرجت ، وإنما استعمل الظن بمعنى العلم) [1] في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ لأمرين :

أحدهما : تنبيه أن علم أكثر الناس في الدنيا بالإضافة إلى علمه في الآخرة كالظن في جنب العلم .

والثاني : أن العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

والظن متى كان عن أمارة قوية فإنه يمدح به ، ومتى كان عن تخمين لم يعتمد ذُم به كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وأما الفراسة : فالاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله ، وقد نبّه اللَّه تعالى على صدقها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، وبقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد : ٣٠] .

ولفظها من قولهم فرس : السبع الشاة ، فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي ، وإياه عني بقوله ﷺ : « **المؤمن ينظر بنور اللَّه** » [2] ، وهو الذي يسمى صاحبه المروع والمحدث ، وقال ﷺ : « **إن يكن في أمتي محدث فهو عمر** » [3] وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى : ٥١] إن ما كان وحيًا بإلقائه في الروع ، وذلك يكون للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣، ١٩٤] ، وقد يكون بإلهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) من « نحو قوله تعالى » إلى « الظن بمعنى العلم » سقط من (أ) .

(٢) هو جزء من حديث اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللَّه ، قال العراقي : رواه الترمذي من حديث أبي سعيد ، وقال : حسن غريب ، قال السيوطي : رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة وطرقه كلها ضعيفة وبعضها متماسك فلا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع لا سيما وقد رواه الطبراني والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه . « **أن للَّه عبادًا يعرفون الناس بالتوسم** » كشف الخفاء (١/ ٢٤) حديث (٨١) .

(٣) متفق عليه . رواه مسلم بلفظ : « **قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر ابن الخطاب منهم** » مسلم : فضائل الصحابة (١٥/ ١٦٦) ، وفي البخاري نفس الباب حسب الطبعات .

« **الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة** » [(١)] .

والضرب الثاني من الفراسة : يكون بصناعة متعلمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك وكان ذا فهم ثاقب ، قوي في الفراسة ، وقد عمل في ذلك كتب فمن تتبع الصحيح منها اطلع منها على صدق ما ضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وقد سئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما ، فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب تعالى ، وكل من قوي فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩] ، كان ممن وصفه بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧] ، وكان ذلك النور شاهدًا منه أصاب فيما حكم به .

ومن الفراسة قوله ﷺ في المتلاعنين : « **إن أمرهما بين لولا حكم الله** » [(٢)] ، ومن الفراسة علم الرؤيا ، وقد عظم الله أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [الأنفال: ٤٣] .

وقال في قصة إبراهيم الخليل ﷺ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] ، وقال تعالى حكاية عن يوسف ﷺ : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم تكن لها حقيقة لم تكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة ، والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب - وهو الأكثر - أضغاث أحلام وأحاديث النفس من الخواطر الرديئة ؛ لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج الذي لا يقبل صورة ، وضرب - وهو الأقل - صحيح وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، (وقسم يحتاج إلى تأويل) [(٣)] ؛ ولهذا يحتاج المعبر إلى مهارة ليفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ، ويفرق بين طبقات الناس ؛ إذ كان فيهم من لا يصح له رؤيا ، وفيهم من تصح رؤياه ، ثم من

---

(١) في البخاري « الرؤيا الصالحة » ، وفي مسلم « رؤيا المؤمن » البخاري كتاب التعبير (٤) حديث (٦٩٨٩) ، مسلم كتاب الرؤيا ، حديث (٢٢٦٣) .

(٢) ليس بهذا اللفظ ولكن بمعناه وردت قصة في البخاري كتاب اللعان (٣١) حديث (٥٣١٠) .

(٣) « وقسم يحتاج إلى تأويل » ساقطة من (ط) مع ضرورتها في التقسيم .

يصح له ذلك منهم من يرشح أن يلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ؛ ولهذا قال اليونانيون : يجب للمعبر أن يشتغل بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ؛ وذلك لأن لهم حظًّا من النبوة ، وقد قال ﷺ : « **الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة** » وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقًا فيه ، وربما نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم يرزق حظًّا فيه (١) ، وتوجد له فيه قوة عجيبة .

وأما الزكانة : فضرب من الفراسة ، وهي معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم يقال : (قد زكنتُ وأزكنتُ) (٢) .

والقيافة : ضرب من الزكانة لكنه أدق وهو ضربان :

أحدهما : بتتبع أثر الأقدام والاستدلال به على السالكين .

والثاني : الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله على نسبته .

وخص من العرب بالقيافة بنو مدلج (٣) ، وقيل : إن ذلك بمناسبة طبيعية لا بتعلم ، وهي محكوم بها في الشرع ، وقال بعض الحكماء : خص اللّه بذلك العرب ؛ ليكون سببًا لارتداع نسائهم عما يورث شوب نسبهم ، وخبيث حسبهم ، وفساد بذورهم وزروعهم ؛ صيانة لنسب النبوة ، (وليكون ذلك شرفًا لنبيه ﷺ) (٤) ، ولأجل حفظه تعالى نسبهم ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، أي : ليعرف بعضكم بعضًا بمعرفة أصله (٥) .

---

(١) « يرزق حظًّا فيه » تفردت بها (د) .

(٢) « قد زكنت وأزكنت » سقطت من (ط) ، (د) .

(٣) في النسخة (د) زيد « وبنو لهب » . وبنو مدلج بطن من كنانة وهم بنو مدلج بن مرة بن عبد مناة ، كانوا ممن اختص بعلم القيافة ، وكانوا مع خالد بن الوليد في فتح مكة ، أما بنو لهب : فبطن من بطون الأزد من القحطانية ، وهم بنو لهب بن أجمن ، وعرفوا بالقيافة والزجر (قبائل العرب / عمر رضا كحالة (١٠١٥/٣ ، ١٠٦١) .

(٤) « وليكون ذلك شرفًا لنبيه ﷺ » سقطت من (ط) ، (د) .

(٥) تفردت النسخة (د) بهامش صححه مصححها وجعله من المتن بزيادة هي بعد الآية فنسب ذلك إلى نفسه فقال : وجعلناكم ، فخص العرب بذلك مقطع بصحة نسبهم دون غيرهم من الناس ، وقال لتعارفوا » . ا هـ . وهذه الزيادة إلى جانب استدلال الراغب الأصفهاني بالآية المذكورة يؤخذ بمعنى أن الشعوب والقبائل من العرب وحدها ، وأن الفرق بين اللفظ في كبر القبيلة أو كونها بطنًا ، لكن هناك من يرى أن الشعوب من العجم ، والقبائل من العرب والأسباط من بني إسرائيل ، وقيل : إن الشعوب هم من ينتسبون إلى المدائن =

(**وأما الكهانة والعرافة** : فإن) [١] الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة مختصة بالأمور الماضية ، وكان ذلك في العرب كثيرًا ، وآخر من وجد ، وروي عنه الأخبار العجيبة سطيح ، وسواد بن قارب [٢] . وقيل : كان وجود ذلك في العرب أحد أسباب معجزات النبي ﷺ لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ، ثم نزع عنهم ذلك بعد النبوة ، حتى روي : « **لا كهانة بعد النبوة** » [٣] ، وقال عليه السلام : « **من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** » [٤] تنبيهًا أنه قد رفع .

ومما يجري مجراها الطيرة ، وهو : تشاؤم الإنسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما تنفر منه النفس مما ليس بطبيعي ، فأما نفارها مما هو طبيعي في الإنسان كنفاره من صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا ، واشتقاقه من الطير ، وأصله في زجر الطير ، وما سواه ملحق به ، وعلى ذلك قول الشاعر :

وما أنا ممن يزجر الطير حوله ... أصاح غراب أم تعرض طائر

ثم كثر في غيره حتى قال تعالى حكاية عمن أخبر عنه : ﴿ قَالُواْ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل: ٤٧] ، أي : السبب الذي يسعدكم ويشقيكم عند الله ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٣١] .

وسمي عمل الإنسان الذي يعاقب عليه طائرًا قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ

= والقرى ، والقبائل : العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم . وعليه فليس الرأي قاطعًا في هذا الفهم . ابن الأثير : جامع الأصول (٢) ، تفسير الحجرات (ص٣٦٥) طبعة أولى (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م) .

(١) « وأما الكهانة والعرافة فإن » ساقطة من (ط) وما بعدها يدل على وجودها .

(٢) سطيح هو : ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي من بني مازن كاهن جاهلي ، وكان يُضرب به المثل في جودة رأيه ، وحوله مبالغات في باب الكهانة ، توفي بعد مولد النبي ﷺ بقليل . حدد هذا نحو (٥٢) قبل الهجرة الزركلي : الأعلام (٣ - ١٤) طبعة دار العلم (١٩٧٩م) .

سواد بن قارب الأزدي الدوسي ، كاهن في الجاهلية ، صحابي في الإسلام ، له أخبار ، عاش إلى خلافة عمر ، ومات بالبصرة . الأعلام (١٤٤/٣) .

(٣) لم أقف عليه حديثًا ولم أستطع نسبته كقول .

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي بلفظ فيه زيادة لكن المعنى متفق ، أما نفس اللفظ فقد ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فقال : وللأربعة والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما عن أبي هريرة : « **من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** » . كتاب التوحيد (٥٨) طبعة المنظمات الطلابية ، جامع الأصول (٦٥/٥) . صحيح مسلم ، باب تحريم الكهانة ، حديث (٢٢٣٠) .

طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ ﴾ [الإسراء: ١٣] .

والنظر : هو إجالة الخاطر نحو المرئي لإدراك البصيرة إيَّاه ، فللقلب عين كما أن للبدن عينًا ، فمن صحت عين قلبه ، وأعانه نور اللَّه اطلع على حقائق الأشياء ، وأدرك العالم العلوي وهو في الدنيا ، فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولكون الاطلاع عليه (ممكنًا) قال أمير المؤمنين علي ﷺ : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا » [(١)] .

والرأي : إجالة الخاطر في رؤية ما يريده ، وقد يقال للقضية التي تثبت عن الرأي رأي . والرأي للفكرة كالآلة للصانع التي لا يستغني عنها ، ولا يكون إلا في الأمور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ، ويكون في جملة الممكنات مما تكون إلينا ، فالطبيب لا يجيل رأيه في نفس البرء ، وإنما يجيله [(٢)] في كيفية الوصول إليه .

ويحتاج الرأي إلى أربعة أشياء : اثنان من جهة الزمان في التقديم والتأخير :

أحدهما : أن يعيد النظر فيما يرتئيه ، (ولا يجعل إمضاءه حتى يعب ، فقد قيل : إياك والرأي الفطير ، وقد قيل : دع الرأي يعب . وأكثر من يستعجل في ذلك ذو النفوس الشهمة والأمزجة الحادة .

والثاني : لا يدافع به بعد إحكامه ، فقد قيل : روِ تحزم وإذا استوضحت فاعزم ، وقيل : أحزم الناس من إذا وضح له الأمر صدع فيه ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وأكثر من يدافع ذوو النفوس المهينة والأمزجة الباردة .

واثنان من جهة الناس :

أحدهما : ترك الاستبداد بالرأي ، فالاستبداد بالرأي من فعل المعجب بنفسه ، وقد قيل : الأحمق من قطعه العجب بنفسه عن الاستشارة ، والاستبداد عن الاستخارة .

والثاني : أن يتخير من تجوز مشاورته .

فما كل ذي لب مؤتيك نصحه   وما كل مؤت نصحه بلبيب

---

(١) في نهج البلاغة هذا المعنى (٢٠١) ، وهذه العبارة قال عنها القاري ، قول عامر بن عبد قيس على ما ذكره القشيري في رسالته ، والمشهور أنه من كلام الإمام علي كرم اللَّه وجهه . ملا القاري : الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (٢٩٣/١) – مؤسسة الرسالة (١٣٩١) تحقيق د / محمد الصباغ .

(٢) في (ط) : « بل يكون » ولا خلاف في المعنى .

ولكن إذا ما استجمعنا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب [(١)]

ومن دخل في أمر بعد الاحتراز من هذه الأربعة فقد أحكم تدبيره ، فإن لم ينجح عمله لم يلحقه مذمَّة .

وأما التدبير : فنحو الرأي ، لكن يقال له إذا استعمل في النظر في عواقب الأمور ، واشتقاقه يقتضي ذلك ؛ لأنه تأمل دبر الأمر ، وعليه حثَّ الشاعر في قوله :

ومن ترك العواقب مهملات فأيسر سعيه أبدًا تبار

وأما الفكرة : فقوة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، وهو تخيل عقلي موجود في الإنسان ، والتفكر جولان تلك القوة بين الخواطر بحسب نظر العقل ، وقد يقال للتفكر : الفكر ، وربما ضلَّ الفكر وأخطأ ضلال الرائد [(٢)] وخطأه ، والتفكر لا يكون إلا فيما له ماهية بما يصح أن يجعل له صورة في القلب مفهومة) [(٣)] ؛ ولأجل ذلك قال النبي ﷺ : « **تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله** » [(٤)] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الروم : ٨] ، وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٩ ، ٢٢٠] ، وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة ، فقال : الفكرة أن تجعل الغائب حاضرًا ، والعبرة أن تجعل الحاضر غائبًا .

وأما الذكر : فوجود الشيء في القلب أو في اللسان ، وذلك أن الشيء له أربعة وجودات : وجوده في ذاته ، ووجوده في قلب الإنسان ، ووجوده في لفظه ، ووجوده في كتابته . فوجوده في ذاته هو سبب لوجوده في قلب الإنسان ، ووجوده في قلبه سبب لوجوده في لسانه ، ولوجوده في كتابته . ويقال للوجودين ، أي : للوجود في القلب ، والوجود في اللسان : الذكر ، ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن

---

(١) ديوان بشار ، شرح الشيخ محمد الطاهر عاشور طبعة أولى (١٩٥٧م) (٤ / ٢٣) .
قال السيرافي : هو لأبي الأسود الدؤلي ، وقال نسبهما الجاحظ في الحيوان إلى أبي الأسود الدؤلي ، ورأيت البيت الأول في كتاب سيبويه . لكنهما في ديوان بشار .

(٢) هي في (أ) ، وفي (د) : « الرائد » ولكني أرجح أنها « الرأي » « ضلال الرأي وخطأه » .

(٣) من قوله : « ولا يجعل إمضاءه حتى يعب » إلى قوله : « مفهومة » كل هذا ساقط من (ط) ، وهو جزء مهم يتوقف عليه المعنى والتقسيم .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر مرفوعًا . وروي من طرق أخرى بألفاظ تختلف قليلًا وأسانيدها ضعيفة ، لكن اجتماعها يقويها ، ومعناه صحيح . كشف الخفاء (١/ ٣١١) حديث (١٠٠٥) .

ذكر في القلب ، بل لا يكون ذلك ذكرًا .

والذكر بالقلب ضربان :

أحدهما : استعادة ما قد استثبته القلب فانمحى عنه بنسيان أو غفلة ، وهذا هو في الحقيقة التذكر .

والثاني : ثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان أو غفلة ، وذكر اللّٰه تعالى على نحو الأول غير مرتضى عند الأولياء وإنما يحمد إذا كان على النحو الثاني .

واعلم أن ذكر اللّٰه تعالى تارةً يكون بعظمته فيتولد منه الإجلال والهيبة ، وتارةً يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن .

(وتارةً بفضله ورحمته فيتولد منه الرجاء) [١] ، وتارةً بنعمته فيتولد منه الشكر ؛ ولذلك قيل : ذكر النعمة شكرها ، وتارةً بأفعاله الباهرة فيتولد منه العبرة .

فحق المؤمن ألا ينفك أبدًا من ذكره على أحد هذه الوجوه ، وعليها دلَّ قول اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] ، أي : يذكرونه في كل حالٍ ؛ لأن الإنسان لا ينفك من هذه الأوجه الثلاثة ، فإن قيل : ما حقيقة ذكر اللّٰه تعالى عند ابتداء الأعمال حتى قال ﷺ : « **كل أمرٍ ذي بال لم يبدأ فيه بذكر اللّٰه تعالى فهو أبتر** » [٢] ؟ قيل : نبَّه بذلك أن الأمور كلها يجب أن يقصد بها وجه اللّٰه تعالى ، وأن كل أمر لا يقصد به ذلك فهو ناقص ، وشرع ذكره باللسان ؛ ليكون سببًا لذكره بالقلب ، فيتحرى بفعله وجه اللّٰه ، ولا يعمل ما ينافي رضاه . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٤] ، أي : إذا عرض لك نسيان لما يلزمك فتذكر أنه مطلع عليك ؛ ولهذا قال ﷺ : « **اعبد اللّٰه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » [٣] .

---

(١) « وتارة بفضله ورحمته فيتولد منه الرجاء » سقطت من (ط) .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعًا ، وفي رواية لابن ماجه « **بالحمد للّٰه فهو أقطع** » ، ورواية أبي داود « **كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم اللّٰه الرحمن الرحيم فهو أبتر** » والحديث حسن – ابن ماجه / نكاح (١٩) ، أحمد (٢/٣٥٩) . كشف الخفاء (٢/١١٩) (١٩٦٤ م) .

(٣) هو جزء من حديث جبريل الشهير . فتح الباري (١/١١٤) حديث (٥٠) .

وأما الحفظ : فالمواظبة على مراعاة الشيء وقلة الغفلة عنه ، ومنه محافظة الحريم ، حتى قيل للغضب المقتضي لذلك : حفيظة ، ويقال لثبات صورة الشيء في القلب : حفظ ، ويقال للقوة الحافظة أيضًا : حفظ ، وفلان جيد الحفظ ، أي : القوة الحافظة .

(والحفظ للنفس من وجه جارٍ مجرى الخزانة للملك يضع فيها الزخائر إلى وقت الحاجة) [١] ومن وجه جارٍ مجرى الكتاب الذي يكتب فيه الشيء ليرجع إليه فيتذكر به ، والناس متفاوتون فيه بحسب أمزجتهم ، فمنهم من قوى اللَّه تعالى ذلك فيه كما جعله لنبيه ﷺ ؛ (فلذلك كان كونه أميًّا شرفًا له) [٢] ؛ إذ كان له من الحفظ ما يغنيه عن الاستعانة بالكتابة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ ، ١٧] فضمن أنه يحفظ عليه بما جعل له من القوة الإلهية . وروي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٢] ، قال النبي ﷺ لعلي : « **سألت اللَّه تعالى أن يجعلها أذنك** » [٣] فلم يسمع بعد ذلك شيئًا إلا وعاه .

ومن الناس من يسرع إليه النسيان فما سمعه يكون كالخط يكتب في بسط الماء .

وأما البلاغة : فإجادة اختيار الألفاظ والإصابة في تأليفها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ، ولا يكون الكلام تام البلاغة ما لم يجمع هذه المعاني ، فإنه متى قبح اللفظ ، أو قبح التأليف ، أو كان أكثر مما يجب ، أو أقل مما يجب ، أو لم يطابق اللفظ المعنى ، إما حقيقةً أو استعارةً رائقة ، أو كان المعنى محالًا أو كذبًا ، خرج الكلام بقدر ما اختل منه من باب البلاغة ، وقد وصفت البلاغة بأوصاف مختلفة بحسب أنظار مختلفة ، فقال بعضهم : البلاغة هي الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل . وقيل : ما فهمته العامة ورضيته الخاصة . وقيل : ما اجتيازه فساد له [٤] . إلى غير ذلك من الأوصاف .

وأما الفصاحة : فاشتقاقها من فصح اللبن إذا خلص ، وهي الإصابة في اللفظ (يعني اختصاره) [٥] ، والائتلاف دون اعتبار الصدق وصواب المعنى ، فكل كلام جزل اللفظ

---

(١) من « والحفظ للنفس » إلى « وقت الحاجة » سقطت من (أ) .

(٢) « فلذلك كان كونه أميًّا شرفًا له » ساقطة من (ط) .

(٣) هذا اللفظ ليس موجودًا كحديث ، وتفسيرها عام وليس خاصًّا بأحد لكن أحمد روى حديثًا جاء فيه : « **وقد أفلح من جعل قلبًا واعيًا** » - مسند أحمد (١٤٧/٥) . تفسير ابن كثير : تفسير الحاقة .

(٤) « وقيل : ما اجتيازه فساد له » تفردت بها (أ) .

(٥) « يعني اختصاره » تفردت بها (أ) .

حسن التركيب فموصوف بالفصاحة ، صدقًا كان أو كذبًا .

فالبلاغة ترجع إلى اللفظ والمعنى ، والفصاحة إلى اللفظ دون المعنى [١] .

ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه الإنسان من ذلك

أشرف ثمرة للعقل معرفة اللَّه تعالى ، وحسن طاعته ، والكف عن معصيته ، وعلى ذلك قوله ﷺ : « **العقل ثلاثة أجزاء : جزء معرفة اللَّه ، وجزء طاعة اللَّه ، وجزء الصبر عن معصية اللَّه** » [٢] ، وقال ﷺ : « **الإيمان عريان ، ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وماله العفة ، وثمرته العلم** » [٣] .

فمعرفة اللَّه تعالى العامية مركوزة في النفس ، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول وأن له فاعلًا فعله ، ونقله في الأحوال المختلفة ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقوله : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد ، ويتنبه الغافل عنه إذا نُبِّه عليه فيعرفه كما يعرف أن ما هو مساوٍ لغيره فذلك الغير مساوٍ له ، ومن هذا الوجه قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] ، ثم قال بعده : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٥٤] .

وأما معرفة اللَّه تعالى المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما يجب أن ينفى عنه ، وهذه المعرفة هي التي دعا الأنبياء عليهم السلام لها وحثوا

(١) انظر للتفصيل : البيان والتبيين للجاحظ (١/٨٨) (ط٤) (١٣٩٥هـ) الخانجي ، د . عبد العزيز عتيق : علم المعاني (٨ - ١٢) . دار النهضة العربية (١٩٧٤م) .

(٢) رواه أبو نعيم عن أبي سعيد مرفوعًا ، وفي إسناده سليمان بن عيسى وضاع ، ورواه أبو نعيم بإسناد فيه عبد العزيز بن أبي رجاء ، قال الدار قطني له تصنيف في العقل موضوع كله . محمد بن علي الشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (٤٧٦) (طبعة ١٣٧٩هـ) .

(٣) قال العراقي عنه : الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف ، ونقل صاحب كشف الخفاء ما يفيد أنه موضوع . كشف (١/٢٣) .

عليها ؛ ولهذا قال كلهم : قولوا : لا إله إلا اللّه ، ولم يدع أحد إلى معرفته تعالى ، بل دعا إلى توحيده .

وهذه المعرفة - أعني المكتسبة - على ثلاثة أضرب :

ضرب : لا يكاد يدركه إلا نبي أو صديق أو شهيد ومن داناهم ، وذلك معرفته بالنور الإلهي من حيث لا يعتري فيه شك بوجه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وضرب : يدرك بغلبة الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٤٦] .

وضرب : يدرك بخيالات ومثل وتقليدات ، وإيَّاه عني بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

فالأول : يجري مجرى إدراكه الشيء من قريب ؛ ولهذا قال تعالى في وصفهم : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

والثاني : يجري مجرى إدراكه الشيء من بعيد ، وقد يعتري فيه شبهة ولكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

والثالث : يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد ، ولا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

ولأجل صعوبة (١) معرفة اللّه تعالى على الحقيقة حتى يتخلص الإنسان من آفات الشرك قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، وقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر : ١٤ ، ١٥] ، وقال ﷺ : « **من قال : لا إله إلا اللّه مخلصًا دخل الجنة** » (٢) .

وغاية معرفة الإنسان بربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة

---

(١) « صعوبة » سقطت من (ط) ، وهي مهمة في مكانها .

(٢) الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن ، وله شواهد من طرق عدة . فتح الباري (١/٧٥) .

والمعقولة ، ويعرف أثر الصنعة فيها ، وأنها محدثة وأن محدثها ليس إيَّاها ولا مثلًا لها ، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه ولا يصح بقاؤها وارتفاعه ، وبهذا النظر قال الصديق ﷺ : « **سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلًا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته** » ؛ بل لهذا قال النبي ﷺ : « **تفكروا في آلاء اللَّه ولا تتفكروا في ذاته** »[١] .

ولما كان معرفة العالم[٢] كله تصعب على الإنسان الواحد ؛ لقصور أفهام بعضهم عنها ، واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم ، جعل لكل إنسان من بدنه ونفسه عالمًا صغيرًا ، أوجد فيه مثال كل ما هو موجود في العالم الكبير ؛ ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من الكتاب البسيط ، يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر ، والليل والنهار ، فإن نشط وتفرغ للتوسع في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم ، فيطلع منه على الكون ؛ ليغزر علمه ، ويتسع فهمه ، وإلا فليقنع بالمختصر الذي معه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] ، ولشرف متأملي ذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] ، فنبَّه بمدحهم حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أنهم عرفوا الغرض المقصود بخلقه ، وذلك هو آخر الأبحاث ؛ لأن الأبحاث أربعة : بحث عن وجود الشيء بهل هو ؟ وبحث عن جنسه بما هو؟ وبحث عما يباين به غيره بأي شيء هو ؟ وبحث عن الغرض بلم هو ؟ .

وهذه الأبحاث ينبني بعضها على بعض ، فلا تصح معرفة الثاني إلا بمعرفة الأول ، ولا معرفة الثالث إلا بمعرفة الثاني ، ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث . وقولهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ يقتضي أنهم عرفوا الأبحاث الأربعة ، وإلا شهدوا بما لم يتحققوا ، ومن شهد بما لم يتحقق كذب وإن كان ما يشهد به على ما شهد به ، ألا ترى أن اللَّه تعالى كذب المنافقين حين قالوا : ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : ١] ، وإن كان هو رسول اللَّه .

فدَّلت هذه الآية على أن البحث الذي يؤدي إلى معرفة حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة اللَّه تعالى هو من العلوم الشريفة ، بخلاف قول الصم البكم العمي الذين لم يجعل اللَّه لهم نورًا ؛ حيث بدَّعوا[٣] من اشتغل بمعرفة ذلك .

---

(١) سبق تخريجه ، وهذه « في ذاته » في رواية . (٢) « العالم » سقطت من (ط) وهي مهمة هنا .
(٣) في (ط) : « يدعون » ، والأصح بدَّعوا أو يبدعون .

وجوب بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقلة الاستغناء عنهم

بعثة الأنبياء إلى الناس من الضروريات التي لا بد لهم منها ، وذلك أن جُل الناس يقصر عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم وإن كان لهم سبيل إلى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل إلى معرفة جزئياتها ، ولا يمكن أن يعرفوا كيف يجب ، ولا في أي وقت يجب ، وكم يجب ؟ .

فلما كان كذلك مَنَّ اللّٰه تعالى على كافة عباده ، خاصهم وعامهم برسل بعثهم فيهم من أنفسهم يتلون عليهم آياته ويزكونهم ويعلمونهم الكتاب والحكمة . لكي إذا تمسكوا بذلك صلح معادهم ومعاشهم ، وسهل عليهم إدراكهم ؛ ولهذا أزاح اللّٰه تعالى علتهم ببعثة الأنبياء فقال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] .

ما يعرف به صحة النبوة

لكل نبي آيتان :

إحداهما : عقلية يعرفها أولو البصائر من الصديقين والشهداء والصالحين ومن يجري مجراهم .

والثانية : حسية يدركها أولو الأبصار من العامة .

فالأولى : ما لهم من الأصول الزكية ، وصورهم المرضية ، وعلومهم الباهرة ، ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة ، وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر ، كما قال الشاعر في مدح النبي ﷺ :

لو لم تكن في آيات مبينة ... كانت بداهته تغنيك عن خبره

وذلك أن حق النبي أن يكون من أكرم تربة في العالم ، وحيث يكون عقل أربابها أوفر ؛ لذلك لم يبعث نبي من الأطراف التي تضعف عقول أربابها ، ويجب أن يكون من عنصر كريم من بيت الفضل)[1] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ ، ٣٤] ، ونبَّه بقوله : ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ﴾ أنه جعل النبوة في أهل بيت واحد لا تخرج عنهم لكونهم أشرف .

(١) « ويجب أن يكون من عنصر كريم من بيت الفضل » سقطت من (ط) .

ويجب أن يكون عليه أنوار تروق من رآها وأخلاق تتملك من ابتلاها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩] ، وقال لنبينا ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه إذا كان متخصصًا بنور العقل ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها إلى معجزة ، ولا يطلبها كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ؛ ولهذا لما عرض النبي ﷺ على الصديق أبي بكر الإسلام تلقاه بالقبول ، حتى قال ﷺ : « **ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر الصديق فإنه لم يتلعثم فيه** » [1] .

وأما الآية الثانية فهي المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك يطلبه أحد رجلين إما ناقص عن معرفة الفرق بين الكلام الإلهي وبين الكلام البشري ، وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره ، فيحتاج إلى ما يدركه بحسه لقصوره عن إدراك ذلك . وإما ناقص وهو مع نقصه معاند ، فيقصد بما يطلبه العناد ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

كون الرسول والعقل هاديين الخلق إلى الحق

لله ﷻ إلى خلقه رسولان : **أحدهما** : من الباطن وهو العقل ، **والثاني** : من الظاهر وهو الرسول ، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله ؛ ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها [2] ، فالعقل : قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين

(١) بلفظه هذا لم أجده وإن كان هناك أحاديث عديدة في فضل أبي بكر ﷺ . مسلم ، فضائل الصحابة (١) حديث (٢٣٨٢) مسند أحمد (٢١٢/٤) ، كنز العمال (٥/١٣) .

(٢) لكن هذه الأهمية للعقل لا تعني أن ثبوت الشرع في نفسه أو الرسالة في صدقها متوقف على فهم العقل ، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية يصرح أنه ليس متوقفًا على وجودنا فضلًا عن تعقلنا : « فإن الشرع المنزل من =

باقيًا ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا ، واجتماعهما كما قال تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور : ٣٥] .

تعذر إدراك العلوم النبوية على من لم يتهذب في العلوم العقلية (١)

المعقولات تجري مجرى الأدوية الجالية للصحة ، والشرعيات تجري مجرى الأغذية الحافظة للصحة ، وكما أن الجسم متى كان مريضًا لم ينتفع بالأغذية ، (و) لم يستفد بها ، بل يتضرر بها ، كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] ، لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات ، بل صار ذلك ضارًّا له مضرة الغذاء للمريض ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

وأيضًا فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات ، والاعتقاد فيه بمنزلة البذر إن خيرًا وإن شرًّا ، وكلام اللّٰه تعالى بمنزلة الماء (الذي يسقيه ؛ ولذلك سماه ماء على ما تقدم ذكره ، فكما أن الماء إذا سقى الأرض يختلف نباته بحسب اختلاف بذوره ، كذلك القرآن إذا ورد على الاعتقادات الراسخة في القلوب ، تختلف تأثيراته) (٢) ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الرعد : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

وأيضًا فالجهل بالمعقولات جارٍ مجرى ستر مرخي على البصر ، وغشاء على القلب ، ووقر في الأذن ، والقرآن لا تُدرك حقائقه إلا لمن كشف غطاؤه ، ورفع غشاوه ، وأزيل وقره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الإسراء : ٤٥، ٤٦] .

= عند اللّٰه ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه ، فهو مستغنٍ في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه ، وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالمًا به وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلًا ناقصًا » ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١/٨٩) ، وانظر كذلك (٨٧ ، ٨٨) من الكتاب ذاته . (طبعة جامعة الإمام) .

(١) في (ط) ، (د) : « في العلوم العقلية » ، وفي (أ) : « في الأمور العقلية » .

(٢) من « الذي يسقيه » حتى « تأثيراته » سقط من (ط) وحدها .

وأيضًا فالمعقولات كالحياة التي بها الأبصار والأسماع ، والقرآن كالمدرك بالسمع والبصر ، وكما أنه من المحال أن يبصر ويسمع الميت قبل أن يجعل اللَّه فيه الروح ، ويجعل له [١] السمع والبصر كذلك من المحال أن يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرعيات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل : ٨٠] الآيتان يعني : آيات السموات والأرض وغيرها .

الإيمان والإسلام والتقوى والبر [٢]

الإيمان : هو الإذعان للحق على سبيل التصديق له باليقين ؛ ولهذا وصف اللَّه تعالى العلم والإيمان بوصف واحد فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] ، ووجل القلب : هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين . هذا هو أصل الإيمان لكن صار اسمًا لشريعة نبينا محمد ﷺ كالإسلام ، وصح أن يطلق على من يظهر ذلك وإن لم يتخصص به اعتقادًا عن يقين [٣] أو ثلج صدر ، كاليهودي في أن أصله منسوب إلى يهود ، والنصراني في أن أصله المنسوب إلى نصران ، وهي قرية ، ثم صارا اسمين للمتخصصين بالشريعتين [٤] .

على أن اشتقاق الإيمان لا يمنع أن يطلق على من يظهره ، فإن المؤمن هو من صار ذا أمن ، وبإظهار الشهادتين يأمن الإنسان من أن يراق دمه ، أو يباح ماله في الحكم ؛ ولهذا قال ﷺ : « **من قال : لا إله إلا اللَّه فقد عصم منَّا دمه وماله إلا بحق** » [٥] ، وروي : « **شهادة أن لا إله إلا اللَّه كلمة جعلها اللَّه بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ،**

(١) النسخة (ط) سقط منها « يبصر ... يجعل له » .

(٢) قد يكون الأولى تقديم الإسلام قبل الإيمان ، ولعل الراغب يقصد مجرد الجمع وعلى أية حال فالأمر موضوع حديث بين علماء العقيدة .

(٣) « عن يقين » سقطت من (ط) .

(٤) النصرانية دين المسيح عليه السلام ، ولعله يقصد قرية « الناصرة » ، التي هي بلد المسيح وهي قرية بالجليل من فلسطين . المعجم الوسيط (٩٣٣/٢) ، واليهود بنو إسرائيل قيل : إنهم سموا كذلك باسم « يهوذا » أحد أبناء يعقوب . المعجم الوسيط (١٠٠٩/٢) .

(٥) ليس باللفظ نفسه ، لكن البخاري أخرج عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على اللَّه** » فتح الباري (٧٥/١) الحديث (٢٥) .

ومن قالها بلسانه ولم تكن في قلبه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على اللَّه » [١] وذلك أنه لا يطلع على القلوب إلا الخالق تعالى .

والشريعة : واردة بأن يطلق اسم الإيمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير فحص عن قلبه ، فلا يتحاشى من إطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافي الإيمان ، بخلاف ما ادعاه بعض المعتزلة فإنه لا يصح إطلاق اسم المؤمن على الإنسان ما لم يختبر في الأصول الخمسة ، ويوقف منه على حقيقة ما عنده [٢] .

والإسلام : هو الاستسلام لما يدعو إليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله .

والملة : القود إلى الطاعة . **والدين** : الانقياد له ، وهما بالذات واحد ، لكن الدين هو الطاعة فيقال : اعتبار بفعل المدعو في انقياده إلى الطاعة ، **والملة** : من أمللت الكتاب ، فيقال اعتبارًا : بفعل الداعي إليها والشارع لها ، ولكونها بالذات واحدًا قال تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ ﴾ [الأنعام : ١٦١] فأبدل الملة من الدين .

والدين أعم من الإسلام ؛ إذ هو يستعمل في الحق والباطل ، والإسلام لا يستعمل إلا في الحق ؛ فلهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

والإحسان : تحري الحسنى في الإيمان والإسلام ؛ ولهذا قال عليه السلام لما قيل له : ما الإحسان ؟ فقال : « **أن تعبد اللَّه كأنك تراه** » [٣] .

والتقوى : جعل النفس وقاية من سخط اللَّه تعالى ، وذلك بقمع الهوى .

والبر : السعة في علم الحق وفعل الخير ، (وهو) مشتق من البر أي : السعة في الأرض ، وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب ، وقال النبي ﷺ : « **البر ما سكنت إليه نفسك واطمأن إليه قلبك ، والإثم ما حاك في نفسك ، وتردد في صدرك** » [٤] ،

---

(١) هذا اللفظ نفسه لم أجده ، لكن معناه موجود في الحديث السابق ، وفي حديث أنس الذي يختلف في اللفظ قليلًا . انظر عمدة القاري (٤/١٢٦) باب فضل استقبال القبلة .

(٢) ذلك أنهم يريدون بالإيمان الذي يبعد عن المنزلة بين المنزلتين ، ويرون ذلك متحققًا في كل معتزلي أو هكذا يجب ؛ ولذلك لا يحمل هذا الاسم إلا من جمع القول بالأصول الخمسة « فإذا أكملت هذه الخصال فهو معتزلي » الخياط : الانتصار (١٢٦) .

(٣) سبق تخريجه ، وهو متفق عليه .

(٤) رواه مسلم بلفظ « **البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس** » . مسلم ، كتاب البر والصلة (٥) حديث (٢٥٥٣) . الترمذي ، الزهد (٥٢) .

وقال : « **البر طمأنينة والشر ريبة** » [(١)] .

ومن البر الجود ؛ ولذلك جعل الجود من الإيمان ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] [(٢)] .

والإخلاص : أن يقصد الإنسان فيما يفعله وجه اللَّه تعالى ، متعريًا عن الالتفات إلى غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، ولقلة وجود ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

ولما كان الإيمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب ، والإسلام بفعل الجوارح ، والتقوى بقمع الهوى ، قال ﷺ : « **الإسلام علانية ، والإيمان في القلب ، والتقوى هاهنا** » [(٣)] ، وأشار إلى صدره .

ولما كان الصدر مقر قوى الإنسان من الفكرة والشهوة والغضب ، قال ﷺ : « **لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه** » [(٤)] .

وقال : « **الإيمان قائد والعقل سائق ، والنفس حرون ، فإن أبى قائدها لم تستقم لسائقها ، وإن أبى سائقها لم تطع قائدها** » [(٥)] .

ولما كان الإيمان والإسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وقال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

---

(١) لم أقف عليه هكذا وإن كان المعنى في أحاديث صحيحة .

(٢) أرى أن الاستشهاد بهذه الآية موضع نظر ؛ لأن معنى حرجًا ، أي : ضيقًا لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ، فالضيق هنا في الأخذ ، وصلته بالجود لا تتأتى إلا على ضرب من التأويل بعيد . تفسير ابن كثير ، تفسير سورة الأنعام .

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٣٥/٣) .

(٤) رواه أحمد في المسند (١٩٨/٣) .

(٥) لم أجده في مظانه ، ويظل هذا مجرد كلام حتى يثبت خلاف ما قلنا .

في الإيمان

اختلف في الإيمان : هل هو الاعتقاد المجرد أم الاعتقاد والعمل معًا ؟ واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم ، فمن قال : هو الاعتقاد المجرد فنظر منه إلى اشتقاق اللفظ وإلى أنه قد فصل بينهما في عامة القرآن ، فعطف العمل عليه كقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الشورى : ٢٢] ؛ ولأن النبي ﷺ فرق بينهما في خبر جبريل حين سأله عن الإسلام وعن الإيمان ، ففسر الأول بالأعمال والثاني بالاعتقاد .

ومن قال : هو الاعتقاد والعمل فلقوله عليه السلام : « **الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان** » [١] .

وكذلك اختلفوا هل يكون في الإيمان زيادة ونقصان ؟ فقال قوم : يكون ذلك فيه لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال : ٢] ، وقوله : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] .

ومن خالفهم قال : الشيء إنما يزيد بغلبته على ضده ، وينقص بغلبة ضده عليه ، قالوا : والإيمان لا يحصل إلا بعد أن يكون غالبًا على الكفر فلا يضامه حتى يقال : إنه غلب عليه .

ولذلك اختلفوا في جواز إطلاق اسم الإيمان على من أقر بالشهادتين ؛ فقال بعضهم : يجوز ذلك نظرًا منه إلى قوله عليه السلام في الجارية التي سألها عن الله فأشارت نحو السماء ، وعن النبوة فأشارت إليه عليه السلام ، فقال : « **اعتقها فإنها مؤمنة** » [٢] ؛ ولأن الإيمان ليس بذي منزلة واحدة ، ومن قال : لا يجوز فنظر منه إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] ، ولما روي عنه عليه السلام أنه قال : « **من قال : أنا مؤمن ؛ فهو فاسق ، ومن قال : أنا عالم ؛ فهو جاهل** » [٣] فإن قيل :

---

(١) ذكر في نهج البلاغة (٣٩٥) ، وذكر صاحب كشف الخفاء مبينًا اختلاف الحكم عليه فقد قيل : بوضعه ، وورد الحكم عليه ، وذكر أن هذا رواه علي بن موسى الرضا ، وإسناده جميعه رواية للأبناء عن الآباء . كشف الخفاء (٢٢/١) حديث (٢٤) ابن ماجه / مقدمة (٩) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب (٧) حديث (٥٣٧) . ورواه برواية أخرى أبو داود في باب الأيمان والنذور (٣٢٨٣) ، ورواه النسائي في الوصايا (٢٥٢/٦) .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف ، وقال ابن حجر في فتاواه : هذا ما ضعف سنده من كلام يحيى بن كثير من صغار التابعين ، قال : ومن رفعه إلى النبي ﷺ فقد وهمه الحفاظ ، وقد ثبت عن كثير من الصحابة وغيرهم قول كل منهم : « أنا عالم » وما كانوا ليقعوا في شيء ذمه النبي الكريم ، وأبلغ من هذا قول يوسف : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] نصب الراية للزيلعي (٣١٨/٣) ، كشف الخفاء (٢٦٩/٢) حديث (٢٥٥٧) .

ما معنى قوله ﷺ : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن** » [١] ؟ قيل : الإيمان ذو منازل كما وصفه عليه السلام .

وإنما يكون الإنسان مؤمنًا بلا مثنوية إذا استوعب منازله كلها ، فتعرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات على قدر طاقة البشر ، ومتى انخرم بعض ذلك خرج هو عما هو ؛ كقولهم : عشرة ؛ في كونه اسمًا لعدد مخصوص إذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه ، ومن شرط الإيمان الكامل ألا يكون زانيًا ولا سارقًا .

في معنى قوله ﷺ : الإيمان بضع وسبعون بابًا [٢]

ثبت الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **الإيمان بضع وسبعون بابًا أعلاها شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق** » [٣] ، وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها علم بالواجب أن الإيمان الواجب هو اثنتان وسبعون درجة لا يصلح أن يكون أكثر منها ولا أقل ، ولا يوجد من الإيمان ما هو خارج عنها بوجه ، وأنه عليه السلام فيما يورده كما وصفه ﷻ بقوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٣ - ٥] .

وبيان ذلك أن الإيمان شيئان : اعتقاد وأعمال :

فالاعتقاد على ثلاث منازل :

يقيني : لا يعتريه شك ولا شبهة بوجه كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وظني : وذلك ما كان عن أمارة قوية ، وأعني بالظن هاهنا ما يفسره أهل اللغة باليقين نحو قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٤٦] .

وتقليدي : وذلك ما يعتقد عن رأي أهل البصائر كما وصفه تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

والأعمال ثلاثة : عمارة الأرض : المعنية بقوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] .

---

(١) رواه البخاري : كتاب الحدود (٦) حديث (٦٧٨٢) . فتح الباري (٨١/١٢) .

(٢) في (ط) : آخر هذا المبحث إلى ما بعد أنواع الجهل ، ولعله هنا أنسب لاتصال الحديث عن الإيمان .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ : « **الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول : لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان** » ، صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب شعب الإيمان ، حديث (٣٥) (ج١ من طبعة دار الإفتاء) .

وعبادة اللّٰه تعالى : المعنية بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وخلافته : المعنية بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وذلك بتحري مكارم الشريعة .

فهذه ستة وكل واحد من هذه إما أن يتحراه الإنسان عن رهبة ، أو رغبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ، أو يتحراه عن إخلاص تطوع واهتزاز نفس ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء : ١٤٦] ، فهذه اثنتا عشرة منزلة .

وكل واحدة من هذه المنازل إما أن يكون الإنسان في مبتدئها أو وسطها أو منتهاها ؛ لأن كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الإنسان فيها من هذه الأحوال الثلاث ؛ ولهذا قال تعالى في الفضيلة : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة : ٩٣] ، وقال في الرذيلة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾ [النساء : ١٣٧] .

فجعل منازل الإيمان ومنازل التقوى ثلاثة كما ترى ، فهذه اثنتا عشرة في ثلاثة تكون ستة وثلاثين .

وكل واحدة من هذه الستة والثلاثين إما أن يتوصل إليها الإنسان من طريق الاجتباء ، أو من طريق الهداية . والاجتباء للأنبياء ومن يليهم من الأولياء وهو : إيثار اللّٰه تعالى بعض عباده بفيض إلهي (و) تأتيهم الحكمة بلا سعي منهم ، وعلى هذا قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ [يوسف : ٦] ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

والاهتداء : للحكماء والعلماء ، وهو توفيق اللّٰه تعالى العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل له منها بقدر ما يتحمل من المشقة . وإياهما عني بقوله تعالى : ﴿ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم : ٥٨] .

فهذه اثنتان وسبعون درجة لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان عنها [١] ، ذلك ما ورد من الأخبار فليس بخارج عنها واللّٰه الموفق :

فمما هو من جملة العبادة قوله ﷺ : « **الوضوء شطر الإيمان** » [٢] ، وقوله : « **الإيمان**

---

(١) هذا مجرد اجتهاد من الراغب الأصفهاني في عدِّ هذه الشعب ، فالبضع في اللغة في رأي من الثلاثة إلى التسعة ، ومن جهة أخرى ذكر ابن حجر والنووي أنه ليس هناك اتفاق على عدِّ هذه الشعب بطريقة موحدة . انظر فتح الباري (٥٢/١) طبعة دار الإفتاء صحيح مسلم بشرح النووي (٣/٢) .

(٢) هذا جزء من حديث رواه ابن ماجه بلفظ : « **إسباغ الوضوء شطر الإيمان** ... » سنن ابن ماجه كتاب الطهارة باب الوضوء / حديث (٢٨٠) مجلد (١) (ص١٠٢) .

الصلاة من فرغ لها قلبه وأقامها بحدودها ووقتها وسننها » [١] .

ومما هو من مكارم الشريعة قوله ﷺ : « **الحياء من الإيمان** » [٢] ، وقال : « **لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد** » [٣] ، وقوله ﷺ : « **ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنفاق من الإقتار ، وإنصاف المؤمن من نفسه ، وبذل السلام** » [٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله** » [٥] ، وقوله ﷺ لأناس من أصحابه : « **ما إيمانكم ؟** » فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر في الرخاء ، ونرضى بالقضاء . فقال ﷺ : « **مؤمنون ورب الكعبة** » [٦] .

في أنواع الجهل

الإنسان في الجهل على أربع منازل :

الأول : من لا يعتقد اعتقادًا لا صالحًا ولا طالحًا ، فأمره في إرشاده سهل ؛ إذ كان له طبع سليم ، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش ، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر ، ويقال له باعتبار العلم النظري : **غُفل** ، وباعتبار العلم العملي : **غُمر** ، ويقال له : **سليم الصدر** .

والثاني : معتقد لرأي فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يترب به ، واستنزاله عنه سهل وإن كان أصعب من الأول فإنه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة ، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف ، ويقال له : **غاوٍ وضال** .

والثالث : معتقد لرأي فاسد قد (ران على قلبه) [٧] ، وتراءت له صحته فركن إليه لجهله وضعف نحيزته [٨] ، فهو ممن وصفه اللّه تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] (فهذا ذو داءٍ أعيا الأطباء فما كل داءٍ له

(١) لم أجد هذا في كتب الحديث ، ويظل مجرد كلام حتى يثبت أهل الحديث له صفة أخرى .

(٢) رواه البخاري . انظر فتح الباري (١/٧٤) . الحديث (٢٤ ، ٦١١٨) طبعة دار الإفتاء بتحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز .

(٣) رواه النسائي عن أبي هريرة بلفظ : « **ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبدٍ أبدًا** » سنن النسائي : الجهاد (٨) (٦/١٤) .

(٤) رواه البخاري ، فتح الباري (١/٨٣) كتاب الإيمان باب إفشاء السلام من الإسلام .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) قال عنه الحافظ العراقي : الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف ، حديث جابر : الإحياء (١٣/١٥) في أدب الفقر والزهد .

(٧) « قد ران على قلبه » سقطت من (ط) . (٨) نحيزته ، أي : طبيعته .

دواء) [1] ، فلا سبيل إلى تهذيبه وتنبيهه ، كما قيل لحكيم يعظ شيخًا جاهلًا : ما تصنع ؟ فقال : أغسل مسحًا لعله يبيض .

والرابع : معتقدًا اعتقادًا فاسدًا عرف فساده ، أو تمكن من معرفته ، لكنه اكتسب دنية لرأسه ، وكرسيًّا لرئاسته ، فهو يحامي عليها فيجادل بالباطل ليدحض به الحق ، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق ، ويقال له : فاسق ومنافق ، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٥] وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٢] فنبَّه تعالى أنهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه ، ولكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال إبليس فيما دعي إليه من السجود لآدم عليه السلام .

والجنون : هو عارض يغمر العقل .

والحمق : قلة التنبه لطريق الحق ، وكلاهما يكونان تارة خلقة وتارة يكونان عارضًا ، وقد عظم الحمق ما لم يعظم الجنون . وقد قصد الشاعر (ذلك) في قوله :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

وقد ذكرت حكاية هي وإن لم تصح فنافع ذكرها ، وهي أن عيسى عليه السلام أتي بأحمق ليداويه فقال : أعياني مداواة الأحمق ، ولم يعيني مداواة الأكمه والأبرص .

ومما يفرق به بينهما أن **المجنون** : يكون غرضه الذي يريده ويؤمه فاسدًا (ويكون سلوكه إلى غرضه صوابًا ، **والأحمق** : الذي يكون غرضه الذي يريده صحيحًا) [2] وسلوكه إليه خطأ ، وبهذا يعرف المجنون : إذا رئي بإرادته قبل سلوكه إلى مراده ، والأحمق : لا يعرف بمراده بل بسلوكه .

ولهذا متى صحت إرادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرًا من فلتات صوابه ، والأحمق لا يكاد يصيب في شيء من مسالكه .

وأما البله : فقلة التنبه على الأمور ، و يضاده **الكيس** ، وقد تقدم أن البله والكيس قد يقالان تارة باعتبار الأمور الدنيوية ، وتارة يكونان [3] بالأمور الأخروية . فمن كان في

---

(١) « فهذا ذو داء أعياء الأطباء ، فما كل داء له دواء » سقطت من (ط) .

(٢) « ويكون سلوكه إلى غرضه صوابًا ، والأحمق الذي يكون غرضه الذي يريده صحيحًا » ، هذا سقط من (ط) ، مع أهميته ؛ لأن الحديث عن الفرق بين المجنون والأحمق .

(٣) « بالأمور الدنيوية وتارة يكونان » سقطت من (ط) مع حاجة التقسيم إليها .

إحداهما كيِّسًا كان في الأخرى أبلهًا ، وقد قال الصديق ﷺ : « أكيس الكيس التقي ، وأحمق الحمق الفجور » [١] .

وأما الرقيع : فالذي يلصق بقلبه كل محال كأنه رقع بذلك .

والأرعن : الذي يأتي بما يخرج عن الصواب ، تشبهًا برعن الجبل وهو الحيد منه .

والأحمق : هو الناقص العقل من قولهم : انحمقت السوق ، أي : نقصت .

والغمارة : قلة التجربة في الأمور العملية ، مع تخيل سليم ، وقد يكون الإنسان غمرًا في شيء غير غمر في شيء آخر .

والخرق [٢] : يقال في الجاهل بالعلوم العملية ، وذلك هو أن يفعل أكثر مما يجب ، أو أقل ، أو على غير النظام المحمود ، وفساد كل عمل لا يعدو هذه الوجوه الثلاثة ، ويضاده الحذق .

والغي : اتباع الهوى وترك ما يقتضيه العقل .

والضلال : أن يقصد لاعتقاد الحق ، أو فعل الجميل ، أو قول الصدق ، فظن بتقصيره وسوء تصوره فيما كان باطلًا أنه حق ، فيعتقده ، أو فيما كان كذبًا أنه صدق فيقوله ، أو فيما هو قبيح أنه جميل ففعله .

والجهل : عام في كل ذلك .

والخب : استعمال الدهاء في الأمور الدنيوية ، صغيرها وكبيرها .

والجربزة : مثله لكن تقال فيما تقتضي الأمور الدينية .

والدهاء : مثله لكن يقال في الأمور العظام إذا أدرك غاياتها ؛ ولهذا قالوا : الدهاة في الإسلام أربعة فذكروا المتوجهين في الاحتيالات (في الأمور الدنيوية) [٣] الذين بلغوا بها أمورًا كبارًا .

ومن الجهل : الكفر ؛ وهو عناد الإنسان للحق على سبيل التكذيب له لا بيقين ، وأصله : ستر [٤] ما جعله اللَّه تعالى للإنسان بفطرته وصبغته من المعارف بما يستعمله

---

(١) انظر : الشعراني « عبد الوهاب » ، الطبقات الكبرى (١٧/١) طبعة (١٣٠٥هـ) مصر .

(٢) في (ط) : « الحذق » ، وقد تكون خطأ طبعيًّا لكنا ننبه عليه ؛ لأنه ضد المعنى المراد من جهة ؛ ولأنه نقل وصور عن هذا الخطأ كثيرًا .

(٣) : « في الأمور الدنيوية » سقطت من (ط) .

(٤) في (ط) : « من سنن » ، والصواب أنها من « ستر » ؛ لأن المعنى على « سنن » يؤدي إلى غير المقصود =

ويتحراه من عناده الحق ، ومن ترك النظر ، والإخلال بتزكية النفس المعني بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] .

كون العلوم مركوزة في نفوس الناس [١]

نفس [٢] الإنسان معدن الحكمة والعلوم ، وهي مركوزة فيها بالفطرة ، مجعولة لها بالقوة ، كالنار في الحجر ، والنخلة في النواة ، والذهب في الحجارة ، وكالماء تحت الأرض ، (لكن كما أن من الماء ما يجري من غير فعل بشريٍّ ، ومنه ما يعاين تحت الأرض) [٣] لكن لا يتوصل إليه إلا بدلو ورشاء ، ومنه ما هو كامن يحتاج في استنباطه إلى حفر وتعب شديد ، فإن عني به أدرك وإلا بقي غير منتفع به ، كذا العلم في نفوس البشر ، منه ما يوجد من غير تعلم بشريٍّ وذلك حال الأنبياء ، فإنه تفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الأعلى ، ومنه ما يوجد بأدنى تعلم ، ومنه ما يصعب وجوده كحال أكثر عوام الناس .

ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] . فنبَّه أنهم أقروا أن اللّٰه هو الذي يربيهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية . فهذا إقرار نفوسهم كلهم بما ركز في عقولهم .

فأما الإقرار باللسان فلم يحصل من كلهم ، وكذا المعني بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، أي : لو اعتبرت أحوالهم لكانت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك ؛ وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فبين أن الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه ، أي : خلقهم عالمين به ، وأن المعاندين وإن قصدوا تبديله وإزالة الناس عنه لم يقدروا عليه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾ [البقرة : ١٣٨] ، وقال تعالى فيمن

= الذي هو بيان معنى الكفر .

(١) في (ط) ، (د) : « العلم » بالإفراد ، « ومركوزًا » كذلك بالتذكير . ومع صغر الفرق إلا أن سياق المبحث يؤكد أنها العلوم كما هو في التفصيل .

(٢) كلمة « نفس » سقطت من (ط) وبعدها ضمائر تعود عليها .

(٣) « لكن كما أن من الماء ما يجري من غير فعل بشرى ، ومنه ما يعاين تحت الأرض » كل هذا سقط من (ط) وموجود في (أ) ، (د) والسياق يؤكد وجوده .

قويت فيه الصبغة والفطرة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] فسمي ذلك كتابًا ، وقال ﷺ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » (١) ، وأما الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان :

ضرب : أجالوا خواطرهم فيها حتى أدركوا حقائقها فصاروا كمن حملوا الشهادة فنسوها ، ثم تذكروها ؛ ولذلك قال تعالى في غير موضع : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢١] ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وضرب : أهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٣] فهم في الجهالة يتسكعون ، وعلى هذا حثنا اللّٰه تعالى على التذكر بقوله : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ [المائدة : ٧] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، أي : يسرنا القرآن ليكون سببًا تتوصلون به إلى تذكر ما سبق من عهدكم ، والتذكر على أضرب :

الأول : أن يكون في اللسان عن صورة ما حصل في القلب .

والثاني : أن يكون بالقلب كصورة حصلت عن شيء معهود إما بالبصر أو بالبصيرة أو غيره من المشاعر .

والثالث : أن يكون عن صورة متضمنة بالفطرة في الإنسان ، وهو المشار إليه بهذه الآيات ، ومن هذا الوجه قال الحكماء : التعلم ليس يجلب إلى الإنسان شيئًا من خارج في الحقيقة ، وإنما يكشف الغطاء عما حصل في النفس فيبرزه بجلائه ، فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الأرض ، وكالصيقل الذي يبرز الجلاء في المرآة ، وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله .

حصر أنواع المعلومات

أنواع العلم ثلاثة :

نوع يتعلق باللفظ ، ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ، ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ .

فأما ما يتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الألفاظ بوسائط المعاني ، **وذلك ضربان** :

أحدهما : حكم ذوات الألفاظ ، وهو علم اللغة .

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة . مسلم : كتاب القدر (٦) حديث (٢٦٥٨) .

والثاني : حكم لواحق الألفاظ وذلك شيئان : شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق ، وعلم النحو ، وعلم التصريف ، وشيء يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافي .

وأما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة أضرب : علم البراهين ، وعلم الجدال [1] ، وعلم الخطابة ، وعلم البلاغة ، وعلم الشعر .

وأما النوع المتعلق بالمعنى فضربان : علمي ، وعملي . **فالعلمي** : ما قصد به أن يعلم فقط ، وذلك معرفة الباري تعالى ، ومعرفة النبوة ، ومعرفة الملائكة ، ومعرفة يوم القيامة ، ومعرفة العقل ، ومعرفة النفس ، ومعرفة مبادئ الأمور ، ومعرفة الأركان ، ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين والنجوم ، ومعرفة طبائع النبات ويقال له : علم الفلاحة ، ومعرفة طبائع الحيوانات ، ومعرفة طبائع الإنسان ويقال : علم الطب .

وأما العملي : وهو ما يجب أن يعلم ثم يعمل به ويسمى تارة السنن والسياسات ، وتارة الشريعة ، وتارة أحكام الشرع ومكارمه ، وذلك حكم العبادات ، وحكم المعاملات ، وحكم المطاعم وحكم المناكح ، وحكم المزاجر [2] .

والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب :

الأول : المستفاد من بديهة العقل ومصادمة الحس وذلك يحصل لكل من لم يكن موقوف الآلة وإن اختلفت أحوالهم في ذلك .

الثاني : المستفاد من جهة النظر إما بمقدمات عقلية أو بمقدمات محسوسة .

الثالث : المستفاد بخبر الناس إما بسماع من أفواههم أو بالقراءة من كتبهم ، ولا يكون الخبر علمًا إلا إذا كانت المظنة عن المخبر به مرتفعة .

الرابع : ما كان عن الوحي إما بلسان ملك مرئي ، كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

---

(١) لم يذكر صاحب كشف الظنون علمًا يسمى علم البراهين وإن ذكر تحت اسم البرهان عديدًا من الكتب في فروع مختلفة ، أما الجدل فيذكره على أنه فرع من علم النظر لكن خص بالعلوم الدينية ، ولا يبعد أن يكون علم المناظرة هو المقصود كما يرى ابن خلدون ، والجدل قد يصرف إلى معنى غير إسلامي كما هو عند السوفسطائيين ولكنه عند المسلمين يضبط بضوابط آداب البحث والمناظرة . انظر : كشف الظنون (١/٥٨٠) ، منشورات مكتبة المثني ببغداد - دون تاريخ .

(٢) ليس هناك في الإسلام ما يتعلم لمجرد العلم به ، بل حتى معرفة الصفات الإلهية لها غاية عملية هي التقديس والتقدير ؛ ولتمثلها قدر طاقة البشر ؛ إذ هذا معاني من معنى الخلافة كما سبق أن ذكرنا .

ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤] وإما بسماع كلامه تعالى من غير مصادفة عين كحال موسى عليه السلام ، وإما بإلقاء في الروع في حال اليقظة ، كما قال عليه السلام : « **إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عمر** » [(١)] ، وإما بالمنام وهو المعني بقوله عليه السلام : « **الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة** » [(٢)] ، وينطوي على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : ٥١] .

ما يعرف به فضيلة العلم [(٣)]

فضيلة العلم تعرف بشيئين : **أحدهما** : بشرف ثمرته ، **والآخر** : بوثاقة دلالته ، وذلك كشرف علم الدين على علم الطب فإن ثمرة علم الدين الوصول إلى الحياة الأبدية ، وثمرة علم الطب الوصول إلى الحياة الدنيوية المنقطعة ، وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحي ، وأصول الطب أكثرها مأخوذ من التجارب ، ورب علم يوفي على غيره بأخذ الوجهين ، وذلك الغير يوفي عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فللطب شرف الثمرة ؛ إذ هو يفيد الصحة ، وللحساب وثاقة الدلالة ؛ إذ كان العلم به ضروريًّا غير مفتقر إلى التجربة ، وليس يجب أن يحكم بفساد علم لخطأ وقع من أربابه كصنع العامة إذا وجدوا من أخطأ في مسألة ما حكموا على صناعته بالفساد ، وإذا رأوا من أصاب في مسألة حكموا على صناعته بالصحة ، وذلك عادتهم في الطب والتنجيم ، فيعتبرون الصناعة بالصانع خلاف ما قال أمير المؤمنين علي كرم اللّه وجهه : « يا حار ، ملبوس عليك الحق ، إن الحق لا يعرف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله » [(٤)] ، وليس يدرون أن الصناعة مبنية على شيء روحاني ، والمتعاطي لها يباشرها بجسم وطبع يضامها العجز ، فهو خليق بوقوع الخطأ منه ، ثم إن الإنسان قد ينتحل ما لا يحسنه ، ويتذرع بدعوى ما لم تجز آلته ، ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعي لصناعته ما ليس في طبعها ككثير من المنجمين المدعين ما لا يوجد في التنجيم ، فإذًا لا اعتبار بدعاوى الناس .

(١، ٢) سبق تخريجه .

(٣) في (ط) ، (د) : « العلوم » ، والإفراد هنا يناسب ما جاء في المبحث نفسه .

(٤) موجود في نهج البلاغة في هذا المعنى : « إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه ، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه » نهج البلاغة (٣٩٩) .

استحسان معرفة أنواع العلوم

حق الإنسان ألا يترك شيئًا من العلوم أمكنه النظر فيه ، واتسع العمر له إلا ويخبر بشمه عرفه وبذوقه طيبه ، ثم إن ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فبها ونعمت ، وإلا لم يبصر - لجهله بمحله وغباوته عن منفعته - إلا معاديًا له بطبعه .

فمن يك ذا فم مر مريض   يجد مرًّا به الماء الزلالا (١)

ومن جهل شيئًا عاداه ، فالناس أعداء ما جهلوا ، بل قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] .

وقد حكي عن بعض فضلاء القضاة أنه رئي بعدما طعن في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة ، فقيل له في ذلك . فقال : وجدته علمًا نافعًا فكرهت أن أكون لجهلي به معاديًا له .

ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم ، بل يجب أن يجعل لكل واحد حظه الذي يستحقه ، ومنزلته التي يستوجبها ، ويشكر من هداه لفهمه ، وصار سببًا لعلمه ، فقد حكي عن بعض الحكماء أنه قال : يجب أن نشكر آباءنا الذين ولدوا لنا الشكوك ؛ إذ كانوا أسبابًا لما حرك خواطرنا للنظر في العلم ، فضلًا عن شكر من أفادنا طرفًا من العلم ، ولولا مكان فكر من تقدمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن معرفة مصالح دنياهم فضلًا عن مصالح أخراهم .

فمن تأمل حكمة اللَّه تعالى في أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين ، مركبًا على وجه يتوافى حداهما على نمط واحد للقرض أكثر تعظيم اللَّه وشكره ، وقال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ [الزخرف : ١٣] .

معاداة بعض الناس لبعض العلوم

العلم طريق إلى اللَّه تعالى ذو منازل ، وقد وكل اللَّه تعالى بكل منزل فيها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو ، فمن منازله معرفة اللغة التي عليها بني الشرع ، ثم حفظ كلام رب العزة ، ثم سماع الحديث ، ثم الفقه ، ثم علم الأخلاق والورع ، ثم علم المعاملات ، وما بين ذلك من الوسائط ، من معرفة أصول البراهين والأدلة ؛ ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٣] ،

---

(١) هو للمتنبي في ديوانه (١٤١) .

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وكل واحد من هؤلاء الحفظة إذا عرف مقدار نفسه ومنزلته ، ووفَّى حق ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من اللَّه تعالى أن يحفظ مكانه ثوابًا على قدر عمله .

لكن قل ما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته ، وشره في مكسبه ، وطالب لرئاسته ، وجاهل معجب بنفسه ، يصير لأجل تنفيق سلعته صادفًا عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائبًا له ؛ فلهذا ترى كثيرًا ممن حصل في منزل من منازل العلم دون الغاية عائبًا لما فوقه ، وصارفًا عنه من رامه ، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل ، وإلَّا نفر الناس عنه بوجه آخر ، فهو ممن قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] .

ولا أرى من هذا صنيعة إلا من الذين وصفهم اللَّه تعالى بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٣] .

وذكر الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المسألة ، وقال : إذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكره اللَّه تعالى بقوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المائدة : ٣٣] . فما الظن بما يستحقه من العقوبة من يقطع الطريق على المسافرين إلى اللَّه ؟ .

وحكي عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال : يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ، ولم تدعوا غيركم يدخلها ، (مثلكم كمثل الصخرة وقفت في طريق الماء لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع) [١] ، وكشجرة الدفلى يروق من نظر إليه ويقتل من أكله .

الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه

من كان قصده الوصول إلى جوار اللَّه تعالى فليتوجه نحوه ، كما قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، وكما أشار إليه النبي ﷺ بقوله : « **سافروا تغنموا** » [٢] .

فحقه أن يجعل أنواع العلوم كزاد موضوع في منازل السفر ، فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة ، ولا يعرج على تقصِّيه [٣] واستفراغ ما فيه ، فتقصِّي الإنسان نوعًا واحدًا من

(١) من « مثلكم كمثل الصخرة » حتى « إلى الزرع » سقط من (ط) ، (د) .

(٢) للطبراني والحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ : « سافروا تصحوا وتغنموا » ، وروي من طرق أخرى بلفظ : « سافروا تصحوا واغزوا تغنموا » كشف الخفاء (١/٤٥٥) حديث (١٤٥٥) ، ومسند أحمد (٢/٢٨٠) .

(٣) في (ط) : « على نقيضه » ، والخطأ هنا ولو كان طبعيًا له أثره في تفسير المعنى .

العلوم على الاستقصار يستفرغ عمرًا ، بل أعمارًا ، ثم لا يدرك قعره ولا يسبر غوره .

وقد نبهنا الباري سبحانه على أن نفعل ذلك بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر : ١٨] ، وقال علي كرم اللّٰه وجهه : « العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه » (١) وقال الشاعر :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم في العين فضل ولكن ناظر العين

فقد قيل : حل طبعك بالعيون والفقر (٢) فالشجرة لا يشينها قلة الحمل إذا كانت ثمرتها نافعة ، ويجب ألا يخوض الإنسان في فن حتى يتناول من الفن الذي قبله على الترتيب بلغته ، ويقضي منه حاجته ، فازدحام العلم في السمع مضلة للفهم ، وعلى هذا قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، أي : لا يجاوزون فنًّا حتى يحكموه علمًا وعملًا .

ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب ، فإن كثيرًا من الناس ثكلوا الوصول بتركهم الأصول .

وحقه أن يكون قصده من كل علم يتحراه التبلغ به إلى ما فوقه حتى يبلغ النهاية ، والنهاية من العلوم النظرية معرفة اللّٰه تعالى على الحقيقة المصدوقة ، والعلوم كلها خدم لها وهي حرة .

وقد روي أنه رئي صورة حكيمين من القدماء المتألقين في بعض مساجدهم ، وفي يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت شيئًا حتى تعرف اللّٰه تعالى ، وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفي يد الآخر : كنت قبل أن أعرف اللّٰه تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

بل قد قال اللّٰه تعالى ما أشار به إلى ما هو أبلغ من حكمة كل حكيم : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٩١] ، أي : اعرفه حق المعرفة ، ولم يقصد بذلك أن يقول ذلك قولًا باللسان اللحمي ، فذلك قليل الغناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية ، وعلى

---

(١) موجود في غرر الحكم ودرر الكلم (٢٩) ما نصه : « العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل علم أحسنه » ، ونسبها صاحب أصول التشريع الإسلامي لابن سينا . انظر : الشيخ علي حسب اللّٰه أصول التشريع (ص١) .

(٢) في النسخة (أ) ، (د) : هي هكذا « بالعيون والنقر » ، وفي (ط) : « بالعيون والنظر » ، ولعل الصواب الذي يناسب المعنى « بالعلوم والنظر » . المحقق .

ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « **من قال : لا إله إلا الله ، مخلصًا دخل الجنة** » [١] .

ويجب أن لا يتعرى علمه عن مراعاة العمل فيه بنفع ، ألا ترى أنه ما أخلي ذكر الإيمان في عامة القرآن من ذكر العمل الصالح ، نحو قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الكهف : ١٠٧] ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقيل : كثرة العلم من غير العمل مادة الذنوب ، وقيل : العلم أس والعمل بناء ، والأس بلا بناء باطل ، وقال حكيم لرجل يستكثر من العلم دون العمل : يا هذا إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمن تقاتل به ؟ ! وقد قال الشاعر ما يصلح أن يكون إشارةً إلى هذا المعنى :

فعلام إن لم أشف نفسًا حرة ... يا صاحبي أجيد حمل سلاحي

أحوال الناس في استفادة العلم وإفادته

كما أن الإنسان في مقتنياته أربعة أحوال : **حال استفادة** : فيكون مكتسبًا ، **وحال ادخار لما اكتسبه** : فيكون به غنيًّا عن المسألة ، **وحال إنفاق على نفسه** : فيصير به منتفعًا ، **وحال إفادة لغيره** : فيصير به سخيًّا ، كذا أيضًا له في العلم أربعة أحوال :

حال استفادة ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير وتعليم .

ومن أصاب مالًا [٢] فانتفع به ، ونفع مستحقيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة ، وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب ، وهذا أشرف المنازل . ثم بعده من استفاد علمًا فاستبصر به .

فأما من أفاد غيره علمه ولم ينتفع هو به فهو كالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادمها ، وكالمسن يشحذ ولا يقطع ، وكالمغزل يكسو ولا يكتسي ، وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضيء لغيرها ، ومن استفاد علمًا ولم ينتفع به هو ولا غيره فإنه :

كالنخل يشرع شوكًا لا يذود به ... عن حمله كف جان وهو منتهب

---

(١) جزء من حديث قال عنه الحافظ العراقي : رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن ، وله شاهد من حديث أبي ذرٌّ . مسلم : كتاب الإيمان ، باب (٤٠) حديث (٩٤) ، الترمذي : الدعوات ، حديث (٣٥٨٤) ، كشف الخفاء (٢/٢٦٩) .

(٢) كلمة « مالًا » وردت في جميع النسخ هكذا ، ولعل الصواب « علمًا » ؛ وذلك لأن المثل المضروب بعدها يرشح أنها « علمًا » ؛ ولأن قوله : « ثم بعده من استفاد علمًا فاستبصر به » يؤكد أن التقسيم من استفاد وأفاد ، ثم من استفاد ولم يفد ، ثم من أفاد ولم يستفد ، ثم من لم يستفد ولم يفد هذا فضلًا عن أن ترتيب درجة الذي تعلم واستبصر لا تجيء بعد من ملك مالًا فنفع وانتفع .

ما يجب على المتعلم أن يتحراه

حق المترشح لتعلم الحقائق أن يراعي ثلاثة من الأمور :

الأول : أن يطهر نفسه من رديء الأخلاق تطهير الأرض للبذر من خبائث النبات ، وقد تقدم أن الطاهر لا يسكن إلا بيتًا طاهرًا ، وأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب .

الثاني : أن يقلل من الأشغال الدنيوية ليتوفر زمانه على العلوم الحقيقية :

فما صاحب التطواف يعمر منهلًا وربعًا إذا لم يخل ربعًا ومنهلا

وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

والفكرة متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه ، فيتنشفه الجو وتشربه الأرض ، فلا يقع به نفع ، وإن جمع بلغ المزدرع فانتفع به .

والثالث : ألا يتكبر على معلمه ولا على العلم ، فالعلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي ؛ ولهذا قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إيَّاك بعضه على خطر ، وكأنما إيَّاه عني من قال :

خدم العلا فخدمنه وهي التي لا تخدم الأقوام ما لم تخدم

ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كأرض دمثة نالت مطرًا غزيرًا فتلقته بالقبول لم ينتفع به . فحقه أن يضرع له ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] ، أي : لمن له بنفسه علم يستغنى به ، أو تذلل لاستماع العلم واقتباسه ممن عنده العلم ، وقال بعض العلماء في قوله ﷺ : « **اليد العليا خير من اليد السفلى** » (١) إشارة إلى فضل المعلم على المتعلم ، وفي تبين فضل المعلم حث للمتعلم على الانقياد له .

وكما أن من حق المريض أن يكل إلى الطبيب الناصح الذي وقف على دائه ليطلب الطبيب دواءه وغذاءه ، فإنه إن اشتهى لم يشته إلا ما فيه داؤه ولم يجتوِ إلا ما فيه شفاؤه :

فمن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

كذلك من حق المتعلم إذا وجد ناصحًا أن يأتمر له ، ولا يتأمر ، عليه ولا يراده فيما

(١) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الزكاة (٢٤) حديث (١٤٢٧ ، ١٤٢٩) ، وفتح الباري (٣/١٤) .

ليس بصدد تعلمه ، وكفى على ذلك تنبيهًا ما حكى اللَّه تعالى عن العبد الصالح أنه قال لموسى عليه السلام حيث قال له : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] ، ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (١) [الكهف : ٧٠] فنهاه عن مراجعته وليس ذلك نهيًا عما حث اللَّه تعالى عليه بقوله : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، وإنما هو نهي عن نوع من العلم الذي لم تبلغه منزلته بعد ، والحث إنما هو على سؤال عن تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي هو بصدد تعلمه ، وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغي إلى الاختلافات المشككة والشبه الملتبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده ؛ لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيه فيؤدي ذلك به إلى الارتداد ؛ ولذلك نهى اللَّه تعالى من لم يكن قد تقوّى في الإسلام عن مخالطة الكفار فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [آل عمران : ١١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ [المائدة : ٧٧] ، ومن أجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع ؛ لئلا يغووهم ، فالعامي إذا خلا بذوي البدع كالشاة إذا خلا بها السبع ، وقال بعض الحكماء : إنما حرم اللَّه تعالى في الابتداء لحم الخنزير ؛ لأنه أراد تعالى أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا يشككونهم في دينهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى ، فحرم على المسلمين ذلك ؛ إذ هو معظم مأكولاتهم ، وعظم الأمر في تناوله ومسه لينتهي المسلمون عن الاجتماع معهم في المؤاكلة والأنس ، وقال عليه السلام في المؤمن والكافر : « **لا تتراءى ناراهما** » (٢) لذلك فأما الحكيم فإنه لا بأس بمجالسته إياهم فإنه جارٍ مجرى سلطان ذي عدة وأجناد وعتاد لا يخاف عليه العدو حيث ما توجه ؛ ولهذا جوز له الاستماع إلى الشبهة ، بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم ، والعالم أفضل المجاهدين (الذابين عن الدين) (٣) ، فالجهاد جهادان جهاد بالبنان وجهاد بالبيان ، ولما تقدم سمَّي اللَّه تعالى الحجة سلطانًا في غير موضع من كتابه كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان : ١٩] .

---

(١) والآية بها خطأ طبعي في (ط) وننبه إليه للأهمية .

(٢) قال عنه العراقي في الإحياء : رواه أبو داوود والترمذي من حديث جرير : « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » . قالوا : يا رسول اللَّه ولم ؟ قال : « **لا تتراءى ناراهما** » رواه النسائي مرسلًا ، وقال البخاري : الصحيح أنه مرسل .

(٣) « الذابين عن الدين » سقطت من (ط) .

ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين منه

حق المعلم أن يجري متعلميه مجرى بنيه فإنه في الحقيقة لهم أشرف من الأبوين ، كما قال الإسكندر وقد سئل : أمعلمك أكرم عليك أم أبوك ؟ فقال : بل معلمي ؛ لأنه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية ، وقد نبّه النبي ﷺ على ذلك بقوله : « **إنما أنا لكم مثل الوالد** » (١) فحق معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي ﷺ ؛ إذ هو في إرشاد الناس خليفته فيشفق عليهم إشفاقه ويتحنن عليهم تحننه ، كما قال تعالى في وصفه عليه السلام : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وأي عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته ، ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجودًا ، وإن فقد شخصه كما قال أمير المؤمنين علي كرم اللّه وجهه : « العلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة » (٢) ، وقال بعض الحكماء في قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٥ ، ٦] ، أنه سأله نسلًا يورثه علمه لا من يورثه ماله فأعراض الدنيا أهون عند الأنبياء من أن يشفقوا عليها ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ [مريم : ٥] ، أي : خفت أن لا يراعوا العلم ، وعلى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « **العلماء ورثة الأنبياء** » (٣) ، وكما أن من حق أولاد الأب الواحد أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا ، كذلك من حق بني العلم الواحد ، بل الدين الواحد أن يكونوا كذلك ، فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وحق العالم أن يصرف من يريد إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب ، فالتعريض أبلغ من التصريح لوجوه :

أحدها : أن النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعنى يميل إلى التعريض شغفًا

---

(١) رواه أبو داوود ، والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة . انظر أبو داود النسائي ، ابن ماجه : كتاب الطهارة ، إحياء علوم الدين (١/٦) « طبعة الحلبي » .

(٢) نهج البلاغة (٣٨٦) .

(٣) قال عنه ابن حجر في شرح البخاري : طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم مصححًا من حديث أبي الدرداء ، وحسنه حمزة الكتابي وضعفه عندهم سنده ، لكن له شواهد يتقوى بها ، ولم يفصح المصنف بكونه حديثًا فهو لا يعد في تعاليقه ، ولكن إيراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلًا . ا هـ . فتح الباري (١/١٦٠) كتاب العلم .

باستخراج معناه بالفكر ؛ ولذلك قيل : رب تعريض أبلغ من تصريح .

الثاني : أن التعريض لا تنتهك به سجوف الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة .

والثالث : أنه ليس للتصريح إلا وجه واحد ، وللتعريض وجوه ، فمن هذا الوجه يكون أبلغ ، ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثير من الشروط المقتضية للثواب والعقاب نحو قول اللّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] .

والرابع : أن للتعريض عبارات مختلفة فيمكن إيراده على وجوه مختلفة ، ولا يمكن إيراد التصريح إلا على وجه واحد ؛ إذ ليس له إلا عبارة واحدة .

والخامس : أن صريح النهي داعٍ إلى الإغراء ؛ ولذلك قال من قال : فإن اللوم إغراء ، وقال الشاعر :

دع اللوم إن اللوم يغري وإنما ... أراد صلاحًا من يلوم فأفسدا

وقال النبي ﷺ : « **لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا : ما نهينا عنه إلا وفيه شيء** » (١) وكفى ذلك شهادة ما كان من أمر آدم عليه السلام وحواء في نهي اللّه تعالى إياهما عن أكل الشجرة .

ومن حق المعلم مع من يفيده العلم أن يقتدي بالنبي ﷺ فيما علمه اللّه تعالى حيث قال : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الشورى : ٢٣] ، فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيد علمًا ثوابًا لما يوليه ، وليعلم أن من باع علمًا بعرض دنيوي فقد صادم اللّه تعالى في حكمه ، وذلك أن اللّه تعالى جعل المال خادمًا للمطاعم والملابس جعلها خادمة للبدن ، وجعل البدن خادمًا للنفس ، وجعل النفس خادمًا للعلم ؛ فالعلم مخدوم غير خادم ، والمال خادم غير مخدوم . فمن جعل العلم ذريعة إلى اكتساب المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم خادمًا (لما هو خادم غير مخدوم) (٢) .

---

(١) شائع على الألسنة بلفظ : « **لو منع الناس** » إلى آخر اللفظ . قال الحافظ العراقي في الإحياء : لم أجده ، وقال القاري : ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ، وقول الشيطان : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] ، كشف الخفاء (٢/١٦٢) حديث (٢١١٥) .

(٢) « لما هو خادم غير مخدوم » سقطت من (ط) ، وهي توضح المعنى وتحدده .

وجوب منع الجهلة عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر أفهامهم

واجب على الحكيم والعالم النحرير أن يقتدي بالنبي ﷺ فيما قال : « **يا معشر الأنبياء ، أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم** » [(١)] ، وأن يتصور ما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم اللَّه وجهه - حيث قال لكميل بن زياد ، وأومأ بيده إلى صدره فقال : « إن هاهنا علومًا جمَّة لو وجدت لها حملة بلى أصيبت لقنًا غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا ، فستظهر بنعمة اللَّه تعالى على عباده ، وبحجته على كتابه ، أو منقادًا لأهل الحق لا بصيرة له يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة » [(٢)] ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « **كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب اللَّه ورسوله** » [(٣)] ، وقال عليه السلام : « **ما أحد يحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم** » [(٤)] ، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع ، وقد قيل تصفح طلاب حكمك كما تتصفح خطاب حرمك ، وبهذا ألم أبو تمام فقال :

وما أنا بالغيران من دون جيرتي ‏ ‏ ‏ إذا أنا لم أصبح غيورًا على العلم

وقيل لبعض الحكماء : ما بالك لا تطلع أحدًا على حكمة يطلبها منك ، فقال : اقتداءً بالباري - جلَّ وعلا - حيث قال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ

---

(١) النصف الأول منه يقويه حديث عائشة . رواه مسلم في مقدمة صحيحه ، وذكره غيره عنها ، وذكره بعضهم عن غير عائشة ، وحديث عائشة حسن ، وقال الحاكم عنه : حديث صحيح . وأما النصف الآخر فيشهد له : « **أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم** » ، روي عن ابن عباس بسند ضعيف لكن يشهد له ما في البخاري عن علي موقوفًا : « **حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب اللَّه ورسوله** » وما في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود « ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .
انظر البخاري : كتاب العلم (٤٩) حديث رقم (١٢٧) ، فتح الباري (٢٢٥/١) .
مسلم (٦/١) ، ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٥١٥٠/١) .

(٢) والعبارة في (ط) غير دقيقة والصواب ما هنا . انظر نهج البلاغة (٣٨٦) ، ابن الجوزي : صفة الصفوة (٣٢٣/١) ، أبو نعيم : الحلية (٨٤/١) .

(٣) البخاري : كتاب العلم (٤٩) . حديث (١٢٧) .

(٤) مسلم (١) ، (ص٦) ، درء تعارض العقل والنقل (٥٠/١) .

لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] فبين أنه إنما منعهم لما لم يكن فيهم خير، وبين أن في إسماعهم ذلك مفسدة لهم وسأل جاهل حكيمًا عن مسألة من الحقائق فأعرض عنه ولم يجبه؛ فقال له: أما سمعت قول النبي ﷺ: « **من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة** »[1] فقال: بلى سمعته، أترك اللجام هاهنا وأذهب فإذا جاء من ينفعه ذلك وكتمته فليلجمني به، وقال بعض الحكماء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥] أنه نبه به على هذا المعنى وذلك أنه لما منعنا من تمكين السفيه من المال الذي هو عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر تفاديًا أنه ربما يؤديه إلى هلاك دنيوي فلأن يمنع من تمكينه من حقائق العلوم التي إذا عرفها السفيه أدته إلى ضلال وإضلال، وهلاك وإهلاك[2] - أحق وأولى فإنه:

إذا ما اقتنى العلم ذو شرة تضاعف ما ذم من مخبره
وصادف من علمه قوة يصول بها الشر في جوهره

وكما أنه واجب على الحكام إذا وجدوا من السفهاء رشدًا أن يرفعوا عنهم الحجز ويدفعوا إليهم أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦] فواجب على الحكماء إذا وجدوا من المسترشدين قبولًا أن يبذلوا العلوم لهم بقدر استحقاقهم؛ فالعلم قنية يتوصل بها إلى الحياة الأبدية، كما أن المال قنية يتوصل بها في المعونة على الحياة الدنيوية، وباذل العلم لمن لا يستحقه يستوجب عقوبة، ومانعه عن أهله يستوجب عقوبات؛ ولذلك قال اللَّه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون من تقيد من العامة بقيد الشرع بحسب حاله[3] لا يصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك إلى انحلاله عن قيده، ثم لا يمكن أن يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور.

---

(١) روي هذا الحديث بألفاظ مختلفة وإن تقاربت، والمعنى متفق. ورواية مسلم عن أبي هريرة: « من سئل عن علم، ثم كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ». مسلم: كتاب العلم. الترمذي كتاب العلم (٣) حديث (٢٦٤٩)، ابن ماجه مقدمة باب (٢٤). حديث (٢٦١)، ويلاحظ أن النسخ التي بين أيدينا اختلفت في رواية الرواية، وقد وضح سبب ذلك.

(٢) « وهلاك وإهلاك » سقطت من (ط).

(٣) في (ط)، (د): « فحسنت حاله »، ولكن المعنى لا يرشح ذلك وإلا فأين جواب الشرط ؟.

ومن كان اشتغاله بعمارة الأرض من بين تجارة أو مهنة فحقه أن يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج إليه [١] من هو في مرتبته في عبادة اللّٰه العامية ، وأن تملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن ولا تولد له الشُّبه والشكوك .

فإن اتفق لبعضهم اضطراب نفس إما : بانبعاث شبهة تولدت له ، أو ولدها له ذو بدعة دفع إليه فتاقت نفسه إلى معرفة حقيقتها ، فحقه أن يختبر أولًا ، فإن وجد ذا طبع للعلم موافق وفهم ثاقب وتصور صائب خُلِّيَ بينه وبين التعلم ، وسوعد عليه بما يوجد من السبيل إليه ، وإن وجد شريرًا في طبعه أو ناقصًا في فهمه منع أشد المنع ، ففي اشتغاله بما لا سبيل له إلى إدراكه مفسدتان :

١ - تعطله عما يعود بنفع منه إلى العباد والبلاد .

٢ - واشتغاله بما يثير منه شبهة ، وليس فيه له منفعة ، وقد كان بعض الأمم المتقدمة إذا ترشح أحد منهم ليتخصص بمعرفة الحكم وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة إلى الخاصة اختبر ، فإن لم يوجد خيرًا في خلقه أو (وجد) غير متهيأ للتعلم منعه أشد المنع ، وإن وجد خيرًا ومتهيأ للتعلم شورط على أن يقيد بقيد في دار الحكمة .

ويمنع أن يخرج حتى يحصل له العلم أو يأتي عليه الموت ، ويزعمون أن من شرع في حقائق العلوم ، ثم لم يبرع فيها تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالًا مضلًّا فيعظم على الناس ضرره وبهذا النظر قيل : نعوذ باللّٰه من نصف متكلم .

وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة إهمال ذلك

لا شيء أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم ، فمن الإخلال بها ينتشر الشر ويكثر الأشرار ، ويقع بين الناس التباغض والتنافر ، وذلك أن السواس أربعة :

الأنبياء : وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم .

والولاة : وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم .

والحكماء : وحكمهم على بواطن الخاصة .

والوعاظ : وحكمهم على بواطن العامة .

وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة ، وتسوس الخاصة العامة ، وفساده في عكس ذلك ، ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ ،

(١) في (ط) : « ما هو » ، والصواب « من » ؛ لأنها للعاقل كما يقول النحاة .

وترشح قوم للزعامة في العلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلهم بدعًا استغروا بها العامة ، واستجلبوا بها منفعة ورياسة ، ووجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم ، وقرب جوهرهم منهم ، فكل قرين إلى شكله كأنس الخنافس بالعقرب ، وفتحوا بذلك طرقًا منسدة ، ورفعوا بها ستورًا مسبلة ، وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيهم من الشرة ، فبدَّعوا العلماء وكفروهم اغتصابًا لسلطانهم ومنزاعة في مكانهم ، فأغروا بهم أتباعهم حتى وطؤوهم بأخفافهم وأظلافهم فتولد من ذلك البوار والجور العام .

ذكر من يصلح لوعظ العامة

لا يصلح الحكيم لوعظ العامة لا لنقص في الحكيم ، بل لنقص في العامي[1] فلن ترى الشمسَ أبصارُ الخفافيش ، وأيضًا فبين الحكيم والعامي من تنافي طبعيهما وتنافر شكليهما من النفار قريب مما بين الماء والنار والليل والنهار ، وقد قيل لسلمة بن كهيل ما لعلي ﷺ رفضته العامة وله في كل خير ضرس قاطع ؟ فقال : لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره ، والناس إلى أشكالهم أميل ، وبهذا النظر لما قال جاهل لحكيم : إني أحبك ، فقال له : نعيت إليَّ نفسي ، فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : لأنه إن صدق فليس ميله إليَّ إلا لنقيصة بدت من نفسي لنفسه فأنست بها ، وعلى هذا قول الشاعر :

لقد زادني حبًا لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير عاقل

فحق الواعظ أن تكون له مناسبة إلى الحكماء ليقدر على الاقتباس عنهم والاستفادة منهم ، ومناسبة إلى الدهماء حتى يقدروا بها على الأخذ منه كالوزير للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك ، وتواضع السوقة ليصلح أن يكون واسطة بينه وبينهم ، وكالنبي الذي جعله اللّه من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ عن الملك ويمكن البشر أن يأخذوا عنه ، وإلى هذا أشار تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام : ٩] تنبيهًا أنه ليس في وسعهم التلقي عن الملك ما لم يتجسم فيصير في صورة رجل . فإذن حق الواعظ أن تكون له نسبة إلى الحكيم ونسبة إلى العامة يأخذ منه ويعطيهم ، كنسبة الغضاريف إلى اللحم والعظم جميعًا ، ولولاها لما أمكن العظم أن يكتسب الغذاء من اللحم ، وهذا مما إذا تؤمل اطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة .

---

(١) في (ط) : اضطراب يخل بالمعنى ؛ إذ الموجود فيه : « لا يصلح الحكيم إلا لنقص الحكيم لا لنقص العامي » ومن عجب أن يصور هذا في عدة طبعات .

الحال التي يجب أن يكون الواعظ عليها [(١)]

حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ، ويُبْصر ثم يُبَصِّر ، ويهتدي ثم يهدي ، ولا يكون كدفتر يفيد ولا يستفيد ، وكمسن يشحذ ولا يقطع ، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده ، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر مما تفيد ، ويجب أن لا يجرح مقاله بفعاله ، ولا يكذب لسانه بحاله ، فيكون ممن وصفهم اللّه تعالى بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥] ، ونحو ما قال علي كرم اللّه وجهه : « قصم ظهري رجلان : جاهل متنسك وعالم متهتك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم ينفرهم بتهتكه » [(٢)] ، والواعظ ما لم يكن مع مقاله فعاله لا ينتفع به وذلك أن عمله يدرك بالبصر ، وعلمه مدرك بالبصيرة ، وأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر ، فيجب أن تكون عنايته بإظهار عمله الذي يدركه جماعتهم أكثر من عنايته بالعلم الذي لا يدركه إلا البصير منهم [(٣)] .

ومنزلة الواعظ من الموعوظ كمنزلة المداوي من المداوى ، فكما أن الطبيب إذا قال للناس : لا تأكلوا هذا فإنه سم قاتل ، ثم رأوه آكلًا له عد سخرية وهزأ ، كذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله ، وبهذا النظر قيل : يا طبيب طب نفسك ، بل قد قال تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] إلى غير ذلك من الآيات ، وأيضًا فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطابع (من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع الطين) [(٤)] بما ليس منتقشًا في الطابع كذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس بموجود في نفس الواعظ . فإذا لم يكن الواعظ إلا ذا قول مجرد من الفعل لم يتلق عنه الموعوظ إلا القول دون الفعل ، وأيضًا فإن الواعظ يجري من الناس مجرى الظل من ذي الظل ، فكما أنه محال أن يعوج ذو الظل والظل مستقيم ، كذلك من المحال أن يعوج الواعظ والموعوظ مستقيم ، وأيضًا فكل شيء له حالة يختص بها فإنه يجري غيره بإرادة منه أو غير إرادة ، كالماء الذي يحيل ما يتلقاه من العناصر إلى

---

(١) في (ط) : « ذكر الحال ... » ولعلها زيادة من جنس « في » التي توجد كثيرًا في (د) وتعني مبحث في كذا .

(٢) انظر : سجع الحمام في حكم الإمام (٢٦٣) .

(٣) هنا نجد في النسخ بعض التقديم في الألفاظ لكن المعنى هو نفسه تمامًا .

(٤) « من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع الطين » سقط من (ط) .

نفسه بقدر وسعه إلي نفسه ، وكذلك النار والأرض والهواء فالواعظ إذا كان غاويًا جر بغيه غيره إلى نفسه ؛ ولهذا حكى اللَّه تعالى عن الكفار قوله : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ ﴾ [القصص : ٦٣] ، وقال أيضًا : ﴿ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ [الصافات : ٣٢] . فمن ترشح للوعظ ثم فعل فعلًا قبيحًا اقتدى به غيره فقد جمع بين وزره ووزرهم ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ﴾ [النحل : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وقد قال عليه السلام : « **من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها يوم القيامة** »[1] ، بل قد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣١] .

صعوبة المعيار الذي تدرك به حقائق العلوم [2]

كما أن للدراهم والدنانير ميزانًا قد عرف أهلها صحته فلكل علم ميزان نحو : الحساب للمعدودات ، والهندسة للممسوحات ، والعروض للشعر ، والنحو للألفاظ العربية ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، وأوصى الذين أعطاهم الموازين فقال : ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ ﴾ [الشعراء : ١٨٢ ، ١٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [هود : ٨٥] ، فكل شاكٍ أو منازع غيره في مقدار فحقه أن يعتمد ميزانه إن عرفه ويقلد أربابه إن لم يعرفه ؛ فإن من ترك ذلك وأخذ يخرص ويحزر ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه ؛ فالخرص قلما يصدق والظن قلما يوافق ويحقق ؛ ولذلك عبر بالخرص عن الكذب ، فقال تعالى : ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴾ [الذاريات : ١٠] ، وقال تعالى في ذم الظن : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [النجم : ٢٨] ، ومعلوم أن ميزان الدين الذي صوابه يوصل إلى الثواب العظيم وخطؤه يفضي إلى العذاب الأليم أصعب الموازين وأشرفها وأولاها بالمعرفة ، وكثير في زماننا ممن تحلى بعلم الكلام وترشح فيه للجدال والخصام ورام الزعامة فيه قبل أوانها ،

(١) جزء من حديث رواه مسلم بلفظ « ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتبت عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » . مسلم : كتاب العلم (٦) حديث (٢٦٧٣) .

(٢) في نسختي (ط) ، (د) : « تعرف » بدلًا من « تدرك » ولا خلاف .

وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها ، أخذ كل واحد منهم يخرص خرصًا ويظن ظنًّا ويسلك بظنه طريقًا غير نهج ، فإذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه ، واتبع فيما اعتقده ظنه ، فإذا تحاكموا إلى ما اتخذوه ميزانًا صار خلافهم في الميزان أكثر من خلافهم في الموزون فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بماء فشرق به [١] .

لا جرم أن كثيرًا من مناظراتهم لا تولد إلا شبهة ولا تثمر إلا حيرة ، ولا يقوم عنها اثنان بثاطة [٢] مدت بماء : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ... وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] [٣] .

كراهية الجدال للعوام وذمه على كل حال

إباحة تعاطي الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين ، ولم يتهذبوا في سبيل البراهين يجري مجرى حل قيد الشياطين ورفع سد [٤] يأجوج ومأجوج فإنه يثير سلطان قوتهم السبعية منخلعة [٥] من يد قائد العقل وقيد الشرع ، فالجدال مكروه للعلماء الألباء [٦] فكيف للجهال الأغبياء ؟! ألا ترى أنه تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل : ١٢٥] فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالأحسن هنا مع وصفه ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم : ٤] ، وقال تعالى في ذم الجدال : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ ﴾ [الزخرف : ٥٨] ، وقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج : ٨] ، وقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

وللجدال مع كونه مكروهًا شرائط وقوانين فمن تعطَّاه ولم يكن متدربًا فيها كان

---

(١) في بعض النسخ ذكر بيت من الشعر أو بيتان ، وبجوارهما من الكلام ما يرشح أنه من الناسخ . وما ذكر هو :

كمتق لفح نار فاستعد لها ... بالجهل درعين من قار وكبريت
فكان عونًا عليه ما استعان به ... وشتته يداه أي تشتيت

(٢) قال في القاموس : الثاطة : الحمأة من الطين ، ودويبة لساعة ، والجمع « ثاط » ، وفي المثل « ثاطة مدت بماء » يضرب للأحمق يزداد منصبًا ، والثاطة الحمقاء نعت للأمة .

(٣) وكمال الآية ﴿ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

(٤) « سد » سقطت من (ط) مع أهميتها .

(٥) « فإنها شؤون سلطان قوتهم السبعية خالفة من يد قائد العقل » هي هكذا في (ط) والاضطراب فيها واضح ، تأمل « شؤون » « وخالفة » وما يؤديانه في هذا السياق ، ولعل الأصح ما هنا .

(٦) في (ط) : « الأولياء » ولكن « الأغبياء » وصف « الجهال » ترشح أنها « الألباء » .

خصيمًا جدلًا ، والخصومة عديمة الفائدة قليلة العائدة فإن الجدال مع ما فيه قد يوقظ الفهم ويثير الأنفة لاقتباس العلم ، والخصومة لا تثمر إلا العداوة وإنكار الحق ؛ فلهذا جعلها اللّه تعالى شرًّا من الجدال فقال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : ٥٨] ، وقال : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] ، أي : جيد الخصومة مبين (١) ، ولم يذكر الخصام في موضع إلا عابه ، وأيضًا فالمتجادلان يجريان مجرى فحلين تعاديا ، وكبشين تناطحا ، ورئيسين تحاربا ، وكل واحد منهما يجتهد أن يكون هو الفاعل (وصاحبه هو المنفعل ، وأن يكون هو الطابع) (٢) وصاحبه المنطبع ، والقائل كالمؤثر ، والسامع كالمتأثر ، (ومتى لم يخضع المتأثر لقبول أثر المؤثر) (٣) لم يتولد منهما خير بوجه ، وقال حكيم : المجادل المدافع يجعل في نفسه عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء ، ومن لا يقنعه إلا أن لا يقنع فما إلى إقناعه سبيل ، ولو اتفق عليه الحكماء بكل بينة ، بل لو اجتمع عليه الأنبياء بكل معجزة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

ما يجب أن يعامل به الجدل المماحك

إذا ابتليت بمجادل مهاوش ومساجل مناوش قصده اللجاج لا الحجاج ومراده مباهاة العلماء ومماراة السفهاء ، كما قال النبي ﷺ : « **من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء** » (٤) ، وقد قال الشاعر في مثله :

تراه معدًّا للخلاف كأنه يرد على أهل الصواب موكل (٥)

فحقك أن تفر منه فرارك من الأسود والأساود (٦) فإن لم تجد من مزاولته بدًّا فقابل

---

(١) « جيد الخصومة مبين » سقطت من (أ) .

(٢) « وصاحبه هو المنفعل ، وأن يكون هو الطابع » سقطت من (ط) مع إفادتها معنى يحتاجه السياق والتقسيم .

(٣) « ومتى لم يخضع المتأثر لقبول أثر المؤثر » سقطت من (ط) وما بعدها ينبني عليها ؛ لذا لاحظنا اضطراب المعنى في (ط) قبل ذلك .

(٤) رواه الترمذي بلفظ « من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله اللّه النار » ورواه ابن ماجه بلفظ « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ... فمن فعل ذلك فهو في النار » وسند كليهما صحيح الترمذي : العلم (٦) حديث (٢٦٥٤) . ابن ماجه : مقدمة (٣٢ ، ٣٣) .

(٥) ذكر مصحح النسخة (د) أن هذا من جملة أبيات رآها مخرجة عند البيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط والصغير ، لكنه يذكر قائلها ؛ إذ يذكر أنها في الحماسة منسوبة لأمية بن أبي الصلت وبعضهم ينسبها لغيره .

(٦) الأساود : الحيات العظيمة . المعجم الوسيط (١/٤٦٣) .

إنكاره الحق بإنكارك الباطل ، ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب معتبرًا في ذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ [النمل : ٥٠ ، ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، وقوله حكاية عن المنافقين : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤ ، ١٥] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وتتبلغ معه بذلك ، وإياك وأن تعرج معه إلى بث الحكمة وأن تذكر له شيئًا من الحقائق ما لم تتحقق أن له قلبًا طاهرًا لا تعافه الحكمة فقد قال ﷺ : « **لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب** » (١) وإن لكل تربة غرسًا ولكل بناء أسًّا وما كل رأس تستحق التيجان ، ولا كل طبيعة تستحق إفادة البيان .

وإن كان لا بد فاقتصر معه على إقناع يبلغه فهمه ، فقد قيل : كما أن لب الثمار معد للأنام فالتبن مباح للأنعام ، كذلك لب الحكمة معد لذوي الألباب وقشورها مبذولة للأنعام ، وكما أنه من المحال أن يشم الأخشم ريحانًا فمحال أن يفيد الحمار بيانًا ، واعلم أن سبيل إنكار الحجة والسعي في إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ؛ ولهذا يتحرى الجدل الخصيم أبدًا بالدفاع لا المعارضة بمثلها ، وذلك أن الإفساد هدم وهو سهل والإتيان بمثله بناء وهو صعب ، فإن الإنسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات ، ولا يقدر على إيجاد شيء منها يمكنه إفساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ولا يمكنه الإتيان بمثلها ؛ ولأجل ما قلنا دعا اللَّه ﷻ الناس في الحجج إلى الإتيان بمثلها (لا إلى السعي في إفسادها) (٢) ، فقال تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود : ١٣] فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وإن كان ذلك مفترى ، وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، واللَّه الموفق .

الوجوه التي من أجلها تقع الشبه و(يتولد) الخلاف

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان : المعنى واللفظ .

فأما ما كان من جهة المعنى : فإما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة ، أو من جهة الآلة التي تستعمل في النظر فإن الناظر في الشيء المعتبر له جارٍ

(١) سبق تخريجه .

(٢) « لا إن السعي في إفسادها » سقطت من (ط) .

مجرى وزان وحججه كالميزان والمنظور فيه كالموزون ، فمتى كان الناظر غير تام العقل كان أعمى البصيرة فيجري مجرى وزان أعمى البصر فلا سبيل له إلى الوزن ، ومتى لم يكن أعمى البصيرة لكنه غير عارف بقوانين البراهين والحجج والأدلة كان جاريًا مجرى وزان عدم الميزان فأخذ يخمن ، والمخمن قلما ينفك من غلط ، بل ما وقع منه من الصواب فغير معتد به ؛ إذ لا أصل له تسكن إليه النفس ، ومتى لم يكن أعمى البصيرة ولكنه لا يعرف أي حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس ، والمحسوس من جهة المعقول كان جاريًا مجرى وزان بصير لكنه يزن الدنانير بصنج الدراهم والدراهم بصنج الدنانير .

وأما ما كان من جهة اللفظ فإما أن يكون (واقعًا من جهة مفردات اللفظ ، أو من جهة مركباته ، فإن كان من مفردات اللفظ فإما أن يكون) [١] من حيث إن اللفظ مشترك بين معنيين كالعين واليد ونحوهما ، أو يكون اللفظ عامًّا موضوعًا موضع خاص أو خاصًّا موضوعًا موضع عام ، أو يكون اللفظ مستعملًا على سبيل المثل والإشارة والرمز أو يكون اللفظ مستعملًا لشيء لم تتقرر صورة ذلك الشيء في نفس السامع فيخيل إليه وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي .

وأما ما كان من جهة التركيب فإما أن يكون من جهة الكمية ، وذلك بأن يكون اللفظ أكثر مما يجب أو أقل مما يجب أن يكون ، وإما من جهة الكيفية وذلك أن يقدم ما حقه أن يؤخر ، أو يؤخر ما حقه أن يقدم كقول الشاعر (الفرزدق) :

وما مثله في النفس إلا مملكًا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه

ومن أجل ما وقع في الألفاظ من الشبه قال الحكماء : يجب أن يكون نظر الإنسان في المعنى إلى اللفظ (أكثر من نظره من اللفظ إلى المعنى فإن اللفظ) [٢] في الحقيقة لا يدل على المعنى إلا بواسطة صورة ذلك المعنى [٣] في القلب ، ومتى لم تثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم من اللفظ المعنى ألبتة .

---

(١) من أول « واقعًا من جهة » إلى « أن يكون » سقطت من (أ) وهي مهمة .

(٢) « أكثر من نظره من اللفظ إلى المعنى فإن اللفظ » سقطت من (ط) فاضطرب المعنى ، وصحح من النسختين الآخرتين .

(٣) في (ط) : « اللفظ » بدلًا من « المعنى » ، والسياق يوضح أن الأخيرة أصوب .

بيان جميع اختلافات الناس في الأديان والمذاهب [١]

جميع الاختلافات بين أهل الأديان والمذاهب على أربع مراتب :

الأولى : الاختلاف بين أهل الأديان النبوية وبين الخارجين عنها من الثنوية والدهرية [٢] وذلك في حدوث العالم ، وفي الصانع ﷻ وفي التوحيد .

والثانية : الاختلاف بين أهل الأديان النبوية بعضهم مع بعض وذلك في الأنبياء كاختلاف المسلمين والنصارى واليهود .

والثالثة : الخلاف المختص في أهل الدين الواحد بعضهم مع بعض في الأصول التي يقع فيها التبديع والتفجير كالاختلاف في كثير من صفات اللّه تعالى وفي القدر وكاختلاف المجسمة .

الرابعة : الاختلاف المختص بأهل المقالات في فروع المسائل كاختلاف الشافعية والحنفية .

فالاختلاف الأول : يجري مجرى متنافيين في مسلكيهما كآخذ طريق المشرق ، وآخذ طريق المغرب ، وكآخذ ناحية الشمال ، وأخذ ناحية الجنوب .

والثاني : يجري مجرى آخذ نحو المشرق ، وآخذ يمينه أو شماله ، فهو وإن كان أقرب من الأول فليس يخرج أحدهما عن أن يكون ضالًّا ضلالًا بعيدًا ، وإيَّاهما قصد بقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] .

والثالث : جارٍ مجرى آخذين وجهة واحدة ، ولكن أحدهما سالك للمنهج ، والآخر تارك للمنهج ، وهذا التارك للمنهج ربما يبلغ وإن كان يطول عليه الطريق .

---

(١) في (د) : « بيان جميع اختلافات الناس ... » ، وفي ط : « بيان اختلاف جميع الناس في الأديان والمذاهب » وفي (أ) : « بيان جميع الخلاف بين الناس ... » وواضح أن (أ) ، (د) يتقاربان لفظًا ومعنًى ، أما عنوان المبحث في (ط) فيؤدي إلى جهة من الاختلاف غير المقصودة هنا ؛ إذ المقصود هنا بيان وجوه اختلاف الناس ، أما في (ط) فيفهم منه ضرورة اختلاف جميع الناس حتى داخل الأديان والمذاهب .

(٢) الثنوية فرقة مجوسية تقول بأن أصل الأشياء شيئان هما : النور والظلمة وأن الأشياء لا تنفك منهما ولا ينفكان منها ، وينكرون وجود شيء إلا من أصل قديم . انظر ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١٩٥/٦) ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٨٨) .

أما الدهرية من الفلاسفة أو غيرهم فهم طائفة تنكر صدور العالم عن فاعل أو علة مستلزمة له ، وقد وقع في مذهبهم هذا أصحاب وحدة الوجود من الفلاسفة والصوفية الذين ينتمون إلى الإسلام . والدهرية تتنوع إلى طوائف فمنها : المعطلة ، ومنها الطبيعية ، ومنها الدهرية المحضة . انظر ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٤٤/٤ ، ٨٩) ، (٢٥٥/٩ ، ٥٦) .

والرابع : جارٍ مجرى جماعة سلكوا منهجًا واحدًا لكن أخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر ، وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله ﷺ : « **الاختلاف في هذه الأمة رحمة** » [(١)] ونحوه نظر من قال : كل مجتهد في الفروع مصيب ، ولأجل الفرق الثلاث أمرنا أن نستعيذ بالله تعالى ونتضرع إليه بقوله : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وقال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] وجميع الخلاف الواقع في هذه الأمة اثنان وسبعون على ما ورد في الخبر لا زائدًا ولا ناقصًا ، وقد روي الخبر في ذلك على وجهين ؛ أحدهما : « **ستفترق أمتي على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة** » ، وفي الخبر الآخر : « **كلها في الجنة إلا واحدة** » [(٢)] وهم الزنادقة وهذان خبران لا يمتنع أن يكونا صحيحين ، ولكن على نظرين ومعنيين ، وقد ذكر ذلك وبين في رسالة مفردة . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه .

النطق والصمت

النطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإنه صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٣ ، ٤] ولم يقل : وعلمه البيان ؛ إذ جعل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ تفسيرًا لقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ تنبيهًا أن خلقه تعالى إيَّاه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعًا عنه لكانت الإنسانية مرتفعة ؛ ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة ، وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه ، وقال الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم [(٣)]

(١) كثر الكلام حول ما ورد بهذا المعنى ، فزعم كثيرون أنه لا أصل له ، ولكن الخطابي ذكره في غريب الحديث وذكر ما اعترض به عليه ، وبين أن الاختلاف هو في الفروع ، وبالجملة الحديث وارد وله سند من حكاية مالك وعدم قبوله تقرير الموطأ . كشف الخفاء (١/٦٦) حديث (١٥٣) .

(٢) روي الحديث هكذا ، وروي : « .... **والذي نفس محمد بيده لتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار** » لكن رواية اثنتين وسبعين قيل في إسناده صحيح ورجاله ثقات . انظر ابن ماجه / فتن (٧) حديث (٢٩٩١ ، ٢٩٩٢ ، ٢٩٩٣) ، وانظر أبو داوود (١/٢٧٦ ، ٢٧٧) ، والمسند (٢/٢٣٢) (٣/١٤٥) ، والترمذي شرح ابن العربي (١٠/١٠٨) كتاب الإيمان : باب ما جاء في افتراق الأمة .

(٣) هذا البيت نسبه الجاحظ في البيان والتبيين للأعور الشني ، وهو لزهير في معلقته وقبله :

وكأين ترى من صامت لك معجب   زيادته أو نقصه في التكلم

حسن الكرمي : قول على قول (٣/٢١١) .

أي : إذا توهم ارتفاع [١] النطق الذي هو اللسان والقوة الناطقة التي هي بالفؤاد لم يبق إلا صورة اللحم والدم ، فإذا كان الإنسان هو الإنسان بذلك فلا شك أن من كان أكثر منه حظًّا كان أكثر منه إنسانية .

والصمت من حيث ما هو صمت مذموم فذلك من صفة الجمادات فضلًا عن الحيوانات ، وقد جعل اللَّه تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتًا بلا تركيب ، ومن مدح الصمت فاعتبارًا بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا .

كما روي أن الإنسان إذا أصبح كفرت أعضاؤه لسانه فتقول : اتق اللَّه فينا ، فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا ، فأما إذا اعتبرا بنفسيهما فمحال أن يقال في الصمت فضلٌ فضلًا أن يخاير بينه وبين النطق ، (وقد سئل حكيم عن أفضلهما : فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق) [٢] وسئل آخر فقال : الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطا وعنه أخذ الشاعر فقال :

الصمت أحسن بالفتى ... من منطق في غير حينه

والفرق بين الصمت والسكوت ، والإنصات والإصاخة أن :

الصمت : أبلغ لأنه قد يستعمل فيما لا قوة فيه للنطق ، وفيما له قوة النطق ، ولهذا قيل لما لا نطق له : الصامت والمصمت .

والسكوت : يقال لما له نطق فترك استعماله .

والإنصات : سكوت مع استماع ، ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له في الحقيقة : إنصات ، وعلى ذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] ، فقوله : ﴿ وَأَنصِتُواْ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ ﴾ يدل أن الإنصات بعد الاستماع ذكر خاص بعد عام .

والإصاخة : الاستماع إلى ما يصعب إدراكه ؛ كالسر والصوت من المكان البعيد .

---

(١) « ارتفاع » سقطت من (ط) ، وهي جزء متمم لفائدة المعنى .

(٢) « وقد سئل حكيم عن أفضلهما فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق » سقطت من (ط) وما بعدها « وسئل آخر » يؤكد وجودها .

الصدق ومدحه والكذب وذمه

أصلهما في القول ، ولا يكونان بالقصد الأول من القول إلا في الخبر دون غيره من أصناف الكلام ، فأما بالعرض فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء ، وذلك أن يقول القائل : أزيد في الدار ؟ في ضمنه إخبار بكونه جاهلًا بحال زيد ، وكذلك إذا قال : واسني ؛ في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة ، وإذا قال : لا تؤذني ؛ في ضمنه أنه يؤذيه ، وكلاهما - أعني الصدق والكذب - يستعمل في الاعتقاد أيضًا كقولهم : صدق ظنه واعتقاده وكذبا ، ويستعملان أيضًا في أعمال الجوارح نحو : صدقوهم القتال وكذبوهم ، وحد صدق التام هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه ، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا ، بل إما أن لا يوصف بالصدق والكذب ، أو يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين مختلفين ؛ كقول الكافر : إذا قال من غير اعتقاد محمد رسول اللّه ، فإن هذا يصح أن يقال فيه : إنه صدق لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح فيه أن يقال : إنه كذب لمخالفة قوله ضميره ؛ ولهذا كذبهم اللّه تعالى حيث قال : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ، وكذلك إذا قال من لم يعلم كون زيد في الدار : إنه في الدار ، يصح أن يقال : صدق وأن يقال : كذب باعتبار نظرين مختلفين ؛ ولهذا قال عليه السلام : « **من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » ، وفي لفظ آخر : « **فقد كذب على اللّه** » [(١)] ، والمتوسم لا قصد له ، فإذا قال : زيد في الدار ؛ لا يقال : أنه صدق ولا كذب .

والصدق أجدر أركان بقاء العالم حتى لو توهم مرتفعًا لما صح نظامه وبقاؤه ، وهو أصل المحمودات وركن النبوات ، ونتيجة التقوى ، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، والاختصاص بالكذب انسلاخ عن الإنسانية فخصوصية الإنسان النطق ، ومن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه ، ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع ، وإذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء ، بل يكون شرًّا من البهيمة ، فإن البهيمة وإن لم تنفع بلسانها فإنها لا تضر ، والكاذب يضر ولا ينفع ،

---

(١) روى الترمذي عن جندب عن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » . قال الترمذي : في سنده سهيل بن أبي حزم ، وقد تكلم أهل الحديث فيه ، وقال ابن الأثير : ضعفه البخاري وأبو حاتم وأحمد ؛ لأن فيه سهيلًا بن أبي حزم . الترمذي : السنن (٥) تفسير القرآن باب (١) حديث (١٥٢) . ابن الأثير : جامع الأصول (٢/٣) حديث (٤٦٩) .

وقد قال تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الإخبار فليس بكذب في الحقيقة ؛ ولهذا لا يتحاشى المتجوزون من التحدث به كقولهم في الحث على مداراة العدو والتلطف في خدمة الملوك أن سبعًا وذئبًا وثعلبًا اجتمعوا فقالوا : نشترك فيما نتصيد فصادوا عيرًا وظبيًا وأرنبًا ، فقال السبع للذئب : اقسم ، فقال الذئب : هو مقسوم العير لك والظبي لي والأرنب للثعلب ، فوثب السبع فأدماه ، ثم قال للثعلب : اقسم ، فقال : هو مقسوم العير لك لغذائك ، والظبي لمقيلك ، والأرنب لعشائك ، فقال السبع : من علمك هذه القسمة المليحة ؟ فقال : علمني الثوب الأرجواني الذي على الذئب ، وعلى المثل حمل قوم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [ص : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، فقالوا : يصح هذا لما كان مثلًا وإن لم تجرِ العادة بوجود الحبة هكذا .

ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب

ذهب كثير من المتكلمين إلى أن الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه [(١)] ، وقال كثير من الحكماء والمتصوفة : إن الكذب يقبح لما يتعلق به من المضار الحاصلة منه ، والصدق يحسن لما يتعلق به من المنافع الحاصلة منه وذلك أن الأقوال من جملة الأفعال .

وشيء من الأفعال لا يحسن لذاته ، بل إنما يحسن ما يحسن لما يتعلق به من المنافع ، ويقبح ما يقبح لما يتعلق به من الضرر الموفي على ما فيه من النفع وبالعكس ، ألا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والغصب ، وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح ، وكذا المقال من الصدق والكذب ؛ ولذلك قال ﷺ : « **لا يحسن الكذب إلا في ثلاث : إصلاح ذات البين ، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها ، وكذب الرجل في الحرب فإنها خدعة** » [(٢)] ، وقد روي عنه ﷺ : « **إذا أتاكم عني حديث يدل**

(١) لعله يشير بذلك إلى المعتزلة ومن لف لفهم ممن يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين ، فالحسن – عندهم – ما حسنه عقله ، والقبيح ما قبحه العقل ، ويقصدون بالحسن هنا المعنى الأخلاقي لا الجمالي ، ولهم في ذلك آراء تتصل بالوجوه التي من أجلها يحسن فعل ما أو يقبح فعل ما رابطين هذا بذم صاحب الفعل أو مدحه . انظر : المغني (٥٨/٥٧) ، وكذا شرح الأصول الخمسة (٣٠٦ – ٣٠٨) ، د. محمد الجليند : مشكلة الخير والشر في الفكر الإسلامي (٥١ – ٦٣) .

(٢) روى مسلم ما يتفق عليه المعنى هنا ، ولكن اللفظ مختلف . مسلم : كتاب البر والصلة باب (٢٧) حديث (٢٦٠٥) ، (مجلد ٤ من طبعة دار الإفتاء) .

على هدى أو يرد عن ردى فاقبلوه ، قُلته أو لم أقله ، وإن أتاكم عني حديث يدل على ردى أو يصد عن هدى فلا تقبلوه ، فإني لا أقول إلَّا حقًّا » [١] قالوا : والكذب يكون قبيحًا بثلاث شرائط : أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه ، وأن يكون المخبر قد اختلقه قبل الإخبار به ، وأن يقصد إيراد ما في نفسه ، لا نفعًا أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول إلى ذلك النفع بغيره ، ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلًا وآجلًا ، قالوا : ولا يلزم على هذا أن يقال : جوزوا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوي ، فإن المنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا تعادل الضرر الحاصل من أدنى كذب ، وإنما هذا الذي قلناه يتصور في نفع أخروي يكون الإنسان فيه عاجلًا وآجلًا معذور كمن سألك عن مسلم استتر في دارك وهو يريد قتله ، (فيقول : هل فلاف في دارك) [٢] ؟ فتقول : لا ، فهذا يجوز ؛ لأن نفع هذا الكذب موفٍ على ضرره وهو فيه معذور ، ولا خلاف (أن في المعاريض حيث يضطر الإنسان إليها تجوز ؛ ولذلك قيل) [٣] : في المعاريض مندوحة عن الكذب ، ولم يزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها كقول النبي ﷺ لمن سأله : من أين أنت ؟ فقال : « **من الماء** » ، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] . وقوله : « هذه أختي » ، وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] .

وأما الصدق : فإنما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق ضررًا بأحد ، فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول : السماء فوقي والأرض تحتي من غير أن يريد أن يجعل هذا مقدمة دليل أو إفادة معنى يعلقه به ، وكذا تقبح النميمة والغيبة والسعاية وإن كان ذلك صدقًا ؛ ولذلك قيل : كفى بالسعاية ذمًّا أنه يقبح فيها الصدق .

وأقبح الكذب مع قبح كله أو جُلِّه ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ، ويجلب إلى المقول له ضررًا كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول لك : إن ملك ذلك البلد يرغب فيك ، ويتشوق إليك ، ويسألك أن تأتيه لينيلك مالًا وجاهًا ، فإذا وردت عليه لم تجد لذلك القول حقيقة ، بل وجدت ذلك الملك حنقًا عليك .

---

(١) ورد في هذا المعنى عدة روايات ، قال السخاوي - وذكر له روايات ضعيفة - الحديث منكر جدًّا ، وقال العقيلي : ليس له إسناد صحيح ، وقال عنه ابن حجر : إنه جاء من طرق لا تخلو من مقال ، وقال الصفائي عما في معناه : إنه موضوع . كشف الخفاء (٨٦/١) رقم (٢٢٠) .

(٢) « فيقول : هل فلان في دارك ؟ » سقطت من (ط) .

(٣) « أن في المعاريض حيث يضطر الإنسان إليها تجوز ولذلك قيل » سقطت من (ط) فقط .

أنواع الكذب والسبب الداعي إليه

الكذب إما أن يكون اختراعًا لقصة لا أصل لها ، أو زيادة في القصة أو نقصانًا يغيران المعنى ، أو تحريفًا بتغيير عبارة . فما كان اختراعًا يقال له : الافتراء والاختلاق ، وما كان من زيادة أو نقصان فمَيْنٌ ، وكل من أورد كذبًا في غيره ، فإما أن يقوله بحضرة المقول فيه أو بغير حضرته ، وأعظم الكذب ما كان اختراعًا بحضرة المقول فيه [١] ، وهو المعبر عنه بالبهتان ، وكل من أورد حديثًا فإما أن يخبر به عن علم أو عن غلبة ظن (أو عن ظن وتخمين واهٍ فما يقال عن علم فمحمود بلا شك ، وما كان عن غلبة ظن فقد يحسن وقد يقبح ، وما كان عن ظن واهٍ فمذموم) [٢] ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

واعلم أن الداعي إلى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب الترأس ، وذلك أن المخبر يرى أن له فضلًا على المخبر بما علمه فهو يتشبَّه بالعالم الفاضل في ذلك فيظن أنه يجلب بما يقوله فضيلة ومسرة ، وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ، ففضيحة كذبة واحدة لا توازي مسرات دهره ، فالكذب عار دائم وذل دائم ، وحق الإنسان أن يتحرى الصدق ويتعوده ولا يترخص في أدنى كذب ، فمن استحلاه عسر عليه فطامه ، وقد قال بعض الحكماء : كل ذنب يرجى تركه بتوبة أو إنابة ما خلا الكذب فإن صاحبه يزداد على الكبر ، فقد رأينا شارب خمر أقلع ، ولصًّا نزع ، ولم نرَ كذابًا رجع ، وعوتب كذاب في كذبة فقال : لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه ، واللَّه الهادي .

الذكر الحسن من المدح والثناء

محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا ، وهي في جبلة الناس من خصائصهم ، ولا توجد في غيره من الحيوان كما قال الشاعر :

.... حب الثناء طبيعة الإنسان

---

(١) « أو بغير حضرته ، وأعظم الكذب ما كان اختراعًا بحضرة المقول فيه » سقطت من (ط) وهي جزء من التقسيم إما كذا وإما كذا .

(٢) قوله : « أو عن ظن وتخمين واهٍ ، فما يقال عن علم فمحمود بلا شك ، وما كان عن غلبة ظن فقد يحسن وقد يقبح ، وما كان عن ظن واهٍ فمذموم » كل هذا سقط من (ط) ، وسياق التفصيل يقتضيه ؛ لذ المعنى مضطرب لمن يتأمله وبخاصة في ضوء هذه الزيادة .

ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ، ومن لا يخوفه الهجاء ولا يسره الثناء فلا يردعه عن سوء الأفعال إلا نار أو سيف ، وقد قيل : الذي ينفر عن القبيح ويحث على الجميل أربعة أشياء : العقل ، ثم الحياء ، ثم المدح والهجاء ، ثم الترغيب والترهيب ، وقد قيل : من لم يردعه الذم عن سيئة ولم يستدعه المدح إلى حسنة فهو جماد أو بهيمة ؛ ولأجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة ، وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم ، وإنما يحمد ويذم بحسب المقاصد ، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب ، فذلك محمود ، وهو طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال : ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، أي : اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحي صادقًا ، ومن هذا الوجه ندب الإنسان إذا مُدح أن يقول : اللَّهم اجعلني خيرًا مما يظنون ، والمذموم منه أنه يميل إليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه ، فإنه يفتح باب الحسد ، والحسد يفتح باب الكذب ، والكذب رأس كل مذموم ، وقد توعد اللَّه تعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة تقتضيها ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران : ١٨٨] . وبالنظر إلى ما تقدم قال عليه السلام : « **من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن** » [١] ، وقال : « **المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الإيمان في قلبه** » [٢] ، وبالنظر إلى ما تأخر سمع النبي ﷺ رجلًا ، وقد أثنى على آخر فقال عليه السلام : « **قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح** » [٣] فالفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما إذا كان من مادح مُطر وجليس مغر ، وممن يهدف قبل أن يعرف ، وممن إذا وجد قادحًا قدح وإذا وجد مادحًا مدح . وأما ثناء الإنسان على نفسه فشناعة وفظاعة ، فقد قيل لحكيم : ما الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقًّا ؟ فقال : مدح الرجل نفسه ، وقد قال معاوية رحمه الله لرجل : من سيد قومك ؟ فقال : أنا ، فقال : لو كنته لما قلته ، وإنما لم يستقبح ما كان من يوسف عليه السلام حيث قال : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] ؛ لأنه قصد بذلك التنبيه على استغلاله بما سأل أن يفوض إليه ،

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الترمذي « **من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن** » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (أي : الرواية التي ذكرها) ، وقد روي من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ . الترمذي : كتاب الفتن ، باب (٧) حديث (٢١٦٥) .

(٢) الطبراني والحاكم من حديث أسامة بسند ضعيف . كشف الخفاء (١/٩٩) حديث (٢٧٤) .

(٣) في معناه حديث البخاري « ... **قطعت عنق صاحبك** ... » . البخاري : كتاب الأدب (٥٤) رقم (٦٠٦٠ ، ٦٠٦١) ، فتح الباري (١٠/٤٧٦) .

وقد أحسن ابن الرومي حيث اعتذر عن مدح نفسه قصد الدلالة على مكانه ، فقال :

وعزيز عليَّ مدحي لنفسي غير أني جشمته للدلال
وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر يريد إظهار آل

وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وسلم .

الشكر

الشكر هو : تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها ، قيل : وهو مقلوب عن الكشر وهو الكشف [١] ، ويضاده الكفر وهو من كفر الشيء ، أي : تغطيته ومنه دابة شكور ، أي : مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها ، وقيل : أصله من عين شكري ، أي : ممتلئة فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغ من الحمد ؛ لأن الحمد ؛ لا يقتضي الامتلاء ، ومن وجه ذكر الشيء بصفاته المحمودة والشكر ذكره بصفاته وبنعمه [٢] . فالشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب : وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على المنعم ، وشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه ، وهو أيضًا باعتبار الشاكر ، والمشكور ثلاثة أضرب : شكر الإنسان لمن فوقه وهو بالخدمة والثناء والدعاء ، وشكره لنظيره وهو بالمكافأة ، وشكره لمن هو دونه وهو بالثواب ، وقد وصف اللَّه تعالى نفسه بالشكر لصالحي عباده ، وشكر العبد لربه هو معرفة نعمته وحفظ جوارحه بمنعها عن استعمال ما لا ينبغي ، ومعناه بالفارسية أسبياس دارم خداي را ، أي : أنا حارس له على جوارحي [٣] ، وشكر المنعم في الجملة واجب بالعقل كما هو واجب بالشرع ، وأوجبها شكر الباريء تعالى ، ثم شكر من جعله سببًا لوصول خير إليك على يده ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « **لا يشكر اللَّه من لم يشكر الناس** » [٤] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على**

(١) « الكشف » سقطت من (ط) ، وهي البيان للغة المرادة كما جاء في مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (٢٩٠) .

(٢) قوله : « لا يقتضي الامتلاء ، ومن وجه آخر أبلغ من الحمد لأن الحمد » انفردت بها (د) ، وهي زيادة لها في المعنى .

(٣) هذه العبارة زيادة في (أ) وفي (د) ولم ينبه مصحح (د) على أنها من الناسخ .

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة بلفظ : « **من لا يشكر الناس لا يشكر اللَّه** » هذا حديث حسن صحيح ، ورواه عن أبي سعيد بلفظ : « **من لم يشكر الناس لم يشكر اللَّه** » حديث حسن صحيح . الترمذي : كتاب البر (٣٥) حديث (١٩٥٤ ، ١٩٥٥) .

من شكرك ، فإنه لا زوال لنعمة إذا شكرت ، ولا دوام لها إذا كفرت » [١] ، وقال بعض أهل العلم : كل نعمة يمكن شكرها إلَّا نعمة اللَّه تعالى فإن شكر نعمته نعمة منه ، فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكره الأول ، وكذلك الحال في الثالث والرابع ، وهذا يؤدي إلى ما لا يتناهى ؛ ولذلك قال موسى ﷺ : « اللهم أمرتني بالشكر على نعمتك ، وشكري إيَّاك نعمة من نعمك » ومن هذا أخذ الشاعر فقال :

إذا كان شكري نعمة اللَّه نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكرُ [٢]

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمرُ

ولهذا قيل : غاية شكر اللَّه تعالى الاعتراف بالعجز عنه ، بل قد قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وأيضًا فكل ما يفعل اللَّه بعبده فهو منه نعمة وإن كان قد يعد ذلك بلية [٣] ؛ ولذلك قال بعض الصالحين : يا من منعه عطاء وبلاؤه نعماء ؛ ولأجل صعوبة شكره قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، ولم يثن بالشكر على أوليائه إلا على اثنين منهم ، قال في إبراهيم : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل : ١٢١] فخص اللَّه تعالى لفظ الأنعم الدال على أدنى العدد ، وقال في نوح : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] .

واعلم أن الشكر والصبر جماع الإيمان ، كما روي في الخبر ، وقد روي : « **الصبر نصف الإيمان** » : [٤] لكن قد قال بعض المتصوفة : الشكر أفضل من الصبر ، فإن الصبر حبس النفس على مسالمة البلاء ، والشكر أن لا تلتفت إلى البلاء ، بل يراه من النعماء ، فمن صبر فقد ترك إظهار الجزع ، ومن شكر فقد تجاوز إلى إظهار السرور بما جزع له الصابر ، وأيضًا فالصبر هو ترك للعمل السيئ ، والشكر إظهار الفعل الحسن ، وليس من ترك قبيحًا كمن فعل حسنًا وجميلًا ، (وقابل تعالى الشكر بالمجازاة ؛ فعل الحبيب بحبيبه ، فقال تعالى : ﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٥]) [٥] ، وقابل الصبر

---

(١) هذا بلفظه ليس بحديث ، وهي عبارة أوردها ابن المقفع في الأدب الكبير (٤٩) نقلًا عن التوراة . انظر محمد يوسف موسى فلسفة الأخلاق (٣١) . وقد روى أحمد في مسنده : « **التحدث بنعمة اللَّه شكر ، وتركها كفر** ... » مسند أحمد (٢٧٨/٤) .

(٢) هذه ضمن مجموعة لمحمود الوراق في الوعظ ، وهو شاعر كان في عصر المعتصم .

(٣) يقصد من وجهة نظر العبد قبل أن يعرف الحقيقة ؛ إذ الإنسان كلف بحب العاجل .

(٤) أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود بسند حسن . الإحياء : باب الصبر .

(٥) وهذه الآية وما قبلها من « وقابل » سقطت من (أ) .

بالأجر ؛ فعل المستأجر بأجيره ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] ، وأين الأجر وإن كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ، ثم قال في الصبر : ﴿ يُوَفَّى ﴾ [الزمر : ١٠] فلم يسم فاعله ، وقال في الشكر : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، فانظر إلى هذا اللطف في المقال قبل الانتهاء إلى الفعال ولم يذكر من أنبيائه بالشكر إلا اثنين كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال : ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] فجعل الصبر مبدأ والشكر منتهى ؛ ولأن الصبر محمول عليه قهرًا والشكر مؤدى تطوعًا .

الغيبة والنميمة

الغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن يحوج إلى ذكره ، وقد عظم الله ﷻ أمرها فقال : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا يدخل الجنة قتات** » [١] ، وروي : « **النميمة تفطر الصائم وتنقض الوضوء** » [٢] ، وقل من وجد عائبًا إلا كان معيبًا ، وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب آخر : لقد تلمظت بما يعافه الكرام ، وحق الإنسان أن لا يتعودها فإن لها ضراوة ؛ ولذلك عير إنسان آخر بالغيبة فقال : لو تلمظت بها لما صبرت عنها ، ثم إن من اغتاب اغتيب ، ومن عاب عيب ، فبحثه عن عيوب الناس يحمل الناس على البحث عن عيوبه وكما يجب أن يتحراها بقوله يجب أن يتجنب من سماعها وسماع كل قبيح من الكذب ؛ لئلا يعلق وضره ووسخه بفكرته فوضر كل كلمة عوراء لا يمكن تطهير القلب عنه إلا بزمان مديد وعلاج شديد ، وسماع القبيح قد يصير سببًا لفساد الكبير المجيد وغواية العالم المستبصر ، فضلًا عن فساد الحدث الغر والناشئ الغمر ؛ ولذلك قال تعالى في مدح قوم : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] ، وقد أجاد من قال :

وسمعَك صُن عن سماع القبيح   كصَوْن اللسان عن النطق به

وكقبح الغيبة والنميمة المسابة ، قال أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه : « ما تساب

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٠) حديث (٦٠٥٦) ، فتح الباري (١٠/٤٧٢) .

(٢) هناك حديث فيه أن الكذب والغيبة والنميمة يفطرن الصائم . قال فيه العراقي في الإحياء : الأزدي في الضعفاء من رواية حايان عن أنس ، وقال أبو حاتم الرازي عنه : هذا كذاب .

اثنان إلا غلب ألأمهما وإلا انحط الأعلى إلى رتبة الأسفل منهما » [١] ، وقد قيل : إذا سمعت كلمة تؤذيك فتطامن لها حتى تتخطاك . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

الكلام المستقبح [٢]

البذاء : الكلام القبيح ، ويكون من القوة الشهوية طورًا ؛ كالرفث والسخف ، ويكون من القوة الغضبية طورًا ، فمتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة يكون فيه السباب ، ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتًا مجردًا لا يفيد نطقًا ، كما ترى كثيرًا ممن فار غضبه وهاج هائجه .

والرفث : فواحش الكلام في باب النكاح وأوصاف النساء وهو قبيح ، قال بعضهم : إني لأستقبح من الرجل أن يكون وصافًا لبطنه وفرجه ، ومن حق الإنسان أن يصون عن ذلك كله سمعه كما يصون عن التفوه به فمه ؛ ولذلك قال تعالى في مدح قوم : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

والسباب ثلاثة :

الأول : قدح في نسب المسبوب .

والثاني : في نفسه أو بدنه لعاهة به أو آفة .

والثالث : في شيء فعله أو فعل به .

رالسفه : التسرع إلى القول القبيح أو الفعل القبيح [٣] .

المزاح والضحك

المزاح : إذا كان على الاقتصاد محمود ، فقد روي عنه عليه السلام أنه قال : « **إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا** » [٤] ، وروي عنه ﷺ كلمات مازح بهن ، وقال سعيد بن العاص

(١) ذكرته بعض النسخ على أنه من قول الإمام علي ، ولم أجده في نهج البلاغة ، وذكرته النسخة (ط) على أنه حديث شريف ، والموجود في معناه أو قريبٌ منه « المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم » . مسلم : كتاب البر (٨) حديث (٢٥٨٧) . سنن الترمذي : كتاب البر (٥) حديث (١٩٨١) .

(٢) هكذا في (أ) ، (د) ، وفي (ط) : « الكلام القبيح البذاء » .

(٣) « أو الفعل القبيح » سقطت من (ط) وحدها .

(٤) رواه الطبراني عن ابن عمر ، والخطيب عن أنس رضي الله عنه . كشف الخفاء (٢٣٤/١) . حديث (٧١٥) .

لابنه : اقتصد في مزاحك ، فالإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرئ عليك السفهاء [١] ، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالطين . ولكن الاقتصاد فيه صعب جدًّا لا يكاد يوقف عليه ؛ ولذلك تحرج عنه أكثر الحكماء حتى قيل : المزاح مسلبة للبهاء ، ومقطعة للإخاء ، وفحل لا ينتج إلا الشر .

وأما الضحك فمن خصائص الإنسان ، وذلك أنه يكون من التعجب ، والتعجب لا يكون إلا عن فكرة ، وبالفكرة يميز الإنسان عن البهائم والاقتصاد فيه ، ومعرفة ما يحسن منه عسير كما هو في المزاح . وقيل : إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب وتورث النسيان ، وقيل : كثرة الضحك من الرعونة ، وحكي عن عيسى عليه السلام أنه قال : « إن اللَّه تعالى يبغض المضحاك من غير عجب ، والمشاء إلى غير أرب ، وأما إيراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة » . وقد قال ﷺ : « **ويل للذي يحدث فيكذب ، ليضحك القوم ، ويلٌ له ، ويلٌ له** » [٢] .

الحلف

أقبح من الكذب اليمين الفاجرة [٣] فيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به ، وحق المسلم أن يتحاشى من الاستعانة باليمين في الحق فكيف في الباطل ، وأن يتحقق تقدير القسم وما يراد به ليعلم أن الأغراض الدنيوية أوبخ أمرًا وأخس قدرًا من أن يفزع فيها إلى الحلف باللَّه ، وتقدير ذلك قول القائل إذا قال : تاللَّه إن لي عليك كذا ، أي : كون ذلك لي عليك حق كما أن وجود اللَّه تعالى حق ، وهذا كلام يتحاشى منه من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من تعظيم اللَّه ، وقد قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٤١] ، وقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا ﴾ [البقرة: ٢٢٤] ، وقال علي رضي الله عنه : « الحلف ينفق السلعة ويمحق البركة » [٤] ولم يخص

---

(١) « ويجرئ عليك السفهاء » سقطت من (ط) وحدها .

(٢) روى الترمذي : « **ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له ويل له** » ، وقال وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حديث حسن . الترمذي : الزهد (١٠) حديث (٢٣١٥) . وقد رواه أبو داود ، والنسائي من نفس الطريق .

(٣) في (ط) : « الحلف الكذب أقبح من اليمين الفاجرة » ، وفي (د) ، (ط) هكذا .

(٤) هذا حديث صحيح رواه مسلم : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للربح » ، وفي رواية أخرى : « إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه ينفق ، ثم يمحق » . صحيح مسلم : كتاب المساماة (٢٧) حديث (١٢٢٨) . طبعة الإفتاء بالسعودية (ج٣) .

يمينًا من يمين . وأما قول النبي ﷺ : « **من لم يحلف على ماله فلا مال له** » [١] فإنه وإن كان بنظر الفقهاء يتصور أنه مفسحة في الحلف صادقًا ، فإنه بنظر الحكماء يحث على إيثار التعظيم للّه ﷻ وتقديمه على إيثار المال وتعريض بأن الذي فاته هو عرض حاضر لا الدين والمروءة [٢] .

وحق العاقل إذا اضطر إليه أن يسلك سبيل التعريض فيه دون التصريح وما لا يضطر إليه تركه تعريضًا وتصريحًا ، وإن بدر منه سهوًا حلف شفعه بالاستثناء ، كما قال ﷺ : « **من كان حالفًا فليقل : إن شاء اللّه ، فإنه يدفع الحنث ، ويذهب الخبث ، وينجز الحاجة ، ويدفع اللجاجة** » [٣] . وقيل : العاقل إذا تكلم أتبع كلامه مثلًا ، والأحمق إذا تكلم أتبع كلامه حلفًا ، وعلامة الكاذب جوده بيمينه على غير مستحلف ، قال الشاعر المتنبي :

وفي اليمين على ما أنت واعده ما دل أنك في الميعاد متهم

وقال بعض الحكماء : اللغو في الحلافة يدل على كذب أربابها ، فإن ذلك لقلة الركون إلى قولهم ، وكما جوز - عليه الصلاة والسلام - الكذب حيث يضطر إليه جوز الحنث في اليمين ، فقال : « **من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها ، فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه** » [٤] .

* * *

(١) لم أقف عليه في مظانه ، ويبقى غير حديث حتى يثبت عكس ذلك عند أهل الحديث .

(٢) في النسخة (د) ذكر المصحح أنه رأى في نسخة أخرى زيادة « وهي إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ... ﴾ [التوبة : ٢٤] .

(٣) اللفظ بكامله غير موجود ، لكن البخاري أورد ما يقوي معنى الشطر الأول ، ولعل الباقي شرح من الراغب أو الناسخ من « فإنه يدفع الحنث ... » . مسلم : الإيمان (٥) حديث (١٦٥٤) البخاري : الكفارات (٩) حديث (٦٧٢٠) .

(٤) نفس اللفظ مع تقديم أو تأخير أو تغيير من الغيبة إلى الخطاب مع اتفاق تام في المعنى . رواه البخاري ومسلم . فتح الباري (١١/٥١٦ ، ٥٣٠) ، مسلم : الإيمان (٣ ، ٤) حديث (١٦٥١) .




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفصل الثالث

فيما يتعلق بالقوة الشهوية



الحياء

الحياء : انقباض النفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ، وأول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، وجعله اللَّه تعالى في الإنسان ليرتدع به ، عما تنزعه إليه الشهوة من القبائح فلا يكون كالبهيمة .

وهو مركب من جبن وعفة ؛ ولذلك لا يكون المستحي [١] فاسقًا ولا الفاسق مستحيًا لتنافي اجتماع العفة والفسق ، وقل ما يكون الشجاع مستحيًا والمستحي شجاعًا لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ؛ ولعزة وجود ذلك تجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة ؛ والمدح بالحياء نحو قول الشاعر :

يجري الحياء الغض من قسماتهم في حين يجري من أكفهم الدم

وقال آخر :

كريم يغض الطرف فضل حيائه ويدنو وأطراف الرماح دواني

ومتى قصد به الانقباض فمدح للصبيان دون المشايخ ، ومتى قصد به ترك القبيح فمدح لكل أحد ، وبالاعتبار الأول قيل : الحياء الأفاضل قبيح . ومن هذا الوجه قيل : خزي يخزى خزيًا في الهوان ، وخزي خزاية في الاستحياء فجعلا من منبع واحد ، وبالاعتبار الثاني قيل : « **إن اللَّه يستحي من ذي الشيبة في الإسلام أن يعذبه** » [٢] ، أي : يترك تعذيبه .

وأما الخجل : فحيرة النفس لفرط الحياء ، ويحمد في النساء والصبيان ، ويذم باتفاق من الرجال .

والوقاحة : مذمومة بكل لسان ؛ إذ هي انسلاخ من الإنسانية ، وحقيقتها لجاجة النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه من حافر وقاح ، أي : صلب ؛ ولهذه المناسبة قال الشاعر :

---

(١) في (ط) : سقطت « لا » فصارت « يكون المستحي » ، والمعنى يرفض ذلك ، وقد يكون من عمل الطابع لكنا ننبه عليه لأهميته .

(٢) « إن اللَّه يستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام » هكذا ذكره الغزالي في الدرة الفاخرة ، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن ابن النجار بسند ضعيف بلفظين آخرين . كشف الخفاء (١/٢٤٤) .

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة فأقد منها حافرًا للأشهب

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكمل فيه الشر واجتمعا

فأما مداواة اكتساب الحياء فحق الإنسان إذا همَّ بقبيح أن يتصور أجل من في نفسه (حتى كأنه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه) [١] ؛ ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال ، ولا من الذين لا يميزون ، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل ، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد .

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة : **البشر** : وهم أكثر من يستحي منه ، **ثم نفسه** ، **ثم الله** ﷻ ، ومن استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسه فنفسه عنده أخس من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحِ من الله فلعدم معرفته بالله ﷻ ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته ، ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه ، وكيف يعلم أنه مطلع عليه . وقول النبي ﷺ : (**استحيوا من الله حق الحياء** » [٢] في ضمنه حث على معرفته ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] تنبيهًا على أن العبد إذا علم أن الله يراه استحيا من ارتكاب الذنب ، وقد سئل الجنيد [٣] رحمه الله عما يتولد منه الحياء من الله تعالى ، فقال : رؤية العبد آلاء الله عليه ، ورؤية تقصيره في شكره ، فإن قيل : كيف قال النبي ﷺ : « **من لا حياء له فلا إيمان له** » ؟ [٤] ؛ قيل : الحياء أول ما يظهر في الإنسان من أمارة العقل ، والإيمان آخر مرتبة العقل ، ومحال حصول آخر مرتبة العقل لمن لم يحصل له المرتبة الأولى فبالواجب إذا كان من لا حياء له فلا إيمان له . وقال عليه الصلاة والسلام : « **الحياء شعبة من الإيمان** » [٥] ، وقال : « **الإيمان عريان**

---

(١) « حتى كأنه يراه فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه » سقطت من (ط) ، وهي توضيحية في السياق . ومترتب عليها ما بعدها .

(٢) جزء من حديث طويل رواه الطبراني وأبو نعيم عن الحكم بن عمر ، وورد بألفاظ قريبة رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود . كشف الخفاء (١٢٥/١) حديث (٣٥١) .

(٣) أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي من زهاد القرن الثالث الهجري ، وكان موضع تقدير الفقهاء في عصره ، ويسمى إمام الطائف لضبط مذهبه بالكتاب والسنة ، وترجم له ابن الجوزي في صفة الصفوة ، وتوفي على أرجح الآراء (٢٩٨هـ) . انظر صفة الصفوة (٢٣٥/٢) ، الأعلام (١٣٧/٢ ، ١٣٨) .

(٤) « **لا إيمان لمن لا حياء له** » قال ابن الفرس ضعيف ، وفي إسناده من لم يعرف . كشف الخفاء (٣٧٥/٢) حديث (٣١٣٧) .

(٥) رواه مسلم : الإيمان ، باب شعب الإيمان ، حديث (٣٥) .

ولباسه التقوى وزينته الحياء » [١] .

كبر الهمة

وأما كبر الهمة : فمختص بالإنسان ، فأما الحيوانات فكل جنس يتحرى الفعل بقدر ما في طبعه ، وهو خال بين التفنج وصغر الهمة ، فالتفنج تأهل الإنسان لما لا يستحقه وهو البذخ ، وصغر الهمة تركه لما يستحقه وهو الدناءة ، وكلاهما مذمومان ؛ لكن المتفنج جاهل أحمق ، والصغير الهمة جاهل غير أحمق ، وليس لكبر الهمة إفراط مذموم في الحقيقة ، وإنما الإفراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس بصورة علو الهمة له وليس كذلك ، واعلم أنه قد يقال : فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة ؛ إذا كان أحدهما يطلب مقتنى أكثر أو أشرف مما يطلبه الآخر ، والكبير الهمة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد عارية بطنه وفرجه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من خلفاء اللّٰه وأوليائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة . والصغير الهمة من كان على الضد من ذلك ، وقال أعرابي : فلان عظمه صغر الدنيا في عينيه ، فكان خارجًا من سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وخارجًا من سلطان فرجه فلا يستخف له رأيًا ولا بدنًا ، وحق الإنسان أن يتلطف عن ذلك فإنه وإن كان بعنصره حيوانًا فهو بعقله وفكره مَلَك ، وإذا ضيع نفسه صار شرًّا من البهيمة ، وذلك هو الخسران المبين ، وقد قيل : من عظمت همته لم يرضَ بقنية مستردة وحياة مستعارة . فإن أمكنك أن تقتني قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل ، فلا اعتداد بما له فناء .

والكبير الهمة على الإطلاق من يتحرى الفضائل لا لجاه ولا لثروة ولا للذة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية ، بل يتحرى مصالح العباد شاكرًا بذلك نعمة اللّٰه ، ومتوخيًا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه ، فإنه إذا عظم المطلوب قل المساعد ، وطريق العلاء قليلة الأناس .

الوفاء والغدر

الوفاء : أخو الصدق والعدل ، **والغدر** : أخو الكذب والجور ؛ وذلك أن الوفاء صدق اللسان والفعل معًا ، والغدر كذب بهما ؛ لأن فيه مع الكذب نقض العهد .

والوفاء يختص بالإنسان فمن فقد فيه فقد انسلخ من الإنسانية كالصدق ، وقد جعل

---

(١) سبق تخريجه .

اللَّه تعالى العهد من الإيمان ، وصيره قوامًا لأمور الناس ، فالناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء ، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفع التعايش ؛ ولذلك عظم اللَّه تعالى أمره فقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ [النحل : ٩١] ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] ، أي : نزه نفسك عن الغدر ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المعارج : ٣٢] ، وقد عظم حال السموأل فيما التزم به من الوفاء بدروع امرئ القيس (١) ؛ ولقلة وجود ذلك في الناس قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] ، وقد ضرب به المثل في العزة فقيل : هو أعز من الوفاء . قال الشاعر :

أبى الناس إلا ذميم الفعال إذا جربوا وقبيح الكذب

المشاورة

اشتقاقها من شرت الدابة إذا استخرجت جريها ، وهي استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور ، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها (٢) ونعم العدة هي ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه : « المشاورة حصن من الندامة وأمن عن الملامة » (٣) ، وقيل : الأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة ، والرأي الواحد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة إصرار لا ينقض ، وكفاك بمدحها قول اللَّه تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقد استحسن الحكماء قول بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم (٤)

---

(١) السموأل بن عريض بن عادياء الأزدي ، شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر ، وهو الذي ينسب إليه قصة الوفاء مع امرئ القيس ، الأعلام (١٤٠/٣) . توفي نحو (٦٥ق . الهجرة) . وامرؤ القيس هو : حجر الحارث الكندي من بني آكل المرار ، كان أبوه ملكًا على أسد وغطفان ، وظل حندج (امرؤ القيس) لاهيًا حتى قتل بنو أسد أباه فنهض للثأر وطارده الفرس لعداء قديم ، فتفرق عنه أنصاره ، ثم لجأ إلى السموأل فأجاره ومكث عنده مدة ، ثم انتقل إلى أنقرة ومات بها ، واختلف في عقيدته فرجح أنها المزدكية ، وتوفي نحو (٨٠ ق . الهجرة) . الأعلام (١٢/٢) .

(٢) « وتركها » سقطت من (ط) مع أن لفظ « بين » يستلزمها .

(٣) نفس المعنى مع تغير قليل في اللفظ . نهج البلاغة (٣٨٩) .

(٤) ديوان بشار (١٧٢/٤) .

لكن اعتبار من تجوز أن تعتمد مشاورته صعب جدًّا ، فإنه يحتاج أن يكون صديقًا أمينًا مجربًا حازمًا ناصحًا رابط الجأش غير معجب بنفسه ولا متلون في رأيه ولا كاذب في مقاله ، فمن كذب لسانه كذب رأيه ، ويجب أن يكون فارغ البال في وقت ما يستشار وقد أحسن بشار حيث قال :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحــه ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

النصح

النصح : أصله من نصحت الثوب إذا خطته ، وهو إخلاص المحبة لغيره في إظهار ما فيه صلاحه ، وهو دون [(١)] المحبة المختصة بالفضيلة ودون محبة النفع واللذة ، وقد عظم النبي ﷺ أمره فقال ﷺ : « **الدين النصيحة** » فقيل : لمن يا رسول اللَّه ، فقال : « **للَّه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم** » [(٢)] فبين ﷺ أن النصح واجب لكافة الناس ، وذلك بأن تتحرى مصلحتهم في جميع أمورهم بقدر وسعك .

وأول النصح أن ينصح الإنسان نفسه فمن غشها فقلما ينصح غيره ، وحق من استنصح أن يبذل غاية النصح وإن كان ذلك في شيء يضره ، ويتحرى فيه قول اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء : ١٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يزال الرجل يزداد في صحة رأيه ما نصح لمستشيره ، فإذا غشه سلبه اللَّه نصحه ورأيه ، ولا يلتفتن إلى من قال : إذا نصحت الرجل فلم يقبل منك فتقرب إلى اللَّه بغشه ، فذلك قول ألقاه الشيطان على لسانه ، اللَّهم إلا أن يريد بغشه السكوت عنه ، فقد قيل : كثرة النصيحة تورث الظنة .

ومعرفة الناصح من الغاش المستنصح صعبة جدًّا ، فالإنسان المكره يصعب الاطلاع على سره ؛ إذ هو قد يبدي خلاف ما يخفي ، وليس كالحيوانات التي يمكن أن تطلع على طبائعها .

---

(١) في (أ) ، (د) هكذا ، وفي (ط) : « ذوب المحبة » .

(٢) رواه البخاري في باب قول النبي ﷺ : « **الدين النصيحة** » ، وقال ابن حجر : لم يرده البخاري بسنده ؛ لأنه على غير شرطه ولكنه أورده بابًا دليلًا على صلاحيته في الجملة . فتح الباري (١) كتاب الإيمان ، باب (٤٢) .

كتمان السر

السر ضربان :

أحدهما : ما يلقي الإنسان من حديث يستكتم وذلك إما : لفظًا كقولك لغيرك : اكتم ما أقول لك ، وإما : حالًا وهو أن يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده ، أو يخفض صوته أو يخفيه عن مجالسيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدَّثك الإنسان بحديث فالتفت فهو أمانة .

والثاني : أن يكون حديثًا في نفسك بما تستقبح إشاعته أو شيئًا تريد فعله ، وإلى الأول من ذلك أشار النبي بقوله ﷺ : « **من أتى منكم من هذه القاذورات شيئًا فليستتر بستر الله** » [١] ، وإلى الثاني أشار من قال : « **من وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه** » . وكتمان النوع الأول من الوفاء ويختص بعامة الناس ، والثاني من الحزم والاحتياط ، وهو مختص بالملوك وأصحاب السياسات . وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر ، وتوصف به ضعفة الرجال والصبيان والنساء ، والسبب في أنه يصعب كتمان السر هو أن للإنسان قوتين : آخذة ، ومعطية . وكلتاهما تتشوف إلى الفعل المختص بها ، ولولا أن الله تعالى وكَّل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبار من لم تزوده ، فصارت هذه القوة تتشوف إلى فعلها الخاص بها ؛ (فعلى الإنسان أن يمسكها ولا يطلقها إلى حيث ما يجب) [٢] إطلاقها ولا يخدعنك عن سرك قول من قال :

وأكتم السـر فيه ضربة العنق

وقول من ينشدك :

ويكاتم الأسرار حتى كأنه ليصونها عن أن تمر بباله

فذلك قول من يستنزلك عما في قلبك ، فإذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك ، فقد قيل : الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر ، وما أصدق من أنبأ عن حقيقة حاله حيث قال له صديقه : أريد أن أفشي إليك سرًّا تحفظه عليَّ ، فقال : لا أريد أن أوذي قلبي بنجواك ، وأجعل صدري خزانة شكواك ، فيقلقني ما

---

(١) قال عنه الحافظ العراقي : الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ : « **اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله** » . وإسناده حسن .

(٢) « فعلى الإنسان أن يمسكها ولا يطلقها إلى حيث ما يجب » سقطت من (ط) وحدها .

أقلقك ، ويؤرقني ما أرقك ، فتبيت بإفشائه مستريحًا ، ويبيت قلبي بحره جريحًا .
وقد قيل : أكثر ما يستنزل الإنسان عن سره في ثلاثة مواضع : عند الاضطجاع على فراشه ، وعند خلوه بعِرْسه ، وفي حال سكره . ومن حق من يسارر غيره أن يجتنب المحافل لأمرين :

أحدهما : حذرًا من أن يساء به الظن فهذا يقول : قد اغتابني ، وذا يستريب ، وذا يتهم .

والثاني : أنه ربما يتتبع بالفحص فيطلع على مراده ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ؛ فإن ذلك يحزنه** » [١] .

التواضع والكبر

التواضع : اشتقاقه من الضعة وهو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته . وفضيلته لا تكاد تظهر في أفناء الناس [٢] لانحطاط درجتهم ، وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلَّاء الناس وعلمائهم وهو من باب التفضل ؛ لأنه ترك بعض حقه . وهو من التوسط بين الكبر والضعة .

والضعة : وضع الإنسان نفسه مكانًا يزرى به بتضييع حقه .

والكبر : رفع نفسه فوق قدره .

والفرق بين التواضع والخشوع : أن التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع ، وأيضًا فالتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة . والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح ؛ ولذلك قيل : إذا تواضع القلب خشعت الجوارح ، وقال تعالى : ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ [القلم : ٤٣] ، وقال : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه : ١٠٨] ، وقد عظم النبي ﷺ التواضع ومدحه فقال : « **طوبى لمن تواضع في غير منقصة ، وذل في نفسه من غير مسكنة** » [٣] ، وقد قيل لـ(بزرجمهر) [٤] : هل تعرف نعمة لا يُحسد صاحبها عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ فقال : نعم أما النعمة

---

(١) رواه البخاري بدون « فإن ذلك يحزنه » وبلفظ : « وإذا كنتم » . فتح الباري (١١/٨١) .

(٢) يقال : هم من أفناء الناس لا يدري من أي قبيلة هم . المعجم الوسيط (٢/٧١١) .

(٣) رواه البخاري في التاريخ ، والبغوي وابن قانع وغيرهم ، ورمز السيوطي لحسنه ، واعترضه المناوي فقال : وليس بحسن كما قال الذهبي . وقال في الإصابة : حديث سنده ضعيف . كشف الخفاء (٢/٤٥) حديث (١٦٦٧) .

(٤) بزر جمهر بن يختكان المروي كان وزيرًا للملك الساساني أنوشروان ، تنسب الأساطير له حكمًا كثيرة . دائرة المعارف الإسلامية (٣/٦١٦) .

فالتواضع ، وأما البلاء فالكبر . وقال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكبر مع الأدب والسخاء ، فأنبل بحسنة غطت على سيئتين ، وأقبح بسيئة غطت على حسنتين ، فالكبر هو ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار لذلك وهذه صفة لا يستحقها إلا اللّه تعالى ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ؛ ولذلك صار مدحًا في حق الباري ﷻ وذمًّا في البشر ، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية ، كما قال تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] تنبيهًا على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة ، والمتكبر والضرع [١] كلاهما جاهلان ، لكن الضرع غبي والمتكبر غبي أحمق ، وشتان ما بينهما ؛ فالغبي قد يتأدب ، والأحمق لا سبيل له إلى تأديبه ؛ ولأن الضرع قد ترك ما له ، والمتكبر ادعى ما ليس له ، وشتان ما بين المنزلتين ، ولأن الكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ؛ ولذلك عظم اللّه تعالى أمره فقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] ، وقال : ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] ، وقال النبي ﷺ : « يقول اللّه ﷻ : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في نار جهنم » [٢] ، وقد نبّه ﷻ على مبلغ فعله أحسن تنبيه فقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وأقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « **خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل والكبر** » [٣] واستحسن قول الشاعر :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأفعال المماليك

ومن تكبر لرياسة نالها دل ذلك على دناءة عنصره ، ومن تفكر في تركيب ذاته ، فعرف مبدأه ومنتهاه وأوساطه عرف نقصه ، ورفض كبره ، وقد نبه اللّه ﷻ على ذلك أحسن تنبيه بقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق ٥ - ٧] ،

---

(١) تدل على معان عدة في دائرة الصغر والضعف والجبن . لسان العرب : ضرع (٢/٥٣٠) .

(٢) بلفظة مع « قذفته في النار » رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه عن أبي هريرة . عبد الرؤوف المناوي : الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية : حديث (٩٢) . كشف الخفاء (٢/١٠٢) .

(٣) روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق** » ، وليس الكبر . وقال عنه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صدقة بن موسى وفي =

وبقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس ١٧ - ١٩] ، ثم قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] وإلى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد اللّه بن الشخير [١] لما قال ليزيد بن المهلب : (أولك نطفة مذرة وأخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة) [٢] ، وأخذ ذلك الشاعر فقال :

كيف يزهي من رجيعه أبد الدهر ضجيعه

وقال غيره : يا قريب العهد بالمخرج لم لا تتواضع . فمن كان تكبره لقنيته فليعلم أن ذلك ظل زائل وعارية مستردة .

والاستطالة : إظهار الطول فمن أظهر ذلك من غير طول فهو منسلخ عن الإنسانية ومن أظهر ذلك مع الطول فقد ضيع طوله . **والصلف** : يقال اعتبارًا بميل في عنقه . **والصعر** : بميل في خده ؛ ولذلك استعمل في ذلك ليُّ الرأس نحو قوله تعالى : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٥] . **والباء** : استقصاء في النفس بالترفع عن الانقياد للواجب ، **والخيلاء** : أن يظن بنفسه ما ليس فيها من قولهم : خلت ، ولتصور هذا المعنى قال **حكيم** : إعجاب المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوة فيظهر فرحه بها . **والزهو** : هو الاستخفاف من الفرح بنفسه ، **وأما العزة** : فالترفع بنفسه عما يلحقه غضاضة ، وأصلها من العزاز ، وهي الأرض الصلبة ، والعزاز : حصوله في عزاز لا يلحقه فيه غضاضة كالمتظلف في كونه في ظلف من الأرض لا يلحقه فيه مذلة ، **والعزة** : منزلة شريفة وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض **الدنيوية** ، كما أن الكبر نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه وإنزالها فوق منزلتها . وكثيرًا ما يتصور أحدهما بصورة الآخر ؛ كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة ، وتصور الإسراف بصورة الجود ، وتصور البخل بصورة الحزم ؛ ولهذا قال الحسن - رحمه اللّه تعالى - لمن قال له : ما أعظمك في نفسك ، فقال : لست بعظيم ولكني عزيز ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ،

= الباب عن أبي هريرة . الترمذي : البر باب (٤١) حديث (١٩٦٢) .

(١) مطرف بن عبد اللّه من عباد البصرة ، توفي في ولاية الحجاج العراق بعد الطاعون ، وكان مطرف أكبر من الحسن البصري بعشرين سنة . صفة الصفوة (٣/٢٢٢) ، ويزيد بن المهلب هو : يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي قائد شجاع ، ولي خراسان بعد وفاة أبيه سنة (٨٣هـ) ، وتعرض للسجن والعزل في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر ابن عبد العزيز ، ثم قتل في حرب مع مسلمة بن عبد الملك سنة (١٠٢هـ) . الأعلام (٨/١٩٠) .

(٢) من « أولك نطفة » إلى « تحمل العذرة » سقط من (ط) .

وقال النبي ﷺ : « **لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه** » [١] .

ولما قلنا : قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع تنبيهًا أن هذا التكبر في الحقيقة عز النفس ؛ ولأجل أن هذا التكبر غير مذموم ، قال تعالى : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] فشرط غير الحق ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعًا فيه ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه .

الفخر

الفخر : هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان ، وذلك نهاية الحمق ، فمن نظر بعين عقله وانحسر عنه قناع جهله علم أن أعراض الدنيا عارية مستردة ، لا يؤمن في كل ساعة أن تسترجع ، فالمباهي بها مباهاة بغير ثراه ، ومتبجح بما في يد سواه كالفاخرة بجدح [٢] ربَّتها ، بل هو أدون من ذلك .

فقد قال بعض الحكماء لمن يفتخر بثرائه : إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك ، (وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لهما دونك) [٣] ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت : هذه محاسننا فما لك من الحسن ، وأيضًا فالأعراض الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع ، وظل زائل عن قليل يضمحل ويزول ، كما قيل :

إنما الدنيا كرؤيا فرحت ... من رآها ساعة ثم انقضت

بل كما قال الله عز وجل : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ٤٥] . فإن افتخرت فافتخر بمعنى فيك غير خارج عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء ، فاذكر فناءك وبقاءه أو بقاءك وزواله أو فناءكما جميعًا ، فإذا راقك ما هو لك ، فانظر إلى قرب خروجه من يدك ، وتعذر رجوعه إليك ، وطول حسابك عليه إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وقد ذم الله تعالى الفخور فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] .

---

(١) رواه ابن ماجه : الفتن (٢١) حديث (٤٠١٦) (٢/١٣٣٢) .

(٢) جدح السويق وغيره في الماء جدحًا : خلطه وحركه وخوض فيه بالمجدح ، وفي المثل : « جدح جوين من سويق غيره » يضرب لمن يتوسع في مال غيره ويجود به . المعجم الوسيط (١/١٠٩) .

(٣) « وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لهما دونك » سقطت من (ط) وحدها .

العجب

العجب : ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ؛ ولهذا قال أعرابي لرجل رآه معجبًا بنفسه : يسرني أن أكون عند الناس مثلك عند نفسك ، وأكون في نفسي مثلك عند الناس ، فتمنى حقيقة ما يقدره المخاطب ، ورأى أن ذلك إنما يتم حسنه متى عرف هو عيوب نفسه ، وقد قيل للحسن : من شر الناس ؟ فقال : من يرى أنه أفضلهم ، وقال بعضهم : الكاذب في نهاية البعد من الفضل ، والمرائي أسوأ حالًا منه ؛ لأنه يكذب بفعله وقوله ، والمعجب أسوأ حالًا منهما ، فإنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه ، والمعجب عمي عن مساوئ نفسه ورآها محاسن وسرَّ بها ، قال : ولأن المرائي والكاذب قد ينتفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من مكان في البحر (فبشرهم بتجاوزه قبل أن يجاوزه ؛ لئلا يضطربوا خوف الغرق)[1] فيؤدي ذلك بهم إلى العطب ، وقد يحمد رياء الرئيس إذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير ، والمعجب لا حظ له في ذلك بوجه ؛ ولأنك إذا وعظت المرائي والكاذب فنفسهما تصدقك وتبكتهما لمعرفتهما بنقصهما ، والمعجب لجهله بنفسه يظنك في وعظه مغاليًا فلا ينتفع بمقالك ، وإيَّاه قصد تعالى بقوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر : ٨] تنبيهًا أنهم لا يقلعون لإعجابهم ، وقال النبي ﷺ : « **ثلاث مهلكات : شح ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** »[2] ، وقد قال إبليس : إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها : إذا عجب بنفسه ، واستكثر عمله ونسي ذنوبه ، وكما أن المعجب بفرسه وإن كان رديئًا لا يروم أن يستبدل به غيره ، كذلك المعجب بنفسه لا يريد بحاله وإن كانت رديئة بدلًا ، وأصل الإعجاب من حب الإنسان نفسه ، وقد قال عليه السلام : « **حبك الشيء يعمي ويصم** »[3] ومن عمي وصم تعذر عليه رؤية عيوبه ، فيجب علينا أن نجعل على أنفسنا عيونًا تعرفنا عيوبنا بحق . قال عمر رضي الله تعالى عنه : « رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي » ، ويجب على الإنسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع إلى نفسه فإن رأى فيها مثل ذلك أزاله ولا يغفل عنه . شعر :

فمن جهلت نفسه قدره ... رأى غيره منه ما لا يرى

---

(١) « فبشرهم بتجاوزه قبل أن يجاوزه ؛ لئلا يضطربوا خوف الغرق » سقطت من (ط) وحدها .

(٢) رواه البزار والطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف من حديث أنس ، والطبراني بلفظ فيه زيادة عن ابن عمر . كشف الخفاء (١/٣٢٣) حديث (١٠٣٥) .

(٣) سبق تخريجه .

والتيه : قريب من العجب لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهمًا ، والتايه يصدقها قطعًا كأنه متحير في تيه .

أنواع اللذات وتفاصيلها

للذة إدراك المشتهى والشهوة انبعاث الحس لنيل ما يتشوقه ، وهي ثلاث : بحسب القوى الثلاث ، وبحسب المقتنيات الثلاث : **لذة عقلية** : وهي التي يختص الإنسان بها كلذة العلم والحكمة ، **ولذة بدنية** : يشارك فيها جميع الحيوان الإنسان ، كلذة المأكل والمشرب والمنكح ، ولذة مشتركة بين بعض الحيوان وبين الإنسان كلذة الرياسة والغلبة .

وأشرفها وأقلها وجودًا اللذة العقلية فشرفها أنها لا تمل ولا تبتذل لكن لا يعرفها إلا من تخصص بها كالحكمة لا يستلذها إلا الحكيم . وأدون اللذات منزلةً وأكثرها وجودًا اللذة البدنية فكل إنسان يتشوقها وكل حيوان ، لكنها تمل تارة وتراد تارة ، وهي من وجه مداواة من آلام ومن وجهٍ هي آلام ، وعلى هذا قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف الإنسان : صريع جوع وقتيل شبع .

وجميع اللذات تنقسم عشرة أقسام : مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومشموم ومسموع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات وما أشبهها ، وقد جعل ذلك سبعة فأدخل المركب والمرفق والخادم وما يجري مجرى ذلك في جملة المبصرات ، وعلى ذلك روي عن أمير المؤمنين علي كرم اللّٰه وجهه حيث قال لعمار بن ياسر وقد رآه يتنفس فقال : « يا عمار على ماذا تنفسك ؟ إن كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك ، وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك ؛ فإني وجدت لذاتها سبع : المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات ، فأما المأكولات : فأفضلها العسل وهو صنعة ذباب ، وأما المشروبات : فأفضلها الماء وهو مباح أهون موجود وأعز مفقود ، وأما المنكوحات : فمبال في مبال وحسبك أن المرأة تزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها ، وأما الملبوسات : فأفضلها الديباج وهو نسج دودة ، وأما المشمومات : فأفضلها المسك ، وهو دم فأرة ، وأما المسموعات : فريح هابة في الهواء ، وأما المبصرات : فخيالات صائرة إلى الفناء »[1] ، وقد ذكر اللّٰه تعالى أصل ذلك في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) لم أقف على هذه العبارة من كلام الإمام علي في أي من مظانه .

ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [آل عمران : ١٤] والمشار إليه بحرث الدنيا إلى هذه الأشياء السبعة على ما ذكرناه عن علي كرم الله وجهه ، والعشرة على ما ذكره غيره ، وكلا القولين في التحصيل واحد ، والمراد بالنساء : اقتناؤهن والاستكثار منهن ، وبالبنين : الذكور من الأولاد والحفدة والخدم ، وبالأنعام : الأزواج الثمانية ، وبالخيل : المسومة السائمة منها والمستعد ، واعلم أن الذي هو ضرورة للإنسان من هذه اللذات ولا قوام له في هذه الدنيا إلا به ما هو مشترك بينه وبين جنسه من الحيوان من المأكل والمشرب ويجمعهما اسم الغذاء والمنكح ، فبالغذاء بقاء الأشخاص ، وبالنكاح بقاء الأنواع ؛ ولذلك صارت الحاجة إليهما ضرورية وصار تناولهما لا بد منه ، وسائر اللذات مخصوص بها الإنسان وليس بضروري له ويتناوله بفكره ، وتأنف الملوك من هذه الملاذ إلا اثنتين : السماع ؛ لكونه من وجه لذة روحانية ، والبناء ؛ لكونه دالًّا على الهمة الرفيعة ، ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت أم بدنية يقال لها : الحرص فقط ، والحريص قد يكون محمودًا ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها : الشره سواء كان مالًا أو طعامًا أو نكاحًا ، ومتى كانت للطعام قيل لها : النهم ، فإذا كانت للنكاح قيل لها : الشبق ، وثلاثتها – أعني الشبق والنهم والشره – مذمومة وما روي من قوله عليه السلام : « **منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم** » [1] فالنهم في العلم استعارة وهو أن يحمل على نفسه ما تقصر قواها عنه فينبت ، وقد قال عليه السلام : « **إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى** » [2] .

فيما يحسن تناوله من المطعم وما يقبح منه

الغذاء ضربان : أحدهما : ما لا يستغنى عنه في تربية البدن كالطعام الذي به يتغذى والماء الذي به يروى ، والإنسان إذا تناول من ذلك مقدار لا يمكن التبلغ بأقل منه على ما يجب وكما يجب فهو معذور ، بل مشكور ومأجور ، وعلى هذا ما روي عند أكل الصالحين تنزل الرحمة ، وحقه أن يتناوله تناول مضطر عالم بقذارة مآله ، وأن يرى إدخاله في نفسه كدخول المستراح ، ويتحقق أن نسبة الإنسان إلى الثمار والفواكه نسبة الجعل إلى الروث ، فلو نطق الشجر لقال : لك أنت تأكل فضالتي كما يأكل الجعل فضالتك ، والخنزير إذا استطاب لفاظة الإنسان فما هو إلا كاستطابتنا لفاظة الشجر ،

(١) رواه الدارمي في سننه عن طاووس عن ابن عباس بلفظ « **منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا** » سنن الدارمي (١/٩٦) ، ونهج البلاغة (٤٢٤) . وقال عنه العراقي : رواه الطبراني عن ابن مسعود بسند ضعيف .
(٢) رواه أحمد من حديث أنس ، والبيهقي من حديث جابر . مسند أحمد (٣/١٩٩) .

وبهذا تعلم أن شرف المطعم والمشرب بالإضافة لا بالإطلاق ، فألقِ يا إنسان عن مناكبك الدثار وجل البصيرة ، واستعمل الاعتبار تجد صدق ما قلت . ومن تناول من الطعام أكثر من ذلك كره له طبًّا وشرعًا ، أما طبًّا فيدل عليه قول الشاعر :

فـإن الـداء أكـثـر مـا تـراه ... يكون من الطعام أو الشراب [١]

وقد قال النبي ﷺ : « **البطنة أصل الداء ، والحمية أصل الدواء ، وعود كل بدن ما اعتاد** » [٢] ، قال ابن زكريا المتطبب : ما ترك النبي ﷺ في الطب شيئًا إلا وأتى به في هذه الكلمات الثلاث . وأما شرعًا فقد قال ﷺ : « **ما من وعاء أبغض إلى الله من بطن مليء من حلال** » [٣] وذاك أن امتلاء البطن مقوٍ للشهوة ، وقوة الشهوة داعية للهوى ، والهوى أعظم جند للشيطان ، ومن آثر هواه وانتشر في بدنه حل في كل عضو منه جزء بقدر وسعه له فكثر جنود الشيطان ، والشيطان إذا تسلط على الإنسان سباه من ربه وصرفه عن بابه ، وقد قيل لحكيم : ما بالك مع كبرك لا تتفقد بدنك وقد انهد ؟ فقال : لأنه سريع المرح فاحش الأشر ، فأخاف أن يجمع بي فيورطني ؛ ولأن أحمله على الشدائد أحب إليَّ من أن يحملني على الفواحش .

والضرب الثاني من المطعم : ما يستغنى عنه ولو توهمناه مفقودًا لم يختل بافتقاده البدن ، وأعظمه ضررًا المسكر فنفعه ليس بضروري (وتناوله تسهيل لطريق الشيطان إلى تهييج القوة السبعية وإثارة سلطان الهوى) [٤] ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [المائدة : ٩١] ، وقد قيل : حيث يسكن الشراب واللهو لا تسكن العفة والحكمة . فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] فلم

---

(١) هو لابن الرومي . ديوان ابن الرومي تحقيق د . حسين نصار / القاهرة (١٩٧٣م) (٢٣١/١) .

(٢) قال الألباني : لا أصل له ، وقال بعضهم : إنه مرفوع ، والغالب أنه لا يصح ، وقال العراقي : لم أجد له أصلًا ، قال صاحب المقاصد : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ ، بل هو كلام طبيب العرب الحرث بن كلدة . فهو قول حكيم وليس بحديث . انظر : الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢٥٢/١) ، كشف الخفاء (٢١٤/٢) حديث (٢٣٢٠) .

(٣) هو في معنى ما رواه الترمذي عن مقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطن بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » . قال عنه : هذا حديث حسن صحيح . الترمذي : الزهد ، باب (٤٧) حديث (٢٣٨٠) .

(٤) من « وتناوله تسهيل لطريق الشيطان إلى تهييج القوة السبعية وإثارة سلطان الهوى » سقطت من (ط) وحدها .

يخص من الحلال قدرًا دون قدر ولا جنسًا دون جنس ؟ قيل : الطيب التام الطيب هو الذي جمع اللذة والنفع والفضيلة ، وذلك هو القدر المتبلغ به على ما يجب وكما يجب ، ألا ترى كيف ذم من لم يكن ذلك قصده ، فقال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] ، ومن الدلالة على خسة كثرة الأكل : ادعاء العامة الاستغناء بالقليل ، وقلة وجود المفتخر بكثرة الأكل ، وقد قيل : من كانت همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه ، وقد استحسن قول الشاعر :

فإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا [١]

وقد قال ﷺ : « **حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس** » [٢] ، وقال ﷺ : « **المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء** » [٣] فنبه في الخبرين أنه لا يستحب للإنسان إلا الأكل في سبع بطنه ، وهو ما ذكره من اللقيمات ، وذلك دون عشر لقيمات ؛ لأن جمع القلة بالألف والتاء لما دون العشرة ، ثم رخص لمن غلب عليه النهم أن يبلغ إلى ثلث بطنه ، فحصل من ذلك أن أكل المؤمن في اليوم ينبغي أن يكون سبع بطنه أو ثلث [٤] بطنه .

فيما يحسن من المنكح وما يقبح منه

قد تقدم أن النكاح ضروري في حفظ النسل وبقاء النوع الإنساني كما أن الغذاء ضروري في حفظ الشخص ؛ ولذلك قال ﷺ : « **تناكحوا تكاثروا ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة** » [٥] ، وقال ﷺ : « **خير نسائكم الودود الولود** » [٦] ، وقال :

(١) سبق تخريجه .

(٢) ديوان حاتم الطائي : صادر بيروت (١٩٧٤م) (ص ٦٨) .

(٣) رواه البخاري من طرق عديدة .

البخاري أطعمة (٢) حديث (٥٣٩٣ - ٥٣٩٧) ، فتح الباري (٥٣٦/٩) .

(٤) في (ط) : « بحسب شبع بطنه ثلثه » ، وواضح أن الكلام تلخيص لما سبق وهو إما السبع وإما الثلث .

(٥) اللفظ هنا تختلف فيه النسخ بالزيادة والنقصان . ولكن الحديث : « **تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط** » . قال عنه العراقي : أخرجه أبو بكر بن مردوسة في تفسيره من حديث ابن عمر دون « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف ، وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه . الإحياء كتاب النكاح ، كشف الخفاء (٣١٨/١) .

(٦) « **خير نسائكم الولود الودود** » أخرجه البيهقي من حديث أبي أذينة الصدفي ، فقال البيهقي : وروي =

« **سوداء ولود خير من حسناء عقيم** » [(١)] ؛ ولقصد النسل حظر إتيان النساء في محاشها ، وعلى هذا نبه قوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] فنبه على أنه لا يجوز إتيانها إلا حيث المحرث ، وكره العزل تأكيدًا للمقصود من النكاح ، وعلى ذلك دلَّ قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

وتحري النكاح على ضربين :

أحدهما : على الوجه الذي سنَّه الشرع ، وذلك إما محمود وهو أن يتعاطاه قاصدًا به النسل أو مزيلًا للضرر عنه على ما يجب أو مسكنًا لنفسه ، فالماء إذا اجتمع في مقره (يجري مجرى مدة وقيح من جرح يعظم لحبسه الضرر) [(٢)] ، ويدعو صاحبه إلى ما هو في الشرع محرم ، أو مكروه طبًا وإن لم يكن قد كره شرعًا ، وذلك أن يتعاطاه المرء فضلًا عما تقدم ذكره فإنه ينفذ العمر ، ويستنفذ القوى ، ويوسع أوعية المني ويجلب إليه دمًا كثيرًا ، ويزيده شهوة ، وأعظم فائدة فيه أن يلحق صاحبه بأفق البهائم من التيوس والثيران وغيرها مما يوصف بالشبق [(٣)] .

والضرب الثاني : هو أن يكون على غير الوجه المشروع ، وذلك ضربان :

أحدهما : تعاطيه في المحرث ، ولكن لا على الوجه الذي يجب وكما يجب كالزنا ، وقد عظم اللَّه أمره فقرنه مرة بالشرك فقال : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ [النور : ٣] ، ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس المحرمة فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وسمي ذلك سفاحًا من حيث إن المجتمعين عليه لا غرض لهما سوى سفح الماء للشهوة كمن ضيع ماء في غير حرثه .

والثاني : تعاطيه في غير المحرث كاللواطة ، وهي أعظم من الزنى ؛ لأن الزنى وضع البذر في المحرث على غير الوجه المأمور به ، فهو كمن يزرع في أرض غيره أو على غير

= بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلًا . الإحياء : النكاح ، كشف الخفاء (٣١٨/١ ، ٣٠٤) .

(١) « **سوداء ولود خير من حسناء لا تلد** » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، ولا يصح .

(٢) « يجري مجرى مدة وقيح من جرح يعظم لحبسه الضرر » سقط من (ط) وحدها .

(٣) عبارة الراغب هنا في بيان آثار المبالغة في النكاح تكاد تكون نص عبارة أبي بكر الرازي (ت ٣١٣ هـ) في الطب الروحاني مما يفيد أنه أفاد منه وبخاصةً فيما يمس المسائل الطبية ؛ إذ في غيرها وجدت شبهًا لا يقضي بالتأثر ؛ لأن لكل من الرازي والراغب منهجه ومنطلقه : انظر : الطب الروحاني للرازي (٩٧) تحقيق الدكتور عبد اللطيف العبد : النهضة المصرية (١٩٧٨م) .

الوجه الذي يجوز أن يزرع فيها ، وفي اللواطة مع ذلك تضييع البذر فمتعاطيها ممن قال اللَّه تعالى فيه : ﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ؛ ولهذا وصف اللَّه تعالى قوم لوط بالإسراف فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] .

وأما العشق الشهوي فحماقة وجهل بما وضع لأجله الجماع ، وتجاوز لحد البهائم في عدم ملكة النفس وذم الهوى ؛ فإن المتعشق لم يرض بإرادة لذة الباه التي هي من أسمج الشهوات حتى أرادها من موضع واحد ، فازداد بذلك عبودية على عبودية وذلة على ذلة ، فالبهيمة أحسن حالًا منه ؛ لأنها إذا أسقطت الأذى عن نفسها بالسفاد سكنت فصارت إلى الراحة وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة واستجلابها ، وإنما أعطاه اللَّه تعالى العقل ليقمع به الشهوة القبيحة ، لا ليجعله خادمًا لها وساعيًا في حمقتها ، فتعاطي العشق حال كل جاهل فارغ ، سيما إذا نظر في أخبار العشاق وجالسهم ، وربما يؤدي بالعاشق الحال إلى الرق ، والذبول ؛ بل إلى الموت . قال الشاعر :

لو فكر العاشق في منتهى   حسن الذي يسبيه لم يسبه

ومن أثار شهوته فهو كمن يثير بهائم عادية وسباعًا ضارية ، ثم يلتمس دفعها وقمعها والخلاص من شرها ، وقد كان فيما يهيج من باعث الطبيعة كفاية عن إثارتك بالفكرة والروية ، فمن أعان الطبيعة على ذلك فهو كما قيل :

كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء في القناة سنانا [(١)]

وقد قال حكيم لتلميذ له وقد كان هوي جارية : هل تشك في أنك لا بد أن تفارقها يومًا ما ؟ [(٢)] . فقال : لا ، قال : فاجعل تلك المرارة المتجرعة في ذلك اليوم في يومك هذا واربح ما بينهما [(٣)] من الخوف المنتظر ، وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الألفة إليه ، وقيل لبعض الحكماء : ما العشق ؟ فقال : جنون لا يؤجر صاحبه عليه . وسئل آخر عنه فقال : مرض نفس فارغة لا همة لها ، وقال غيره : هو سوء اختيار صادف نفسًا فارغة ؛ فأشاروا كلهم إلى معنى واحد .

---

(١) ديوان المتنبي (٤٧٤) .

(٢) حاولنا هنا أن نقيم عبارة مستقيمة من جميع النسخ .

(٣) في (ط) : « وارتح ما بينهما من هول اليوم المنتظر » ، والمعنى : أنه يربح الراحة من الخوف وهذا لا يوافقه .

العفة

العفة لا تتعلق إلا بالقوة الشهوية ، (ولا تتعلق من القوة الشهوية إلا بالملاذ)[١] الحيوانية ، وهي المتعلقة بالغارين وهما : البطن والفرج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة . فإن قيل فاستطابة الرائحة قد يكون للبهائم ألا ترى أن الذئب قد يستطيب ريح الغنم ، والكلب يستطيب رائحة الأرنب ؟ قيل : إن استطابتهما لذلك استطابة للأكل ، والذي قلنا من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لغيره ، وما هو لأجل أحد الغارين فحكمه حكمها كاستطابة الإنسان ريح السكباج[٢] ، فثبت أن العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية ، وهي حالة متوسطة بين إفراط هو الشره وتفريط هو جمود الشهوة ، وهي أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء وعدمها يعفي على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول إلى المحاسن ، **وأسها يتعلق** بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية ، وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان ، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح ، فمن عدم عفة القلب يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما أس كل رذيلة ؛ لأن من تمنى ما في يد غيره حسده وإذا حسده عاداه ، وإذا عاداه نازعه ، وإذا نازعه ربما قتله . ومن أساء الظن عادى وبغى وتعدى ؛ ولذلك نهى الله سبحانه عنهما جميعًا فقال : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٢] ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، فأمر فيهما بقطع شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل والمآثم ، ولا يكون الإنسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ، فمن عدمها في اللسان : السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب ، ومن عدمها في البصر : مد العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المولدة للشهوات الرديئة ، ومن عدمها في السمع : الإصغاء إلى المسموعات القبيحة . وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحدٍ منهما إلا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى .

---

(١) « ولا تتعلق من القوة الشهوية إلا بالملاذ » سقطت من (ط) ، والذي فيه (ط) فيه اضطراب ؛ لأن نص (ط) : « لا بالملاذ الحيوانية » وهو يضاد المعنى المراد كما وضح من الكلام التالي لذلك .

(٢) السكباج : هو الخبز المقلي بالخل . تاج العروس : سكبج .

واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفًا إلا بشرائط ؛ وهي : أن لا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه أو لأنه لا يوافقه ، أو لجمود شهوته ، أو لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير عارف به لقصوره ، فإن ذلك كله ليس بعفة ، بل هو إما اصطياد ، أو تطبب ، أو مرض ، أو خرم ، أو عجز ، أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عن الغضب فالشهوة مغتالة مخادعة ، والغضب مغالب ، والمتحيز عن قتال المخادع أردى حالًا من المتحيز عن قتال المغالب ؛ ولهذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرق ، وأيضًا بالشره قد يجهل عيبه فهو شبيه بأهل مدينة لهم سنة [١] رديئة يتعاطونها وهم يعرفون قبحها ، وليس من تعاطى قبيحًا يعرفه كمن يتعاطاه وهو يظنه حسنًا .

القناعة والزهد

القناعة : الرضا بما دون الكفاية ، **والزهد** : الاقتصار على الزهيد ، أي : القليل وهما يتقاربان ، لكن القناعة تقال اعتبارًا برضا النفس ، والزهد يقال اعتبارًا بالمتناول لحظ النفس وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهُّد لا زهد ؛ لذلك قال بعض المتصوفة : القناعة أول الزهد تنبيهًا على أن الإنسان أولًا يحتاج إلى قنع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطي الزهد ، فالقناعة هي الغنى في الحقيقة ، والناس كلهم فقراء من وجهين : **أحدهما** : لافتقارهم إلى اللَّه تعالى كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، **والثاني** : لكثرة حاجاتهم فأغناهم أقلهم حاجة ، ومن سد مفاقره بالمقتنيات فما في انسدادها طمع فإنه كمن يرقع الخرق بالخرق ويسد الفقر بالفقر ، ومن سدها بالاستغناء عنها بمقدار وسعه والاقتصار على تناول مقدار ضرورياته فهو الغني والمقرب من اللَّه ، كما أشار إليه فيما حكي عن طالوت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ؛ ولأن الغنى هو عدم الحاجة فأغناهم أقلهم حاجة ؛ ولذلك كان اللَّه تعالى أغنى الأغنياء ؛ لأنه لا حاجة به إلى شيء ، وعلى ذلك دل النبي ﷺ بقوله : « **ليس الغنى بكثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس** » [٢] ومن

(١) عبارة (ط) مضطربة ففيها : « لها ستة أبواب رديئة ... » ، ولعل الصواب ما ذكرنا محققًا من نسختي (أ) ، (د) .

(٢) « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » . هكذا في البخاري عن أبي هريرة . البخاري كتاب الرقاق (١٥) حديث (١٤٤٦) .

أبيات الحكمة :

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فإن زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرَا

والمخير بين أن يستغني عن الدنيا وبين أن يستغني بها كالمخير بين أن يكون مالكًا أو مملوكًا ، وقويًّا أو ضعيفًا ، ومعافى أو مبتلى ، وحيًّا أو ميتًا ، (فمتى اختار الاستغناء بها فقد اختار أن يكون مملوكًا وضعيفًا وميتًا ومبتلى) [(١)] ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش** » [(٢)] .

وقيل لحكيم : لم لا تغتم ؟ فقال : لأني لم أتخذ ما يغمني .

واعلم أنه ليس الزهد من ترك المكسب في شيء ، كما توهمه قوم أفرطوا حتى قربوا من مذهب المانوية والبراهمة والرهابنة [(٣)] فإن ذلك يؤدي إلى خراب الدنيا ، وهلاك العالم ، ومضادة اللَّه ﷻ فيما قدر ودبر ، وقد تقدم ذلك .

والزهد من وجه صبر ، ومن وجه جود ، فالجود ضربان : جود بما في يدك متبرعًا ، وجود عما في يد غيرك متورعًا ، وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي ، ويعرف عيوبها ، وآفاتها ، ويتحقق ما يستغنى عنه منها ، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها ؛ ولأجل أنه لا بد في ذلك من العلم قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص : ٧٩ ، ٨٠] .

---

(١) من قوله : « فمتى اختار » إلى « ومبتلى » سقطت من (أ) وحدها .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) يشير إلى فرق مختلفة فالمانوية أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أزدشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى ﵇ أحدث دينًا في المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح ولا نبوة غيره ، وكان يزعم أن العالم مركب من أصلين قديمين هما : النور والظلمة . الشهرستاني : الملل والنحل (٤٩/٢) .

أما البراهمة : فهم طائفة من الهنود ينتسبون إلى رجل منهم يقال له : « براهم » ، وهم ينفون النبوات ، ويقرون استحالة ذلك ، ويقدمون على ذلك عدة أدلة عقلية في نظرهم ولكنها لا تصمد للمناقشة العقلية في حقيقة الأمر ، وقد تفرقوا فرقًا عديدة ؛ فمنهم أصحاب الفكرة ومنهم أصحاب التناسخ . الملل والنحل (٩٥/٣ ، ٩٦) .

وأما الرهبانية : فهم فئة من النصارى تركوا الكسب والعمل وجلسوا في أديرة للكهانة والرهبنة وتحوم حولهم أساطير يبتدعها أصحابهم ، وقد أخطأ بعض الزهاد حين ظنوا الزهد ترك المكسب وربطوه بالتوكل كما فهموه هم . الملل والنحل (٢٩/٢) . تحقيق عبد العزيز الوكيل . طبعة الحلبي د.ت : ابن الجوزي : تلبيس إبليس (٢٨٢ - ٢٨٦) .

ولأن الزاهد في الدنيا راغب في الآخرة ، وهو يبيعها بها كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] ، ومحال أن يبيع كيِّسٌ عينًا بأثر إلا إذا عرفها وعرف فضل المبتاع على المبيع ، وقد قيل لبعض الزهاد : ما أزهدك وأصبرك ؟ فقال : أما زهدي فرغبة فيما عند الله [١] ، وهو أعظم مما أنت فيه ، وأما صبري فلجزعي من النار .

الورع

الورع أصله جبن وضعف ، وقد يستعمل في كل واحد منهما لكنه جعل في عرف الشرع عبارة عن ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا ، وذلك على ثلاثة أضرب : **واجب** : وهو الإحجام عن المحارم وذلك للناس كافة ، **وندب** : وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للأوساط ، **وفضيلة** : وهو الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على أقل الضرورات ، وذلك للمتقين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد قال ﷺ : « **لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس** » [٢] ، وقال باعتبار المنزل الثاني : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » [٣] ، وقال له قائل : ما أشد الورع ؟! فقال : « **ما أيسر الورع إذا شككت في شيء فاتركه** » [٤] .

* * *

(١) « فيما عند الله » سقطت من (ط) ، (د) .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به بأس » ابن ماجه : الزهد (٢٤) حديث (٤٢١٥) . الترمذي (٢٧٨/٥) .

(٣) جاء في البخاري كتاب البيوع ، باب تفسير المشبهات . وقال حسان بن سنان : ما رأيت شيئًا أهون من الورع « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » ، وذكره النووي وقال : رواه الترمذي والنسائي . الأربعين النووية (٢٥) .

(٤) الحديث السابق يؤكد هذا المعنى لكن ليس باللفظ ، وقد ذكر القشيري عن سفيان الثوري : « ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك تركته » . القشيري الرسالة القشيرية (٧١) طبعة (١٢٨٤هـ) .








فيما يتعلق بالقوى الغضبية




ما ينبع من القوة الغضبية [١]

الحمية وهي قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فتولد منه ثلاثة أحوال وذلك أنها إنما تتحرك على من فوقه ، أو على من دونه ، أو على نظيره ، فإن كان ذلك على من فوقه ممن يظن أنه لا سبيل له إلى الانتقام منه تولد منه انقباض دم القلب جزعًا على العجز عن الانتقام وذلك هو الغم ، وإن كان على من دونه ممن يتحقق أنه يقدر على الانتقام منه (تولد منه ثوران دم القلب لإرادة الانتقام وذلك هو الغضب) [٢] وإن كان على نظيره فمن شك أنه هل يقدر على الانتقام منه تردد الدم بين انقباض وانبساط وذلك هو الوتر والحقد ، ولكون الغم والغضب بالذات واحدًا واختلافهما بالإضافة لما سئل ابن عباس رضي الله عنهما قال : مخرجهما واحد واللفظ مختلف . فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبًا ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره غضبًا من لا يقوي عليه كتمه حزنًا ، ومن هذا قال الشاعر :

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

ولانبساط دم الغضب يحمر تارة وجهه وتنتفخ أوداجه كنار تلتهب ، ويسود وجهه تارة . وذلك إذا كثر واشتد غضبه كنار في غار فيسود جوه ، ولانقباض دم الجزع عن ظاهر الجلد واجتماعه في القلب يصفر وجهه وربما يهلك من ذلك ، ولتردد دم القلب في الحقد بين هذه الأحوال يحمر ويصفر ويسود . والحرد هو : الغضب ، لكن يستعمل إذا كان معه قصد المغضوب عليه ؛ ولذلك يقال : حرد حرد الأسد .

أنواع الصبر ومدحه

الصبر ضربان : جسمي ونفسي .

فالجسمي : هو : تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ونهايته معلومة ، وأكثرها لذوي

(١) النسخة (ط) في هذا المبحث جد مضطربة فيذكر ثلاثة أحوال ، ثم لا يأتي إلا باثنين ، ويدخل بعض العبارات في بعض ، وتضطرب بين التقديم والتأخير ، وهذا يدرك بمقارنة هذا المبحث في النسخة (ط) وهنا الذي حاولنا تحقيقه .

(٢) « تولد منه ثوران دم القلب لإرادة الانتقام وذلك هو الغضب » سقطت من (ط) .

الجسوم الخشنة وليس ذلك بفضيلة تامة ، ولهذا قال الشاعر :

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وذلك في الفعل ؛ كالمشي ، ورفع الحجر الثقيل ، وفي الانفعال ؛ كالصبر على المرض ، واحتمال الضرب والقطع . **والثاني** : **نفسي** : وبه تتعلق الفضيلة ، وذلك ضربان : صبر عن تناول مشتهى ويقال له : العفة ، وصبر على تحمل مكروه أو محبوب وذلك تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان ذلك في نزول مصيبة فإنه لم يتعد به اسم الصبر ، ويضاده الجزع والهلع والحزن ، وإن كان في احتمال غنى فقد يسمى ضبط النفس ويضاده الترفع [(١)] والبطر ، وإن كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلمًا ويضاده التذمر ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم ، وإن كان في إمساك كلام في الضمير سمي كتمان الشر ويضاده الإفشاء ، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهدًا وهذا يضاده الشره والحرص ، ويكون الصبر عامًّا قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] فذكر أنهم يصبرون في البأساء ، أي : في الفقر ، والضراء ، أي : في المصيبة ، وحين البأس ، أي : في المحاربة . وقال بعضهم : ضبط النفس يقال في الأشياء الملذة ، والصبر يقال في الأشياء المحزنة ، وقال بعضهم : بل هما من الأسماء المترادفة على معنى واحد ، فإن قيل : ما معنى قول النبي ﷺ : « **الصبر نصف الإيمان** » [(٢)] ؟ قيل : لما كان جميع المحامد ضربين : ترك الشر - ويعبر عنه بالصبر - وفعل الخير - ويعبر عنه بالشكر - صار الصبر الذي هو ترك الشر نصف الإيمان .

الشجاعة

الشجاعة : إن اعتبرت وهي في النفس فصرامة القلب على الأهوال وربط الجأش في المخاوف ، وإن اعتبرت بالفعل فالإقدام على موضع الفرصة ، وهي فضيلة بين التهور والجبن ، وهي تتولد من الفزع والغضب إذا كانا متوسطين ، فإن الغضب قد يكون مفرطًا كمن يحتد سريعًا من أشياء صغيرة ، وقد يكون مقصرًا كمن لا يغضب من الاجتراء على حرمه وشتم أبيه وأمه ، وقد يكون متوسطًا على ما يجب في وقت

(١) في (ط) : « الدقع » ولكن المعنى يقتضي الترفع ضد ضبط النفس .

(٢) سبق تخريجه .

ما يجب وبقدر ما يجب ، وكذلك الفزع قد يكون مفرطًا فيتولد منه الجبن الهالع ، ومقصرًا فيتولد عنه الوقاحة والغمارة كمن لا يفزع من شتم آبائه وتضييع حرمه وأصدقائه ، وقد يكون متوسطًا كما يجب وبقدر ما يجب ولكونهما - أعني الغضب والفزع - على حالين محمود ومذموم صارا يحمدان تارة ويذمان أخرى ، فإن الغضب في نحو قوله تعالى : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفتح : ٦] ، والفزع في نحو قول الشاعر : فزعت لظلمه إلخ محمودان ، والتهور في الأمور العملية هو الثبات المذموم في الأمور المعطبة ، والجبن هو الفزع في الأمور المعطبة .

واعلم أن أنواع الشجاعة خمسة : سبعية : كمن أقدم لثوران غضب وتطلب غلبة ، وبهيمية : كمن حارب توصلًا إلى مأكل أو منكح ، وتجريبية : كمن حارب مرارًا فظفر فجعل ذلك أصلًا يبني عليه ، وجهادية : كمن يحارب ذبًّا عن الدين ، وحكمية : وهي ما تكون في كل ذلك عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر ما يجب وعلى ما يجب ، ألا ترى أنه يحمد من أقدم على كافر غضبًا لدين اللَّه أو طمعًا في ثوابه أو خوفًا من عقابه أو اعتمادًا على ما رأى من إنجاز وعد اللَّه في نصرة أوليائه ، فإن كل ذلك محمود وإن كان محض الشجاعة هو أن لا يقصد بالإقدام حوز ثواب أو دفع عقاب ، فقد قيل من عبد اللَّه بعوض فهو لئيم [1] .

والفرق بين المقدم في الحرب لمحض الحكمة وإخلاص الدين وبين المقدم لغير ذلك هو أن المقدم لغير الحكمة والإخلاص يخاف الموت أكثر مما يخاف المذمة الصادقة ، والمقدم للحكمة والإخلاص بالضد من ذلك فإنه يختار الموت الحميد على الحياة الذميمة ؛ ولذلك قال علي رضي اللَّه تعالى عنه : « أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش » [2] ، ومن الشجاعة المحمودة مجاهدة الإنسان نفسه أو غيره ، وكل واحد منهما ضربان : **مجاهدة النفس بالقول** : وذلك بالتعلم . **وبالفعل** : وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية ومجاهدة الغير بالقول ، وذلك تزيين الحق وتعليمه ، وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب .

---

(١) انظر نهج البلاغة (٣٩٦) .

(٢) في معناه موجود في نهج البلاغة (١٤٩) .

أسماء أنواع الفزع والجزع والفرق بينهما
وبيان ما يحمد منهما وما يذم

الفزع والجزع أخوان لكن الفزع ما يعتري الإنسان من الشيء المخيف ، والجزع ما يعتري من الشيء المؤلم ، والفزع لفظ عام سواء كان عارضًا عن أمارة ودلالة أو حاصلًا لا عن ذلك . ومتى كان ذلك من عار فهو الحياء والخجل [1] ، ومتى كان عن شيء يضر فهو الفرق والذعر ، ومتى كان لفوت محبوب فهو الإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : ٢٦] .

والخوف : هو توقع مكروه عن أمارة ، **والخشية** : خوف يشوبه تعظيم المخشي منه مع المعرفة به ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [ق : ٣٣] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، **والوجل** : استشعار عن خاطر غير ظاهر وليس له أمارة ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ، **والرهبة** : خوف مع تحرز واضطراب ، ولتضمن الاحتراز قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، **والهيبة** : رهبة جالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ، ولذلك يستعمل في كل محتشم . قال الشاعر :

أهابك إجلالًا وما بك قدرة ... عليَّ ولكن ملء عين حبيبها

وهذه الأشياء قد تذم باعتبار الأمور الدنيوية وتحمد باعتبار الأمور الأخروية ، قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] ، وقال : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، والخوف من اللَّه تعالى ليس يشار به إلى ما يخطر في البال من الرعب كاستشعار الإنسان الرعب من الأسد ، وإنما يشار به إلى ما يقتضيه الخوف وهو الكف عن المعاصي ؛ ولذلك قيل : لا يعد خائفًا من لم يترك الذنوب ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، أي : لا تفعلوا ما يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما يقتضيه خوفي ، فإن قيل : كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢]؟ قيل : أما الممدوح به فمقتضاهما وذلك إقامة العبادات ، وأما المنفيان عنهم فهما اللذان يكونان من الأشرار .

---

(١) « أو حاصلًا لا عن ذلك ، ومتى كان ذلك من عار فهو الحياء والخجل » سقطت من (ط) وحدها .

مداواة الغم وإزالة الخوف

حق الإنسان أن يعلم أن الدنيا جمة المصائب ، رائقة المشارب ، تثمر للبرية كل بلية ، فيها مع كل لقمة غصة ، ومع كل جرعة شرقة ، فهي عدوة محبوبة كما قال أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق [١]

وكما روي عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال : ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال كثيِّر :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت

فما أحد فيها إلَّا وهو في كل حال غرض لأسهم ثلاثة : سهم بلية ، وسهم رزية ، وسهم منية .

تناضله الآفات من كل جانب ... فتخطئه يومًا ويومًا تصيبه

وقد قال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولا يسلم منهما إنسان ؛ لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد ، فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه فهو غير عاقل ؛ لأنه يريد أن يملك ما لا يملك ويوجد له ما لا يوجد ؛ فحق المرء أن لا يخلي [٢] قلبه من اعتبار فيما يرى من ارتجاع ودائعها من أربابها وحلول فوازعها بأصحابها ، وما أحسن ما قال ابن الرومي :

ألم تر رزء الدهر من قبل كونه ... كفاحًا إذا فكرت في الخلوات

فما لك كالمرمي من مأمن له ... بنبل أتته غير مرتقبات

فإن قلت مكروهًا أتانا فجأة ... فما فوجئت نفس مع الخطرات

ولا عوقبت نفس ببلوى وقد رأت ... عظات من الأيام بعد عظات

إذا بعثت أشياء قد كان مثلها ... قديمًا فلا تعتدها بغتات

ومن حقه أن يقلل من اقتناء ما يورثه الحزن ، فقد قيل لحكيم : نراك لا تغتم ، فقال : لأني لا أقتني ما يغمني فقده ، فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

ومن سره أن لا يرى ما يسوؤه ... فلا يتخذ شيئًا يبالي له فقدًا

وقيل لحكيم : هل يمكن الإنسان أن يعيش آمنًا ؟ فقال : نعم إذا احترس من الخطيئة ،

---

(١) ديوان أبو نواس (٤٦٥) . (طبعة صادر بيروت) .

(٢) في (ط) : « يخلي » ، والمعنى غير ذلك ؛ إذ المقصود أن لا يترك قلبه دون اعتبار .

وقنع بماله ، ولم يحزن بما هو واقع به لا محالة .

واعلم أن الجزع على ما فات لا يلم ما تشعث ولا يبرم ما انتكث كما قيل : وهل جزع مجدٍ عليَّ فأجزعا .

فأما غم على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إما في شيء ممتنع كونه أو واجب كونه أو ممكن كونه ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العاقل ، وكونه إن كان من قبل الواجب كونه كالموت الذي هو حتم في رقاب العباد ، وإن كان ممكنًا كونه فإنه إذا كان من الممكن الذي لا سبيل إلى دفاعه كإمكان الهرم ؛ فالحزن له جهل واستجلاب غم إلى غم ، وإن كان من الممكن الذي يصح دفاعه فالوجه أن يحتال لدفاعه بفعل غير مشوب بحزن ، فإن اندفع وإلا تلقاه بصبر جميل وليتحقق معنى قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] . ثم قال : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] ، فمن علم أن ما جرى من حكمه وسبق علمه لا سبيل إلى أن لا يكون هانت عليه النوائب ولم يجزع لحلول المصائب [١] . واعلم أن الذي يغر الناس حسن ظنهم بانحسار الآفات واغترارهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات ، ولو تأملوها بالبصيرة لتحققوا أنها كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « ما قال الناس لقوم طُوبى لكم إلَّا وقد خبأ لهم الدهر يوم بؤس » [٢] كما قيل :

إن الليالي لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان

وأما سبب الاغتمام للموت فلا ينفك من أربعة أوجه : إما لفوت شهوات بطنه وفرجه ، وإما على ما يخلفه من ماله ، وإما على جهله بمآله ، وإما خوفًا لما قدمه من عصيانه . **فإن كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه** ؛ فليعلم أن ذلك كمشتهٍ داء ليقابله بداء مثله فإن الإنسان لا يستلذ بالطعام حتى يجوع ، والجوع داء مهروب منه وشبعه داء مهروب إليه ، فمثل من يحب الجوع ليستطيب بعده الأكل كمن يستطيب القعود في الشمس ليناله الحر ، ثم يستطيب القعود في الظل ، ومحبة ذلك رقاعة لا تحد ولا تعد . **وإن كان غمه على ما يخلفه من ماله** ؛ فذلك لجهله بخساسة الأعراض الدنيوية وكونها معدن كل بلية ، وقلة معرفته بنفاسة الأملاك الحقيقية التي وعد المتقون بها .

---

(١) « ولم يجزع لحلول المصائب » تفردت بها (أ) .

(٢) عبارة نهج البلاغة : « ما قال الناس لشيء طُوبى إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء » . نهج البلاغة (٤٠٣) .

وإن كان غمه لجهله بماله ومآله عند ربه ؛ فمداواته بالعلم والمعرفة الحقيقية التي تريه حال ما للإنسان بعد الموت كما قال حارثة للنبي ﷺ : « **كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتعاوون فيها** » (١) .

وإن كان غمه خوفًا لما قدم من عصيانه ؛ فدواؤه المبادرة بالتوبة ، ويكفيه إن كان ذا بصيرة ما جعل اللّه له إليه سبيلًا من تلافي ما فرط منه ووعد به التائبين إليه .

أحوال الناس في محبة الموت والاحتيال لقلة المبالاة به

الناس في ذلك على ثلاثة أضرب :

فالأول : حكيم يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه ، وأن الإنسان في هذا العالم وإن طال فيه لبثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ثم خفيت ، وأنه في دنياه كمبعوث إلى ثغر يحرسه وبلد يسوسه فيراعي من ذلك ما استرعى ويفرح ويسر إذا استدعى ، ولا ينكأه خروجه منها إلَّا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد من التقرب إليه ، والإشفاق مما يقال له كما قال بعض الصالحين وقد رؤي منه جزع عند الموت فقيل له في ذلك ، فقال : إنما جزعي لأني أسلك طريقًا لم أعهده ، وأقدم على رب لم أره ولا أدري ما أقول ولا ما يقال لي .

والثاني : رجل أنس بهذا العالم فألفه ، وإن كرهه فسبيله سبيل من ألف بيتًا مظلمًا قذرًا ولم ير غيره يكره الخروج منه وإن كان يكره الكون فيه كما قال الشاعر :

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

وما حب البلاد بنا ولكن أمر العيش فرقة من هوينا

وحق ما قيل : لو رضي الناس بأرزاقهم رضاهم بأوطانهم لما شكا أحد فقره ، فهذا متى خرج عن دنياه واطلع على ما أعد اللّه للصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر سر بخلاصه كما حكى اللّه ﷻ عمن استقر بهم القرار في جنات النعيم حيث قالوا : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٣٤] .

---

(١) سبق تخريجه .

والثالث : رجل أعمى عين البصيرة متلطخ السريرة بما ارتكب من أنواع الجريرة ، رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها . ويئس من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، فإذا خرج منها إلى دار الخلود أضر ذلك به كما تضر رياح الورد بالجعل ، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه العالم العلوي بمصاحبة الملأ الأعلى ومنادمة أولي العلا فيعمى كما قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٧٢] ؛ ولهذا قال ﷺ : « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » (١) ، وأجدر بمن تربى في هذا العالم بغذائه من العلم والعمل الصالح أن لا يشتاق إليه بعد خروجه منه وإن خرج مكرهًا كما لا يشتاق إلى الرجوع إلى بطن أمه بعد الخروج منه ، ويدلك على أنه خرج من بطن أمه كارهًا بكاؤه ، فقد قال بعض الحكماء القدماء : أول ما ينال الصبي غمه عند سقوطه من بطن أمه لما يضغطه من ضيق خروجه ويصيبه من ألم الهواء فيتوجع ، والوجع يورثه الغم ، والغم يحمله على البكاء ؛ وذلك أن للصبي كل ما يكون للحيوان غير النطق من اللذة والألم والجوع والعطش ؛ ومن هذا المعنى أخذ ابن الرومي فقال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد (٢)

وقال ابن عباس ﷺ : ما أحد إلا والموت خير له من الحياة ؛ لأن اللَّه تعالى قال في الأخيار : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال في الأشرار : ﴿ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وقد قيل : الصالح إذا مات استراح من الدنيا ، والطالح إذا مات استراحت منه الدنيا . وقال بعض الحكماء : من قال لغيره : صانك اللَّه من نوب الأيام وصروف الزمان فإنه يدعو له بالموت ، فالإنسان لا ينفك من ذلك إلَّا بخروجه من دار الكون والفساد ، وقال بعض الصوفية : حق ملك الموت أن يحبه المسلم من بين الملائكة فضل محبة من حيث إنه أحد أسباب تعويضه الحياة السنية الأبدية من حياته الدنية الدنيوية ؛ ولهذا أمرنا أن نقول في دعائنا : اللَّهم صلِّ على جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فإن جبريل وميكائيل هما سببان لإنهائنا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد . (وملك الموت سبب لإخراجنا من دار الكون والفساد) (٣) فإذًا حقه

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة . صحيح مسلم : كتاب الزهد . حديث (٢٩٥٦) . الترمذي : الزهد ، حديث (٢٣٢٥) .

(٢) ديوان ابن الرومي . تحقيق د / حسين نصار (٥٨٦/٢) .

(٣) « وملك الموت سبب لإخراجنا من دار الكون والفساد » سقطت من (ط) ، والكلام بعدها مترتب عليها .

عظيم وشكره لازم . وقد حكي أن قومًا من الأوائل كانوا يعظمون « زحل » بالتقديس والتسبيح له [١] وقالوا : إنه لا يعين على الحياة العرضية ، بل هو سبب إنقاذنا من الدنيا الدنية ، وقال بعض الأولياء في مناجاته : إلهي إن سألتك الحياة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك ، وزهدت في القرب منك ، فقد قال نبيك وصفيك : « **من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه ، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه** » [٢] ، وقال بعضهم : إن كان في قلة الحاجة الدنيوية غنًى ففي انقطاع الحاجة كلها الغنى الأكبر ، ولا انقطاع لها إلَّا بمفارقة الدنيا . فالدنيا سبب فاقتنا والعبودية لغير اللَّه تعالى ، وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة والتخصص بعبودية غير رب العزة ، والموت سبب كمال [٣] الإنسان ، ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا أنفسهم ، ومن كره الموت أخرج من الدنيا كارهًا فيكون كعبد آبق رد إلى مولاه مأسورًا وقيد إلى حضرته مقهورًا ، وشتان بين عبد دعاه مولاه فأتاه طوعًا وعبد آبق أسر فأتي به قسرًا ، وحق العاقل أن يكثر من ذكر الموت ؛ فإن ذكره لا يقرب أجله ويفيده ثلاثة أمور : **القناعة بما رزق ، والمبادرة بالتوبة ، والنشاط في العبادة** ؛ ولذلك قال ﷺ : « **أكثروا ذكر هازم اللذات فإنه ما ذكره أحد وكان في ضيق إلا وسعه عليه ، ولا في سعة إلا ضيقها عليه** » [٤] وقيل : ذكر الموت يطرد فضول الأمل ويقل من غرور المنى ، ويهون المصائب ، ويحول بين الإنسان والطغيان .

السرور والفرح

السرور : انشراح الصدر بلذة فيها طمأنينة النفس عاجلًا وآجلًا ، وذلك في الحقيقة إنما يكون إذا لم يخف زواله ، ولا يكون ذلك إلَّا في القنيات الأخروية ؛ ولذلك قيل : لا سرور في الدنيا على الحقيقة ، والفرح هو انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة ، وذلك يكون في اللذات البدنية الدنيوية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الرعد : ٢٦] فالفرح يدعو إلى النشاط ، والنشاط يدعو إلى المرح ، والمرح داعية الأشر ، والأشر مقدمة

(١) زحل كوكب من الكواكب ، وعبارة « بالتقديس والتسبيح له » ساقطة من (ط) .

(٢) رواه البخاري عن أبي موسى ... البخاري : الرقاق (٤١) حديث (٦٥٠٨) . فتح الباري (١١/٣٥٧) .

(٣) في (ط) : « نقص » وهي ضد المعنى تمامًا .

(٤) جاء في كتاب الزهد لأحمد بن حنبل : « **أكثروا من ذكر هازم اللذات** » دون الزيادة ، ورواه الترمذي بلفظه هنا وحسنه ، والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعًا . الزهد لأحمد بن حنبل (١٧) طبعة دار الكتب العلمية (١٣٩٨هـ) بيروت . كشف الخفاء (١/١٦٥) ، حديث (٥٠٠) .

البطر وأكثر ما يكثر ذلك في الأحداث والصبيان بقدر ما يغلب عليهم من الغفلة ، وقد ذمه اللَّه تعالى بقوله : ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٣] ، وقد يسمى الفرح سرورًا والسرور فرحًا لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق ويتصور أحدهما بصورة الآخر ؛ ولذلك قيل : من طلب السرور بالخارجات عنه لم ينله .

العذر والتوبة

المذنب إذا عوتب أو خاف العتب لا ينفك عن أحد وجهين : إما أن يكون مصرًّا أو معتذرًا ، فأما المصر : فقد يُستحسن في بعض الأحوال التجافي عنه ، وقد سمع رجل حكيمًا وهو يقول : ذنب الإصرار أولى بالاغتفار ، فقال : صدق ليس فضل من عفا عن السهو القليل كفضل من عفا عن العمد الجليل ، وأما المعتذر : فهو المظهر لما يمحو به الذنب . **وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه** : إما أن يقول : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا فيبين ما يخرجه عن كونه ذنبًا أو يقول : فعلت ولا أعود ، فمن أنكر وأنبأ عن كذب ما نسب إليه فقد برئت ساحته ، وإن فعل وجحد فقد يعد التغابي عنه كرمًا وإيَّاه قصد الشاعر بقوله :

تغابي وما بك من غفلة لفرط الحياء وفضل الكرم

ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك ، قال بعض الحكماء : تجاوز عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقًا حتى أخذ من رجائك رفيقًا ، وإن قال : فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة وحق الإنسان أن يقتدي باللَّه تعالى في قبولها ، وللتوبة شرائط فرضًا ونفلًا ، ففرضها ترك الذنب مع ترك العود إليه ، ونفلها التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما كان من العصيان .

واعلم أن للمذنب التائب إذا تاب توبة نصوحًا فضيلة على من لم يذنب من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه قد جرب العيوب وعرف مداخل الشيطان على الإنسان فيكون أهدى إلى الاحتراز من الشر ، وقد قيل لحكيم : فلان لا يعرف الشر ، فقال : ذاك أجدر أن يقع فيه .

والثاني : أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتي باب مولاه ، وهو خزيان منكسر ، ومن لم يذنب ربما يعجب بنفسه ويذل بعفته وليس خدمة عبد قد عصى

ملكًا وخرج عليه خارجيًا ، ثم عاد إليه وجلًا خائفًا فعفى عنه كخدمة من يذل بطاعته وعدم مخالفته .

والثالث : أن التائب قد حلب الدهر الشطرين خيره وشره حلوه ومره ، فهو أرفق بالمذنبين وأوفق لهم وأصلح للرياسة ممن يظن أن الذنب خارج عن طبيعة الإنسانية فيعجب بنفسه ويزري بغيره .

الحلم والعفو

الحلم : إمساك النفس عن هيجان الغضب ، والتحلم : إمساكها عن قضاء الوطر منه إذا هاج ، ولما كان الحلم من تأثير العقل وغير منفك عنه صار يعبر به عن كل عقل ظهر فعلًا كقوله ﷻ في ذم الكفار على سبيل التعجب منهم : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الطور : ٣٢] ، ومتى أطلق الحلم في حق البارئ تعالى فإنه يراد به العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال بعرض له ، ولن يتم حلم الإنسان إلَّا بإمساك الجوارح كلها ، اليد عن البطش ، واللسان عن الفحش ، (والسمع عن استماعه) (١) ، والعين عن فضول النظر ، ،أقرب لفظ يستعمل في ضد الحلم : التذمر .

وأما العفو والصفح : فهما صورتا الحلم ومخرجاه إلى الوجود ، والعفو : هو ترك المؤاخذة بالذنب ، والصفح : ترك التثريب ، واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي أثبت فيها ذنوبه ؛ أو الإعراض بصفحة الوجه عن التلفت إلى ما كان منه ، وهو محمود إذا كان على الوجه الذي يجب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥] فخصَّ تنبيهًا على ما يحمل منه وقد ندب اللَّه تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] فأمر بالحلم والعفو وقال : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ [النور : ٢٢] ، وقال : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] ، وقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت الإساءة مخصوصة بالعافي كمن أخذ ماله ، أو شتم عرضه ، فأما إذا كانت الإساءة عائدة بالضرر على الشرع أو على جماعة الناس

---

(١) « والسمع عن استماعه » سقطت من (ط) وحدها .

(٢) قال الألباني في تخريجه لأحاديث منار السبيل : « **ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم** » ضعيف ، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق . قال شيخنا : وفي سنده من لا يعرف ... وقد روي من حديث عائشة =

فإنه إن كان فيها أدنى شبهة فللسلطان العفو لقوله ﷺ : « **ادرؤوا الحدود بالشبهات** » [٢] وإن لم يكن شبهة فليس له العفو ؛ ولهذا قال تعالى في الزنى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [النور : ٢] .

وحق المعاقب أن لا يكون سبعًا في انتقامه ، بل لا يعاقب حتى يزول غضبه ؛ لئلا يقدم على ما ليس بواجب ؛ ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جرمه ويعيد النظر فيه .

وقد قال بعضهم : ينبغي للسلطان أن يؤخر العقوبة حتى ينقضي سلطان غضبه ، ويعجل مكافأة المحسن ، ويستعمل الأناة فيما يحدث ، ففي تأخير العقوبة إمكان العفو إن أحب ذلك ، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان مسارعة الأولياء إلى الطاعة ، وقد أتي الإسكندر بمذنب فصفح عنه ، فقال بعض جلسائه : لو كنت إياك لقتلته ، فقال : فإذا لم أكن أنا إياك ولا أنت إياي فلست بقاتله ، وانتهى إلى بعض أصحابه وهو يغتابه ، فقيل له : لو أنهكته عقوبة فقال حينئذ : أبسط لسانًا وعذرًا في اغتيابي .

واعلم أن لذة العفو (أطيب من لذة التشفي ؛ لأن لذة العفو) [١] يلحقها حمد العاقبة ، ولذة العقوبة يلحقها ذم الندم ، والعقوبة ألأم حالات ذوي القدرة ، وهي طرف من الجزع ، ومن رضي أن لا يكون بينه وبين الظالم له إلَّا ستر رقيق فلينتصف ، وقد نبه اللَّه تعالى على ذلك بلطيف من المقال ، فقال تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] فسمى مجازاة المسيء بإساءته إساءة ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] فسمى المجازي على الاعتداء معتديًا ؛ تنبيهًا على أنه قد كاد يكون إيَّاه .

والعقوبات فيما بين الناس أقبحها ما كان فيما لم يظهر بالفعل ، فقد قال بعض الملوك : إنما نملك الأجساد دون الضمائر ، ونفحص عن الظواهر لا عن السرائر ، فمن سلم ظاهره احتملت جرائره ، فقد يهفو المرء ونيته سليمة ، ويزل وطريقته مستقيمة .

= مرفوعًا بلفظ : « **ادرؤوا الحدود ما استطعتم** ... » وهو ضعيف . الألباني : إرواء الغليل (٧/٣٤٤) ، (٨/٢٥) . الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ) . نشر المكتب الإسلامي .

(١) « أطيب من لذة التشفي لأن لذة العفو » سقط من (ط) وحدها .

ثوران الغضب وفضل كظمه

الغضب في الإنسان بمنزلة نار تشتعل والناس يختلفون فيه ، فبعضهم : كالحلفاء [١] سريع الوقود وسريع الخمود ، وبعضهم : كالغضى بطيء الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم : سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم : على عكس ذلك وهو أحمدهم ما لم يكن مفضيًا به إلى زوال حميته وفقدان غيرته ، واختلافهم تارة يكون بحسب الأمزجة فمن كان طبعه حارًّا يابسًا يكثر غضبه ، ومن كان بخلافه يقل ، وتارة يكون بحسب اختلاف العادة فمن الناس من تعود السكون والهدوء وهو المعبر عنه بالذلول والهين واللين ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتد بأدنى ما يطرقه ككلب يسمع صوتًا فينبح قبل أن يعرف ما هو ، وأسرع الناس غضبًا الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجرًا الشيوخ ، وأجل الناس شجاعة ، وأفضلهم مجاهدة ، وأعظمهم قوة من يكظم الغيظ ، وعلى ذلك دلَّ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] فجعلهم من المحسنين . وقال النبي ﷺ وقد مرَّ بقوم يرفعون حجرًا فقال : « **ألا أخبركم بأشدكم ؟! من ملك نفسه عند الغضب** » [٢] .

واعلم أن نار الغضب متى كانت عنيفة تأججت واضطرمت واحتد منه غليان الدم في القلب وملأت الشرايين والدماغ دخانًا مظلمًا مضطرمًا يسودُّ منه مجال العقل ويضعف به فعله ، فكما أن الكهف الضيق إذا مُلِيءَ حريقًا اختنق فيه الدخان واللهب ، وعلا منه الأجيج ؛ فيصعب علاجه وإطفاؤه ويصير كل ما يدنو منه مادة تقويه . فكذلك النفس إذا اشتعلت غضبًا عميت عن الرشد ، وصمت عن الموعظة ، فتصير مواعظه مادة لغضبه ؛ ولهذا حكي عن إبليس لعنه اللَّه أنه يقول : متى أعجزني ابن آدم فلن يعجزني إذا غضب ؛ لأنه ينقاد لي فيما أبتغيه منه ، ويعمل بما أريده وأرتضيه . وقد قيل : الغضب جنون ساعة ، وربما أفضى إلى تلف باختناق حرارة القلب فيه ، وربما كان سببًا لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف .

---

(١) الحلفاء : نبت أطرافه ممدودة ينبت في مفايض الماء ، وبه صلابة تؤذي اليد إن شدته . الإفصاح في فقه اللغة (٢) باب ما ينبت في الماء . والغضى : شجرة دائمة الخضرة لها ورقة مثل الهدب . الإفصاح (١١٠٥/٣) .

(٢) في معناه ما جاء في البخاري عن أبي هريرة بلفظ : « **ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » البخاري : كتاب الآداب (٧٦) حديث (٦١١٤) ، فتح الباري (٥١٨/١٠) .

وأسباب الغضب : العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والضيم والاستهزاء وطلب ما فيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام ، وحق من اعتراه غضبه أن يتفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل له عليه فلا معنى لتعذيبه نفسه في الحال ، بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه ، ثم يفعل بالواجب ، وقد قال حكيم : سد طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحمك ودمك ، فإنما يمكن إطفاؤها قبل انتشارها ، فأما إذا اشتعلت فلا سبيل إلى إطفائها ، وقال سلطان لحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون في كل وقت ذاكرًا أنه يجب أن تُطيع لا أن تُطاع فقط ، وأن تَخدم لا أن تُخدم فقط ، وأن تحتمل لا أن تُحتمل فقط ، وأن تتحقق أن اللَّه يراك دائمًا ؛ فإذا فعلت ذلك لم تغضب ، وإن غضبت كان قليلًا .

الغيرة والجوار

الغيرة : ثوران الغضب حماية على أكرم الحرم وأكثر ما تراعى في النساء ، وجعل اللَّه سبحانه هذه القوة في الإنسان سببًا لصيانة الماء وحفظًا للإنسان ؛ ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت العفة في نسائها ، وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الإنسان صيانته في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه ، وسياسة منزله وأهله ، وسياسة مدينته وضيعته ؛ ولذلك قيل : ليست الغيرة ذب الرجل عن امرأته ولكن ذبه عن كل مختص به ، وقد قيل : الغيرة الذب عن كل ضعيف ، وتسمى كراهية النعمة عند من لا يستحقها غيرة ، والغيرة وإن كانت من قوة الإنسانية وواجب كونها في كل جيل فقد كثرت في العرب خاصةً كثرة متناهية [١] حتى إن من دخل دار أحدهم والتجأ إلى فنائه عدُّوا فعله حرمة وجوارًا وذمارًا ، (بل قالوا : تعلق الدلو بالدلو القريبة أو تلامس الطنب بالطنب يوجب حرمة وجوارًا ، بل كانوا يراعون ذلك) [٢] في الوحشيات والهوام حتي سمي بعضهم : مجير الجراد ، ومجير الغزال ، ومجير الذئب ، وسمي الغضب المقتضي للغيرة : الحفيظة ؛ فيقال : أحفظني فلان ، أي : أغضبني الغضب الذي أثار مني قوة الحفظ .

---

(١) « خاصة كثرة متناهية » ليست في (ط) .

(٢) من « بل قالوا تعلق ...... » إلى « يراعون ذلك » . سقطت من (ط) وحدها .

الغبطة والمنافسة والحسد

الذي ينال الإنسانَ بسبب خير يصل إلى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله فهو غبطة ، وإذا كان مع ذلك سعي منه أن يبلغ هو مثل ذلك من الخير أو ما هو فوقه فمنافسة ، وكلاهما محمودان ، وإن كان مع ذلك تمني زوال ما يصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد ، **والحسد** : هو تمني زوال نعمة (عمن يستحقها ، ولربما كان مع ذلك سعي في إزالتها ، والحاسد التام : هو الذي يكون حيث النفس تسعى في إزالة نعمة)[1] مستحقة من غير أن يكون طالبًا ذلك لنفسه ؛ ولذلك قيل : الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه ، وقال ﷺ : « **المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد** »[2] فحمد الغبطة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] فحثنا على التنافس إذا كان باعثًا لنا على طلب المحاسن ؛ وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وقول النبي ﷺ : « **ثلاثة لا ينجو منها أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأخبركم بالمخرج من ذلك فإذا ظننت فلا تتحقق ، وإذا تطيرت فامض ولا تنثن ، وإذا حسدت فلا تبغ** »[3] أي : إذا أصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ إزالته عنه .

واعلم أن الحسد من وجه غاية البخل ؛ لأن البخيل يبخل بمال نفسه والحاسد يبخل بمال اللَّه تعالى ؛ ولذلك قيل : الحاسد بخيل بما لا يملكه ، ومن وجه هو أظلم ظالم ؛ لأنه يظلم غيره في إزالة حاله ويظلم ربه فيما قدره ، وقد قيل : الحسد والحرص ركنا الذنوب ومنهما أنتج ذنب إبليس وآدم فإبليس حسد آدم فصار لَعِينًا وطريدًا ، وآدم حرص على ما نهى اللَّه عنه فأخرج من الجنة ، فهما شجرتان تجتنى منهما سائر الرذائل ، فمن قطع أسبابهما نجا ، فإن قيل : فما وجه قول النبي ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين :**

---

(١) من « عمن يستحقها » إلى « في إزالة نعمة » كل هذا سقط من (ط) .

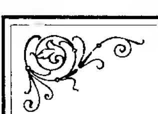
(٢) ليس بحديث ولكنه من كلام الفضيل بن عياض (توفي ١٨٧هـ) ، وقد قال العراقي في الإحياء : لم أجد له أصلًا ، كشف الخفاء (٢/٢٩٥) حديث رقم (٢٦٩٤) .

(٣) هذا المذكور فيه زيادة لم نقف عليها ولكن المذكور : « **ثلاثة لا ينجو منها أحد : الظن والطيرة والحسد ، إذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا تطيرتم فامضوا وعلى اللَّه فتوكلوا ، وإذا وزنتم فأرجحوا** » رواه ابن ماجه عن جابر . قال عنه الحافظ العراقي : مرسل وضعيف . ابن ماجه : الأدب ، كشفاء الخفاء (١/١٠٤) حديث (٢٩٥) .

رجل آتاه اللَّه مالًا فجعله في حق ، ورجل آتاه اللَّه حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس »[1] ؟
قيل : إنما عني بالحسد هاهنا الغبطة ، وقد سمي ذلك حسدًا من حيث إنه عبارة عن الغم الذي ينال الإنسانَ من خير يناله غيره ولا يناله هو ، وعلى ذلك يقول الإنسان لولده : لا تحسد فلانًا فيما يتعلمه ، أي : لا تتمن حاله . واعلم أن الحسد ضرب من الحماقة ؛ لأن اغتمامه بما يناله ذووه وأهل بلده يقتضي أن يغتم أيضًا بما يناله أهل الصين والهند ؛ على أن الخير الذي ينال ذويه إذا تفكر فيه هو أنفع له مما يناله الأباعد .

* * *

(١) قال العراقي : متفق عليه من حديث ابن مسعود مع تغير قليل في اللفظ . انظر عمدة القاري (٥٦/٢) باب العلم ، سنن النسائي : باب العلم .




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفصل الخامس

في العدل والظلم والمحبة والبغض




القول في العدل وفضله [١]

العدل لفظة تقتضي معنى المساواة ، ولا تستعمل إلَّا باعتبار الإضافة ، وهي في التعارف إذا اعتبرت بالقوة فهيئة في الإنسان يطلب بها المساواة ، فإذا اعتبرت بالفعل فهو التقسيط القائم على الاستواء ، وإذا وصف اللَّه تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة وإنما يراد به أن أفعاله واقعة على نهاية الانتظام ، فالإنسان في تحري فعل العدالة يكون تام الفضيلة إذا حصل مع فعله هيئة مميزة لتعاطيه ، فقد يقع فعل الإنسان موصوفًا بالعدل ولا يكون ممدوحًا به نحو أن يقسط مراءاة أو توصلًا إلى نفع دنيوي أو خوف عقوبة السلطان . والعدل تارة يقال : هو الفضائل كلها من حيث إنه لا يخرج شيء من الفضائل عنه ، وتارة يقال : هو أكمل الفضائل من حيث إن صاحبه يقدر أن يستعمله في نفسه وفي غيره ، وهو ميزان اللَّه المبرأ من كل ذلة ، وبه يستتب أمر العالم ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] ، وقال : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن : ٧ ، ٨] وعبر عن العدل بالميزان إذا كان من أثره ومن أظهر أفعاله الحسية ، وقد قال ﷺ : « **بالعدل قامت السموات والأرض** » [٢] ، أي : لو كان شيء من موجودات العالم وأصوله زائدًا عما هو عليه أو ناقصًا عنه لم يكن منتظمًا هذا النظام ، ومن فضيلة العدل أن الجور الذي هو ضده لا يستتب إلَّا به ، فلو أن لصوصًا تشارطوا فيما بينهم شرطًا فلم يراعوا العدل فيه لم ينتظم أمرهم ، ومن فضله أن كل نفس سليمة تلتذ وترتاح بسماعه وتتألم من ضده ؛ ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره إذا رآه أو سمع به ، وقد قيل : العدل لا يخاف اللَّه ، أي : من حيث العدل لا خوف عليه ، ولحسن العدل والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مركبًا في العالم ليس له نظام مستقيم فيكره العرج والعور ويتشاءم

(١) في النسخة (ط) ، وكذا في (د) : استخدم « العدالة » ، وفي (أ) : « العدل » ومع اتفاق المعنى إلى حد كبير آثرنا استخدام المصدر « العدل » ؛ لدلالته على المعنى مجردًا من جهة ؛ ولأن النصوص داخل المبحث يرد فيها « العدل » كثيرًا ، بل إن المبحث التالي لهذا المبحث يؤكد ترشيحنا لما في النسخة (أ) من استخدام لفظ « العدل » المحقق .

(٢) ليس بحديث ، بل هو مجرد كلام ، ويظل هكذا حتى يثبت أهل الحديث فيه قولًا ؛ إذ لم أجده في مظان الصحيح أو الضعيف أو الموضوع .

به ، ولتحري المساواة جعل اللّه تعالى أعضاء الإنسان الواقعة في الأطراف زوجين اثنين ، وجعلها في الأوساط واحدًا واحدًا ، وللاقتداء بذلك تحرى النقاشون بإزاء كل منقوش في جانب منقوشًا مثله في الجانب الآخر ؛ لئلا تكون الصور معوجة ، والعدل هو وسط أطرافه كلها جور ، فالجور : هو الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان ؛ ولذلك صار الجور والخطأ بالإضافة إلى العدل والصواب من حيز ما لا نهاية له ، والعدل والصواب من حيز المتناهي وإدراكه صعب عسر ؛ ولصعوبة ذلك قال ﷺ : « **استقيموا ولن تحصوا** » [1] ، وتمدح ﷻ فقال : ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٨] تنبيهًا أنه هو المتحقق بوصف العدل والصواب من كل شيء ، وقد قال بعض الصوفية : رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت : بلغني يا رسول اللّه أنك قلت : « **شيبتني سورة هود وأخواتها** » [2] فما الذي شيبك منها ؟! فقال : « قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود: ١١٢] » ولما كان الوصول إلى ذلك عسرًا جدًّا صار ضابطه إذا تحرى فيه بجهده وإن أخطأ فيه معذورًا ، بل مأجورًا ؛ ولذلك قال ﷺ : « **من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن اجتهد فأصاب فله أجران** » [3] .

أنواع العدل وما يستعمل ذلك فيه

العدل ضربان : عدل مطلق : يقتضي العقل حسنه ولا يكون منسوخًا في شيء من الأزمنة ولا يوصف بالجور في حال ، وذلك هو جذب الإحسان إلى من أحسن إليك وكف الأذية عمن كف أذاه عنك .

وعدل مقيد : يعرف كونه عدلًا بالشرع ويمكن أن يكون منسوخًا في بعض الأحوال والأزمنة ، وذلك مقابلة السوء بمثله كأحوال القصاص وأروش الجنايات ، وكأخذ مال المرتد ، وهذا النحو يصح أن يوصف على المجاز في بعض الأحوال بالجور ؛ ولذلك قال

(١) رواه ابن ماجه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان ، وفي الزوائد رجاله ثقات أثبات إلَّا أن فيه انقطاعًا بين سالم وثوبان ، ولكن أخرجه الدارمي وابن حبان في صحيحه من طريق ثوبان متصلًا ، ابن ماجه ، الطهارة (٤) حديث (٢٧٨) .

(٢) الترمذي من حديث أبي جحيفة ، وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه ، قال الترمذي : حسن ، وقال الحاكم : صحيح على شرط البخاري .

(٣) روى البخاري ومسلم : « **إذا حكم الحاكم فاجتهد ، ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر** » . البخاري : الاعتصام (٢١) حديث (٧٣٥٢) . فتح الباري (٣١٨/١٣) . مسلم : كتاب الأقضية (١٦) حديث (١٧١٦) .

تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى : ٤٠] فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث إنه لو لم يكن معتبرًا بالسيئة المتقدمة كانت هي سيئة ، وعلى ذلك : ﴿ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] ، وبالنظر إلى النوع الأول والاعتبار به قال بعض المتكلمين : يعرف العدل والجور قبل الشرع [1] ، وبالنظر إلى النوع الثاني والاعتبار به قال بعضهم : لا يعرفان إلَّا بالشرع ، وعلى الجملة فالشرع مجمع العدالة وبه تعرف حقائقها ، ولو توهمناه مرتفعًا لكان يؤدي إلى أن لا يكون عدل على الحقيقة في شيء من جزئيات الأفعال ، ولا يكون في كثير من كلياتها ، فالعدل المحمود هو الذي يتحرى فعله لا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة وإنما يكون تحريًا للحق عن سجية .

والذي يجب أن يستعمل الإنسان معه العدل خمسة أشياء :

الأول : بينه وبين رب العزة ﷻ بمعرفة توحيده وأحكامه .

والثاني : بين قوى نفسه ، وذلك بأن يجعل هواه مستسلمًا لعقله ، فقد قيل : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه .

والثالث : بينه وبين أسلافه الماضين في إيثار وصاياهم والدعاء لهم .

والرابع : بينه وبين معامليه في أداء الحقوق ، والإنصاف في المعاملات من البيع والشراء والكرامات وجميع المعاوضات والإجارات .

والخامس : بث النصفة بين الناس على سبيل الحكم ، وذلك إلى الولاة وخلفائهم .

وأما الحكام العدول في الأرض فثلاثة :

حاكم من اللَّه تعالى : وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والعامل والآمر به : وهو كل والٍ عدل .

والناض المعتبر به : وأعلاه الدينار ومعناه بالفارسية « دين أورده » والناض من وجه كالحاكم ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر به إذا قيس عمل بعمل ، ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها صار من امتنع عن التزامها وانتظامها أظلم ظالم ؛ ولهذا قال ﷻ : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٨] ، وقال : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ، ولكون الكفر ظلمًا قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء : ٨٢] فقابل المؤمن بالظالم .

---

(١) يقصد المعتزلة في قولهم بالحسن والقبح العقليين ، وقد سبق ذكر ذلك .

ما يحسن ترك العدل فيه

ترك العدل إلى الظلم عمدًا في جميع الأحوال مذموم ، والخارج عنه إلى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنه سخطًا من اللَّه ﷻ ، إلَّا أن يتغمده اللَّه تعالى بعفوه ، وأما الخارج عنه إلى الانظلام ، أي : التزام الظلم فقد يحمد .

والانظلام من حيث الكمية ثلاثة أضرب :

انظلام في المال : وهو الاستخذاء للظالم في أخذ ماله .

وانظلام في الكرامة : وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم .

وانظلام في النفس : وهو استخذاء لمن يؤلمه . وكل واحد يكون محمودًا ومذمومًا ، **ومن حيث الكيفية ضربان : محمود ، ومذموم .**

فالمحمود : التغاضي عن حق له في المال أو في الكرامة أو في النفس بقدر ما يحسن وفي وقت ما يحسن ، وهو المعبر عنه بالانخداع والتغافل الذي قيل فيه : العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل ، وإيَّاه قصد معاوية ﷺ بقوله : « **من خدعك فانخدعت له فقد خدعته** » ، وقال الشاعر :

ممن يعز على الثناء فيخدع

وذلك إذا كان في مال فمسامحة ، وإذا كان في النفس فعفو ، وإذا كان في الكرامة فتواضع .

وأما على الوجه المذموم : ففي المال غبن ، وفي الرأي غبن ، وفي النفس والكرامة هوان ومذلة .

وقد تقدم أن الإفضال والإحسان أشرف من العدل إذا كان الحكم بينك وبين غيرك ، فأما إذا حكمت بين اثنين فليس إلَّا العدل ، وإنما الإحسان إلى المتحاكمين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] ، وقال لمن له الحق : ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وقال يحيى بن معاذ [1] : اصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل فمع العدل ؛

(١) أحد زهاد القرن الثالث الهجري ، ولد بالري ، وانتقل إلى نيسابور ، وظل بها حتى توفي (٢٥٨هـ) ، =

الاستقصاء ، (ومع الفضل الاستبقاء) [١] وإني لأرجو أن يحاسب اللَّه تعالى عباده بالفضل لا بالعدل ، وقد أمرهم أن يصاحب بعضهم بعضًا بالفضل ، وقد عظم اللَّه تعالى أمر الإحسان والإفضال فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وقال : وهل يأمر الحكيم بما لا يفعله ؟ وكيف يترك الكريم التفضل ويقتصر على العدالة وقد بين أن الفضل أكرم وأفضل ، (تعالى عن أدنى المنزلتين) [٢] ، وكيف لا يرجى تفضله وأفعاله كلها عدل وعدله كله تفضل ؛ لأنه مبتدئ بما لا يلزمه والابتداء بما لا يلزم تفضل ، وهل يجوز أن يترك التفضل انتهاءً وقد تحراه ابتداءً ؟ .

الظلم

الظلم : هو الانحراف عن العدل ؛ ولذلك حدَّ بأنه : وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به ، وقد تقدم أن العدل يجري مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٧] ، والانحراف عنها في بعض جوانبها جور والظلم أعم الأسماء ، ولما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها إما قريبًا وإما بعيدًا ، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه إليه أصعب ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] تنبيهًا أن الشيطان متى أمعن بهم في البعد من الحق صعب عليهم حينئذٍ الاهتداء ، ولأجل من فعل بهم الشيطان ذلك قال تعالى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

وأما المستعمل معهم الظلم فخمسة ؛ وهم الذين يجب استعمال العدل معهم وقد تقدم ذكرهم ، الأول : رب العزة ، **الثاني** : قوى النفس ، **الثالث** : أسلاف الرجل ، **الرابع** : معاملوه من الأحياء ، **الخامس** : عامة الناس إذا تولى الإنسان الحكم بينهم ، وقد قال بعض العلماء : أظلم الناس من جار على نفسه ، ثم مَن جار على ذويه ، ثم من جار على كافة الناس ، وأفضلهم من عدل مع كافة الناس ، ثم مع عشيرته ، ثم مع نفسه وهذا قول وارد بنظر عامي ، فإن الظالم لا يكون ظالمًا لغيره حتى يظلم أولًا نفسه ، فإنه في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه ، فإذًا الظالم أبدًا مبتدئ بظلم نفسه ، والعادل مع

= وقد أثنى عليه ابن الجوزي وهو يترجم له . صفة الصفوة (٤/٩٢ - ٩٩) طبعة دار الوعي بحلب .

(١) « ومع الفضل الاستبقاء » سقطت من (ط) .

(٢) « تعالى عن أدنى المنزلتين » سقطت من (ط) .

الناس إذا همَّ بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره ، وقد قال بعضهم الظلم ثلاثة : **الظالم الأعظم** : وهو الذي لا يدخل تحت شريعة اللَّه تعالى وإياه عنى بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

والأوسط : وهو الذي لا يلتزم حكم السلطان .

والأصغر : هو الذي يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعة ، ومن خرج عن تعاطي العدل بالطبع وبالخلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ عن الإنسانية ، ومتى صار أهل كل صقع على ذلك فتهارشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبقَ فيهم أثر قبول (لمن يمنعهم ويصدهم عن الفساد) [١] فقد تقدم أن عادة اللَّه سبحانه في أمثالهم إهلاكهم وإفناؤهم واستئصالهم عن آخرهم .

الأسباب التي يحصل منها الأضرار

جميع ذلك أربعة أسباب :

الأول : الشرارة [٢] : كمن يضر بغيره مستلذًّا لفعله وذلك أخس الوجوه .

والثاني : الشهوة : وهو أن يقصد إدراك شهوة ما ، فرأى أنه لا يمكنه تحصيلها إلَّا بأن يضر بغيره ، كعامة المتلصصة والعاثين في الأرض بالفساد .

والثالث : الخطأ : وهو أن لا يقصد الإضرار بمن ضره بوجه ، بل قصد فعلًا آخر ، فاتفق منه ذلك ، كمن رمى قرطاسًا في هدف فأصاب رجلًا ، فهذا معذور من وجه .

والرابع : الشقاوة : كمن حملته ريح فأوقعته على إنسان فمات ذلك الإنسان ، فهذا معذور ومرحوم .

المكر والخديعة والكيد والحيلة [٣]

المكر والخديعة : متقاربان ، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره ، **وذلك ضربان** :

أحدهما مذموم : وهو الأشهر عند الناس والأكثر ، وذلك أن يقصد فاعله إنزال

---

(١) « لمن يمنعهم ويصدهم عن الفساد » سقطت من (ط) ، ومن (د) .

(٢) الشرارة : الشر والسوء والإفساد ونقيضه الخير . الإفصاح (١٦٣/١) .

(٣) في (ط) ، (د) : العنوان « في ذكر ... » .

مكروه بالمخدوع وهو الذي قصده النبي ﷺ بقوله : « **المكر والخديعة في النار** »[١] والمعنى : أنهما يؤديان بقاصدهما إلى النار .

والثاني على عكس ذلك وهو أن يقصد فاعلهما إلى استجرار المخدوع والممكور به إلى مصلحة لهما كما يفعل بالصبي إذا امتنع من تعلم خير ، وقد قال بعض الحكماء : المكر والخديعة محتاج إليهما في هذا العالم ، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ولا يميل إلى الحق ولا يقبله ؛ لمنافاته لطبعه ، فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة كما يخدع الطفل عن الثدي عند الفطام ؛ ولهذا قيل في مثل : مخرق فإنها الدنيا مخاريق ، وسفسط فإن الدنيا سوفسطائية[٢] ، وليس هذا حث على تعاطي الخبث ، بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال ، ولكون المكر والخديعة ضربين : سيئًا وحسنًا قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٢ ، ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ [النحل : ٤٥] فخص في هذه الآيات السيئ من المكر تنبيهًا على جواز المكر الحسن ، فقال : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

وأما الكيد : فإرادة متضمنة لاستتار ما يراد عمن يراد به ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر ، ومتى قصد به الشر فمذموم ، ومتى قصد به خير فمحمود ، وعلى الوجه المحمود قال ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وعلى ذلك الاستدراج منه أيضًا ﷻ نحو قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤ ، ٤٥] فاستدراجه ﷻ تغطية السبيل على الإنسان وتمكينه فيما يريد ليطلب بالآلات التي أعطاه ، وذلك تكليف له لما يقدر عليه وإن كان فيه مشقة ، ولتمكنه من إدراك ذلك قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ - ١٠] فمن جاهد في سبيله وأعمل فكره حتى ظفر به فسلكه على ما يجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة

(١) رواه الديلمي عن أبي هريرة ، وأخرجه القاضي عن ابن مسعود بزيادة : « **من غشنا فليس منا** » ، ورواه البيهقي عن قيس بن سعد قال : لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **المكر والخديعة في النار** » لكنت أمكر أهل الأرض . كشف الخفاء (٢/٢٩٧) . حديث (٢٧١٢) .

(٢) المخرقة : اللعب والمزاح . وقال ابن جني في سر الصناعة : قالوا : مرحبك الله ، وقالوا : مخرق الرجل وضعفها ابن كيسان ، وفي المعجم الوسيط مادته فتدل على تصنع الحمق . المعجم الوسيط (١/٢٩٩) ، وسفسط : غلط وأتى بالحكمة المموهة . المعجم (١/٤٣٥) .

وإحسانًا ولطفًا ، ومن عطل معاونه من الفكرة والسمع والبصر حتى أضل طريقه كان ذلك منه خذلانًا وعذابًا له ، وعلى نحو ما تقدم وصف نفسه تعالى بالحيلة والمماحلة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣] . وهذه الألفاظ لولا أن الباري ﷻ أطلقها في مواضع مخصوصة قاصدًا لمعانٍ صحيحة لما تجاسر بشر يعرف اللّٰه تعالى أن يخطر ذلك بباله ، فضلًا عن أن يجريه في مقاله ، وإن قصد بها المعنى الصحيح تنزيهًا له وتعظيمًا . فيجب أن تتلى في القرآن حيثما وردت ولا يتعدى بها ذلك ، وقد ذكر بعض المخلصين أن كثيرًا من الأوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود ما كان واحد يتجاسر أن تطلق عليه ﷻ لولا ورود السمع به في هذه الأسماء ؛ لما في هذه الأسماء من الكيفية والكمية والانفعال في وضع اللغة ، واللّٰه تعالى منزه عن كل ذلك ، وهذا فضل كبير يختص به غير هذا الكتاب .

ماهية المحبة وأنواعها

المحبة : ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا ، **وذلك ضربان** :

أحدهما : طبيعي : وذلك في الإنسان وفي الحيوان ، وقيل : قد يكون ذلك في الجمادات كالألف بين الحديد وحجر المغناطيس .

والثاني : اختياري : وذلك يختص به الإنسان ، وأما ما يكون بين الحيوانين فألفة ، **وهذا الثاني أربعة أضرب** :

الأول : للشهوة ، وأكثر ما يكون بين الأحداث .

والثاني : للمنفعة ، ومن جنسه ما يكون بين التجار وأصحاب الصناعة المهنية وأصحاب المذاهب .

والثالث : مركب من الضربين ، كمن يحب غيره لنفع ، وذلك الغير يحبه للشهوة .

والرابع : للفضيلة ، كمحبة المتعلم للعالم ، وهذه المحبة باقية على مرور الأوقات ، وهي المستثناة بقوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

وأما الضروب الأُخر : فقد تطول مدتها وتقصر بحسب طول أسبابها وقصرها .

والصداقة : أخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا تستعمل إلا في الحيوان .

وأما العشق : فمحبة بإفراط ، وذلك إما بحسب اللذة فيكون مذمومًا ، وإما بحسب

الفضيلة فيكون محمودًا ، ولا يكون للنفع ؛ فإن النفع يراد لغيره ، والفضيلة واللذة يرادان لأنفسهما .

فضيلة المحبة

أحد أسباب نظام أمور الناس المحبة ، ثم العدل ، ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل ، فقد قيل : العدل خليفة المحبة يستعمل حيث لا توجد المحبة ؛ ولذلك عظم اللّٰه تعالى المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملة فقال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] ، أي : محبة في القلوب تنبيهًا أن ذلك أجلب للعقائد وهو أفضل من المهابة ؛ فإن المهابة تنفر والمحبة تؤلف ، وقد قيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ؛ فإن طاعة المحبة من داخل ، وطاعة الرهبة من خارج ، وهي تزول بزوال سببها ، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا ، وإذا تواصلوا تعاونوا ، وإذا تعاونوا عملوا ، وإذا عملوا عمروا ، وإذا عمروا عمروا [1] .

ولفضل وقوع المحبة شرعًا شرع اللّٰه تعالى اجتماع أهل الملة الواحدة في مساجدهم كل يوم خمس مرات لإقامة صلاتهم ، واجتماع أهل البلد الواحد كل أسبوع مرة في الجامع ، واجتماع أهل المدينة وأهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة ، واجتماع أهل البلدان النائية في العمر مرة بمكة ؛ كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الأنس ؛ وليقع بسبب ذلك الود .

فضيلة الصداقة

الصديق يحتاج إليه في كل حال : إما عند سوء الحال فليعاونوه ، وإما عند حسن الحال فليؤانسوه وليضع معروفه عندهم ، ومن ظن أنه يمكنه الاستغناء عن صديق مغرور ، ومن ظن أن وجوده سهل فمعتوه .

ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق فقال : هو أنت بالنفس إلا أنه غيرك بالشخص ، ولعزة وجوده سئل عنه آخر فقال : هو اسم واقع على غير معنًى ، فإنه حيوان غير موجود ، ومن وجد إخوانًا ذوي ثقة وجد بهم عيونًا وآذانًا وقلوبًا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد واختيار من تركن إليه لتصادقه أمر صعب ؛ إذ قد يتشيع لك الناقص فتظنه فاضلًا فيكون : **كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم** .

(١) أي : إذا نشروا العمران طال عمرهم .

المحبب في الناس [(١)]

من حببه اللَّه إلى الناس فقد أنعم عليه نعمة وسيعة كما أن من بغَّضه إليهم فقد جعل له نقمة فظيعة ، والسبب فيمن يكون محببًا أن من رعاه اللَّه تعالى فصفى جوهره ، وأطاب روحه ، وحسن عمله حصل له نور يسري في مشاعر من يراه فيحبه ، وإياه قصد تعالى بقوله لموسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩] ، وقال النبي ﷺ : « **إذا أحب اللَّه عبدًا ألقى محبته على الماء فلا يشربه عبد إلَّا أحبه ، وإذا أبغض عبدًا ألقى بغضه في الماء فلا يشربه عبد إلَّا أبغضه** » [(٢)] ، ولما ألقى اللَّه تعالى على نبينا عليه السلام من المحبة قلما كان يأتيه من يبغضه فيهم بقلبه إلَّا إذا رآه وقلب في آفاق وجهه طرفه ، وألقى إلى كلامه سمعه أعجب به ففارقه على جميل .

الحث على مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار [(٣)]

حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ؛ فإنها قد تجعل الشرير خيِّرًا ، كما أن مصاحبة الأشرار قد تجعل الخيِّرَ شريرًا ، قال بعض الحكماء : من صحب خيرًا أصابته بركته فجليس أولياء اللَّه لا يشقى [(٤)] ولو كان كلبًا ككلب أهل الكهف ؛ فإن اللَّه تعالى ذكر في كتابه العزيز فقال : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] ؛ ولهذا أوصت الحكماء الأحداث بالبعد عن مجالسة السفهاء ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه : « لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله ويود لو أنك مثله » [(٥)] ، وقد قيل : جالسوا من تذكركم اللَّهَ رؤيتُه ويزيد في خيركم نطقه ، وقد قيل : إياك ومجالسة الأشرار فإن الطبع يسرق من الطبع وأنت لا تدري ، وقد قال النبي ﷺ : « **مثل الجليس الصالح كمثل الداري إن لم يجذك من عطره علقك من طيب ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل القين إن لم يحرقك بشرره علقك من نتن دخانه** » [(٦)] ،

---

(١) في (ط) ، (د) العنوان : « في ذكر المحبب في الناس » .

(٢) هذا اللفظ لم أقف عليه في مظانه ، ولكن البخاري يورده بلفظ : « **إذا أحب اللَّه عبدًا نادى جبريل : إن اللَّه يحب فلانًا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن اللَّه يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض** » . فتح الباري (٣٠٣/٦) باب بدء الخلق (٦) حديث (٣٢٠٩) .

(٣) العنوان في (د) هكذا مع : « وتجنب » بدل « ومجانبة » وفي (ط) : « والحث على مفارقة الأشرار » .

(٤) يشير إلى الحديث المتفق عليه في باب الذكر ، والذي فيه « **هم القوم لا يشقى جليسهم** » .

(٥) نهج البلاغة (٤٠٤) .

(٦) اللفظ هنا مختلف عما ورد في الصحيحين ، ولكن المعنى متفق تمامًا ، ولعل الذي هنا مروي بالمعنى وهذا =

وقد قال ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** »[١] ، أي : أنه يجذبه خليله إلى دينه ومذهبه ، ولقوة هذا المعنى وتأثيره في النفوس شاع على الألسنة قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي[٢]

وليس إعداء الجليس بجليسه في خلقه بمقاله وفعاله فقط ، بل بالنظر إليه ، فالنظر في الصورة يؤثر في النفوسى أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه ؛ فإن من دامت رؤيته لمسرور سر أو لمحزون حزن ، وليس ذلك في الإنسان فقط ، بل في الحيوانات والنبات . فإن الجمل الصعب قد يصير ذلولًا بمقارنة الذلل ، والذلول قد ينقلب صعبًا بمقارنة الصعاب ، والريحانة الغضة قد تذبل بمقارنة الذابلة ؛ ولهذا يلتقط أصحاب الفلاحة الرمم عن الزرع ؛ لئلَّا تفسدها ومعلوم أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة إذا قربت منهما ، وذلك مما لا ينكره ذو تجربة ، فإذا كانت هذه الأشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها على قبول صور الأشياء خيرها وشرها ؟ فقد قيل : إنما سمي الإنس إنسًا ؛ لأنه يأنس بما يراه إن خيرًا وإن شرًّا .

وللإنسان في المعاشرة ثلاثة أحوال : إما أن يكون شكسًا ، أي : قاسي الطبع ، أو ملقًا أي : سلس الطبع ، أو مساعدًا ، أي : تاركًا للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود ، وحق الإنسان في المعاشرة أن يتقوى من جهة الفكرة بالمطايبة في الكلام ، ومن جهة الغضب بالتحالم ، ومن جهة الشهوة بالجود ، وأن يتعرى عن أضداد ذلك ، وأن يجامل المعاشرين والمعاندين والمشتهين منهم بالإخوان ويصابرهم ويكاشرهم طمعًا في رجوعهم إخوانًا واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفًا ، فالظرف عبارة عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة والاحتمال ولين الجانب .

فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته

قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط ، فبعضهم آثر التفرد عن

= هو الأغلب ؛ إذ الداري هو العطار . البخاري : الذبائح (٣١) حديث (٥٥٣٣) - مسلم : كتاب البر والصلة ، باب استحباب مجالسة الصالحين ، حديث (٢٠٢٦) .

(١) رواه الترمذي بلفظ : « **الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » ، وقال : هذا حديث حسن غريب . الترمذي : الزهد باب (٤٥) حديث (٢٣٧٨) .

(٢) البيت لطرفة بن العبد . انظر شرح المعلقات السبع للخطيب التبريزي تحقيق د . فخر الدين قباوة (دار الأصمعي حلب ١٩٧٣م ، (ص١٥٩) .

الناس ، وبعضهم آثر الاختلاط بهم ، وقد أورد كل واحد في مذهبه أخبارًا وآثارًا ؛ وذلك بسبب اختلاف نظرهما وابتلاء أحدهما بمصاحبة من لم تحمد مصاحبته ، ومصاحبة الآخر من تحمد صحبته ، والأصل أن اجتماع الناس بعضهم مع بعض أمر ضروري لتعلق أمور بعضهم ببعض ؛ ولهذا لما سمع أمير المؤمنين عمر ﷺ رجلًا يقول : اللّهم اغنني عن الناس ، فقال : يا رجل أراك تسأل اللّه الموت ، قل اللّهم اغنني عن شرار الناس . فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض (ما داموا أحياء ، ثم في المعاشرة والتفرد عن الأخيار الذين يفيدونك ويعينونك ولا يؤذونك مكروه سيما إذا لم تدرب في الفضل ولم تستغن عن اقتباس العلم ، وأما عن الأنذال الذين يتدنس بمصاحبتهم فمحمود)[1] ، وقد قيل : التفرد مكروه إلّا لثلاثة : لسلطان لإنشاء تدبير المملكة ، وحكيم لاستنباط الحكمة ، ومتنسك لمناجاة رب العزة ، فإن التفرد يبطل الإنسانية ولا يظهر من صاحبه فضيلة ، ومن ظن بالمتفرد خيرًا فلأجل أن ليس يظهر منه شيء ، وهذا يشاركه فيه الموتى ، وفضيلة الإنسان أن يكون خيرًا ، لا أن يكون شريرًا ، وإن كان زماننا هذا كما قال المتنبي :

إنا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس إحسان وإجمال

فحق العاقل الفاضل أن يجتمع مع العامة في ظواهر أحكام الشرع ، وإقامة وظائف العبادات ، وإنالتهم من الفضيلة بقدر الوسع ، ويترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق والأفعال الجميلة ، ولمراعاة الحكم الظاهر قال عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بالسواد الأعظم** »[2] ، ولمراعاة الترفع عن منزلتهم في المعارف والأخلاق قيل : المروءة التامة مباينة العامة ، بل قيل : من استأنس باللّه استوحش من الناس ؛ وذلك لمخالفته إياهم في الخلق وللنهي عن الاغترار بكثير منهم ، والركون إليهم ، سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق ، قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ [فاطر : ١٤] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

---

(١) من قوله : « ما داموا أحياء » إلى قوله : « فمحمود » سقط من (ط) فقط .

(٢) هذا جزء من حديث رواه ابن ماجه بلفظ : « **إن أمتي لا تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسواد الأعظم** » في الزوائد في إسناده أبو خلف الأعمى ، واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف ، وقد جاء الحديث بطرق كلها فيه نظر ، قاله شيخنا العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي . سنن ابن ماجه : فتن (٨) حد ث (٣٩٥٠) مجلد (٢) ، (١٣٠٣هـ) .

العـداوة

العدو : هو الذي يتحرى اغتيال الآخر ويضاده فيما يؤدي إلى مصالحه ، ومنه قولهم : تعدى فلان على فلان ، أي : فعل به فعل العدو وهو من قولهم : مكان ذو عدو ، أي : متنافي الأجزاء ناب بمن حله ، (ويضاد العداوة الولاية واشتقاقه من وليه يليه ، والولاء أعم من الصداقة والمودة) [١] .

والعداوة ضربان : **باطن** : لا يدرك بالحس ، **وظاهر** : يدرك بالحس . **والتام العداوة اثنان** :

أحدهما : الشيطان : وهو أصل كل عدو يعادي معاداة جوهرية ، وقد حذرنا اللّه تعالى منه غاية التحذير بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] ، وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ [يس : ٦٠] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه : ١١٧] وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

والثاني : الهوى المعبر عنه بالنفس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . وقول النبي ﷺ : « **أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك** » [٢] .

وكذا الغضب إذا كان فوق ما يجب ، ولكون هذه القوة في الإنسان إذا أثيرت طريقًا للشيطان في وصوله إلينا ، وكونها كالخليفة له سمّاه النبي ﷺ باسمه فقال : « **الهوى شيطان والغضب شيطان** » [٣] ، وقال تعالى حكاية عن موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

وأما الظاهر من الأعداء فالإنسان ، وذلك ضربان :

ضرب : **هو عدو مضطغن للعداوة** : قاصد إلى الإضرار إما مجاهدة وإما مساترة ، **وذلك اثنان** : واحد يعادي كل أحد ، وهو كل إنسان سبعي الطبع ، خبيث الطينة ، مبغض لكل من لا يحتاج إليه في العاجل ، بغيض إلى كل نفس ، يهارش كل من

---

(١) « ويضاد العداوة الولاية ، واشتقاقه من وليه يليه ، والولاء أعم من الصداقة والمودة » كل هذا سقط من (ط) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواية أحمد في مسنده : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ** » مسند أحمد (٤/٢٢٦) .

لا يخافه ، كما قال الشاعر :

يسطو بلا سبب وتلـ ـك طبيعة الكلب العقور

ومثله هو الذي عني بقوله تعالى : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

والثاني : عدو خاص العداوة ، وذلك إما بسبب الفضيلة والرذيلة كمعاداة الجاهل للعاقل ، وإما بسبب تجاذب نفع دنيوي كالتجاذب في رياسة وجاه ومال ، وإما بسبب لحمة وقرابة أو مجاورة مورثة للحسد كمعاداة بني الأعمام بعضهم لبعض ، وذلك في كثير من الناس كالطبيعي .

وقد قال رجل لآخر : إني أحبك . فقال له : قد علمت ذلك ، فقال له : من أين علمته ؟ فقال : لأنك لست لي بشريك ولا بنسيب ولا جار قريب ، وأكثر المعاداة بين الناس إنما تتولد من شيء من ذلك .

والثاني : عدو غير مضطغن للعداوة : ولكن يؤدي حاله بالإنسان إلى أن يقع بسببه في مثل ما يقع في كيد عدوه. فسمي عدوًّا لذلك ؛ كالأولاد والأزواج . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤] ، وقال عليه السلام : « **ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله وإن قتلك أدخلك الله الجنة ، ولكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك ، وأولادك الذين من صلبك** » [(١)]
فجعل عليه السلام هؤلاء أعداء الإنسان لما كانوا سبب هلاكه الأخروي ، لما يرتكبه من المعاصي لأجلهم ، فيؤدي به إلى هلاك الأبد الذي هو شر من إهلاك المعادي المناصب إيَّاه .

واعلم أنه لكون الإنسان - أو بعض الناس - مشاركًا للشيطان في المعاداة سمى الله تعالى الأعداء شياطين الإنس والجن في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] .

وقد سمى كل ما يتأذى به شيطانًا حتى قالوا : ما ليلة الفقير إلَّا شيطان مجنون يؤذي بروح الإنسان ، والفقير هو اسم بئر فجعله ليلة ورودها شيطانًا لتأذيه بها .

* * *

(١) قال صاحب كشف الخفاء : رواه الديلمي عن أبي مالك الأشعري ، والعسكري عن سعيد بن أبي هلال مرسلًا ، معناه بلفظ قريب منه ، وحديث أبي مالك عند الطبراني بلفظ مختلف ، لكن المعنى نفسه . كشف الخفاء (٢/١٧٠) حديث (٢١٤٤) .




كتاب

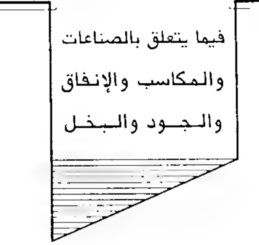
الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفصل السادس

فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب

والإنفاق والجود والبخل



في حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر

اعلم أنه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما تحتاج إليه إلَّا بمعاونة غيره له - فإن لقمة الطعام لو عددنا تعب تحصيلها من حين الزرع إلى حين الطحن والخبز وصناع آلاتها لصعب حصره - احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة ، متظاهرين متعاونين ؛ ولهذا قيل : الإنسان مدني بالطبع ، أي : أنه لا يمكن التفرد عن الجماعة بعيشه ، بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا ، وعلى ذلك نبه ﷺ بقوله : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** » [(١)] ، وبقوله ﷺ : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى** » [(٢)] .

وقد قيل : الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضًا استقل ، ومتى خذل بعضه بعضًا اختل .

تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل واحد بما يتحراه

لما احتاج الناس بعضهم إلى بعض سخر اللَّه تعالى كل واحد منهم لصناعة ما يتعاطاها ، وجعل بين طبائعها وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية ؛ ليؤثر كل واحد منهم حرفة من الحرف يشرح صدره لها ، ويفرح بملابستها وتطيعه قواه لمزاولتها ، ولو كلف صناعة أخرى ربما وجد متبلدًا فيها ، ومتبرمًا بها .

وقد سخرهم اللَّه تعالى لذلك ؛ لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة ، فتبطل الأقوات والمعاونات ، ولولا ذلك لما اختاروا من الأسماء إلَّا أحسنها ، ومن البلاد إلَّا أطيبها ، ومن الصناعات إلَّا أجملها ، ومن الأعمال إلا أرفعها ، ولتفاخروا على ذلك .

ولكن اللَّه تعالى بحكمته جعل كلًّا منهم فيما هو فيه مجبرًا في صورة مختار ، فالناس إما : راضٍ بصنعته لا يريد عنها حولًا كالحائل الذي يرضى بصناعته ويعيب الحجام ، والحجام الذي يرضى بصناعته ، ويعيب الحائل ، وبهذا انتظم أمرهم كما قال تعالى :

(١ ، ٢) متفق عليهما .

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٣] .

وإما كاره لها ، يكابدها مع كراهيته إياها ، كأنه لا يجد عنها بديلًا ، وعلى هذا دل قول النبي ﷺ : « **كلٌّ ميسر لما خلق له** » [١] ، بل صرح تعالى بذلك في قوله : ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] .

ولهذا قال ﷺ : « **لن يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا** » [٢] فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتئام والاجتماع والاتفاق ؛ كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتعددها الذي لولاه لما حصل لها نظام ، فسبحان اللَّه ! ما أحسن ما صنع وأحكم ما أسس ، وأتقن ما دبر ؛ ولهذا قيل : من حق من قيض اللَّه له صناعة مباحة فرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب ، وعليه دل قول النبي ﷺ : « **من رزق من شيء فليلزمه** » [٣] .

كون الفقر وخوفه سبب انتظام أمر الناس

حصول الفقرِ وخوفه المنتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكدر في منفعة الناس إما باختيار ، وإما باضطرار ؛ ولهذا قيل : رب ساعٍ لقاعد ، وهو أن الناس لو كفى كل واحد منهم أمره لأدى إلى فساد العالم ، من حيث إنه لم يكن لأحد (أن) يتولى لغيره مهنة ، وكان الواحد منهم يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها فيؤدي ذلك إلى فقر جميعهم .

وقد قيل : قيام العالم بالفقر أكثر من قيامه بالغنى ؛ لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث : الملك ، والتجارة ، والكتابة ، وسائرها قائم بالفقر .

---

(١) رواه البخاري في باب التفسير بلفظ : « **اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له** » البخاري : تفسير سورة الليل أحاديث (٤٩٤٥ - ٤٩٤٩) . فتح الباري (٧٠٨/٨) .

(٢) سبق بيان أنه ليس بحديث .

(٣) ذكر العراقي في الإحياء . « **من رزق من شيء فليلزمه ، ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل منه حتى تتغير عليه** » من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ، ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ : « **إذا سبب اللَّه لأحدكم رزقًا فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له** » .

فلو لم يكن الفقر وخوفه لما انتظم معاش العالم ، فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ؟ ومن كان ينقل المير والملابس من الشرق إلى الغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ؟ .

وعلى منفعة الفقر نبه قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقوله ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : ٣٣] . هذا مع أن من الناس من لو كفي أمر دنياه لكان يوجد منه من البغي والتسلط ما يؤدي إلى خراب البلاد وفساد العباد ، بل كان يوجد منه ما يؤدي إلى هلاك نفسه في أسرع مدة ، وعلى ذلك دلَّ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٢٧] (١) . ومن تدبر صنع اللَّه في ذلك وتأمل ما أشار إليه في هذه الآيات التي ذكرها لم تعرض له الشبهة التي تعرض لمن يقول : إذا كان اللَّه غنيًّا جوادًا واسعًا فلم خص بعض خلقه بالغنى ، وجعل أكثرهم فقراء ؟ ومن حق الغني الذي لا يفنى غناه ، والجواد الذي لا يعرف لجوده منتهى ألَّا يخص بالعطية بعضًا دون بعض ؟ وذلك أن الجواد الحق هو الذي يعطي كل أحد بقدر استحقاقه على وجه يعود بمصلحته ومصلحة غيره ، وقد فعل تعالى ذلك بكثير من العباد .

مناسبة بدن الإنسان لصناعته

إن اللَّه تعالى فرق همم الناس للصناعات المتفاوتة ، ويسر كلًّا لما خلق له ، وجعل آلاتهم الفكرية والبدنية مستعدة لها ، فجعل لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبًا صافية ، وعقولًا بالمعارف لائقة ، وأمزجة لطيفة ، وأبدانًا لينة مستصلحة لما خلقوا له ، وجعل لمن قيضه لمراعاة المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء قلوبًا قاسية وعقولًا كنزة ، وأمزجة غليظة ، وأبدانًا خشنة .

وكما أنه محال أن يصلح السمع للرؤية والبصر للسمع كذلك من المحال أن يكون من خُلق للمهنة يصلح للحكمة .

وقد جعل اللَّه كل جنس من الفريقين نوعين : رفيعًا ووضيعًا .

(١) يلاحظ أن النسخة (ط) بها نقص ، ففيها من أول الآية : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ إلى ما قبل آية : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ كل هذا سقط من (ط) وحدها .

فالرفيع : من تحرى الحذق في صناعته ، وأقبل على عمله ، وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه ، وأدى الأمانة بقدر جهده ، ولم يشتغل عن عبادة الله ﷺ كما قال : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] . وقال عليه السلام : « **إن الله يحب الصانع الحاذق** » (١) ، ومدح الملائكة بوقوفهم حيث ما وقفوا ، وإحكامهم لما ولوا ، فقال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وجوب التكسب

التكسب في الدنيا وإن كان معدودًا من المباحات من وجه ، فإنه من الواجبات من وجه ؛ وذلك أنه لما لم يكن للإنسان الاستقلال بالعبادة إلَّا بإزالة ضروريات حياته ، فإزالتها واجبة ؛ لأن كل ما لا يتم الواجب إلَّا به فواجب كوجوبه .

وإذا لم يكن له إلى إزالة ضرورياته سبيل إلَّا بأخذ تعب من الناس فلا بد إذًا أن يعوضهم تعبًا من عمله وإلَّا كان ظالـمًا ، فمن توسع في تناول عمل غيره في مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد أن يعمل لهم عملًا بقدر ما يتناوله منهم ، وإلَّا كان ظالـمًا لهم ، سواء قصدوا إفادته أو لم يقصدوها ، فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم إلَّا قليلًا يرضى منه بقليل من العمل ؛ ولهذا قال عليه السلام : « **من رضي من الله بقليل الرزق رضي الله منه بقليل العمل** » (٢) ، ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعًا فإنه لم يأتمر لله تعالى في قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] ، ولم يدخل في عموم قوله : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] ؛ ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب ، ولم يكن له علم يؤخذ منه ، ولا عمل صالح في الدين يقتدي به ، بل يجعل همه عارية بطنه وفرجه . فإنه يأخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ، ولا يرد إليهم نفعًا ، فلا طائل في مثلهم إلَّا بأن يكدروا المشارع ، ويغلوا الأسعار ؛ ولهذا الشأن كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نظر إلى ذي سيماء سأل عنه : أله حرفة ؟ فإن قيل : لا ، سقط من عينيه .

وقد استحسن النبي ﷺ من وفد عبد القيس لما سألهم ، فقال : « **ما المروءة** » ؟

---

(١) قال العراقي : رواه الطبراني وابن عدي وضعفه من حديث ابن عمر ، كما ورد ما رواه الحكيم الترمذي : « **إن الله يحب العبد المؤمن المحترف** » ورد من عدة طرق ، مفرداتها ضعاف لكن تتقوى فيصير حسنًا . كشف الخفاء (١/٢٥٠) .

(٢) رواه البيهقي والديلمي عن علي رضي الله عنه . كشف الخفاء (٢/٢٥٠) حديث (٢٤٨٧) .

فقالوا : العفة والحرفة .

ومن الدلالة على قبح فعل من هذا صنيعة أن اللَّه تعالى ذم من يأكل مال نفسه إسرافًا وبدارًا ، فما حال من يأكل مال غيره على ذلك ولا ينيلهم عوضًا ، ولا يرد عليهم بدلًا ؟ .

فمن كان مضطرًّا إلى كسب فحقه أن يقتصر على ما يسد به فقر وقته ، ولا يحمل هم غده على يومه .

فمن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر [١]

ومن اقتصر على قدر ذلك فقد صار من المتوكلين الذين عناهم النبي ﷺ بقوله : « **لو توكلتم على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا** » [٢] .

مدح السعي وذم الكسل

من تعطل وتبطل انسلخ من الإنسانية ، بل من الحيوانية ، وصار من جنس الموتى ، وذلك أنه إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث ليسعى في فضيلتها ، فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميه ، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميه ، وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه ، فحقه أن يتأمل قوته ، ويسبر قدر ما يطيقه ، فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الضعة إلى الرفعة ، ومن الخمول إلى النباهة .

وأن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة (فحب الهوينا يكسب النصب) ، وقد قيل : إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلَّا تتعب ، وقيل : إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقًّا ، وإن ضجرت لم تصبر على الحق . قال الشاعر :

إن التواني أنكح العجز بنتـه وساق إليها حين أنكحها مهـرا
فراشًا وطيئًا ثم قال لها اتكي فقصرا كما لا شك أن تلدا الفقرا

وقال يزيد بن المهلب : ما يسرني أن كفيت أمر الدنيا كله لئلَّا أتعود العجز ، ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية ، فكل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل ، كالعين

---

(١) للمتنبي : مختارات البارودي (١/٣٧) ، (طبعة ١٣٢٧هـ) .

(٢) رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب ، وقال عنه : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه . الترمذي : الزهد (٣٣) حديث (٢٣٤٤) .

إذا غمضت ، واليد إذا عطلت ؛ ولذلك وضعت الرياضات في كل شيء . ولما جعل اللَّه تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقًا إلَّا بسعي ما منه ؛ لئلَّا تتعطل فائدة ما جعل له من قوة التحرك .

ولما جعل للإنسان قوة الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبًا يصلحه هو بفكرته ؛ لئلا تبطل فائدة الفكرة ، فيكون وجودها عبثًا .

وتأمل حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب الجني ما كفاها مؤونة الطلب ، وفيه أعظم معجزة ، فإنه لم يخلها من أن يأمرها بهزها ، فقال تعالى : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] .

وكما أن البدن يتعود الرفاهية بالكسل ، كذلك النفس بترك النظر والتفكر تتبلد وتتبله ، وترجع إلى رتبة البهائم .

فحق الإنسان ألا يذهب عامة أوقاته إلَّا في إصلاح أمر دينه ودنياه ، ومتوصلًا به إلى إصلاح أمر آخرته ، ومراعيًا لها ، قال الحجاج : إن امرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من ذنبه ، أو يفكر في معاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة .

وإذا تأملت قول النبي ﷺ : « **سافروا تغنموا** » (١) ، ونظرت إليه نظرًا عاليًا علمت أنه حثك على التحرك الذي يثمر لك جنة المأوى ، ومصاحبة الملأ الأعلى ، بل مجاورة اللَّه تعالى .

وذلك يحتاج إلى أربعة (٢) أشياء :

معرفة المقصود المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

ومعرفة الطريق إليه المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وتحصيل الزاد المبلغ المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) ذكر في (ط) : خمسة أشياء ، وفي (د) : ثلاثة أشياء ، ولم يتفق في أيهما العدد مع المعدود ، ولكن (أ) ذكرت أربعًا وعدت أربعًا .

والمجاهدة في الوصول إليه كما قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج : ٧٨] .

فبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه اللّه منه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] ، وهذه من المعاني التي دونها هول العوالي ، ولا ضير لمن رامها أن يتذرع بالصبر ، فقد أصاب من قال :

فقل لمرجي معالي الأمور بغير اجتهاد رجوت المحالا

تقاسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض

الصناعات ثلاثة أضرب :

إما أصول لا قوام للعالم دونها ، وهي أربعة أشياء : الزراعة ، والحياكة ، والبناية ، والسياسة .

وإما مرشحة لكل واحد من هذه وخادمة لها ؛ كالحدادة للزراعة ، والحلاجة والغزالة للحياكة .

وإما ثمرة لكل واحد من ذلك ومزينة له ، كالطحانة والخبازة للزراعة ، والقصارة للحياكة ، ومثل ذلك بالإضافة إلى العالم مثل أجزاء الشخص إلى الشخص سواء بسواء ، فإنها على ثلاثة أضرب : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما مرشحة لتلك الأصول وخادمة كالمعدة والعروق والشرايين ، وإما مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب .

فأشرف أصول الصناعات السياسة وهي أربعة أضرب :

الأول : سياسة الأنبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ، ظاهرهم وباطنهم .

والثاني : الولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم .

والثالث : الحكماء وحكمهم على باطن الخواص .

والرابع : الفقهاء والوعظة وحكمهم على بواطن العامة [1] .

وأشرف هذه السياسات الأربعة بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب الناس به ، **وبيان ذلك**

---

(١) في النسخة (د) : « بواطن العامة والخاصة » .

أن شرف الصناعة يتبين من أوجه :

إما بحسب النسبة إلى القوة المبرزة لها كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات ، فإن الأولى متعلقة بالقوة العقلية ، وهذه بالقوة الحسية ، والعقل أشرف من الحس .

وإما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة .

وإما بحسب شرف الموضوع المعمول فيه كشرف الصياغة على الدباغة .

وقد علم أن الحكمة تدرك بالقوة المفكرة ، وهي أشرف قوة في الإنسان ، وأنه يتوصل بها إلى جنة المأوى ، وذلك أبلغ نفع ، وموضوعها الذي تعمل فيه نفوس البشر ، وهي أفضل موضوع يعمل فيه ، بل أفضل موجود في هذا العالم .

وإفادة العلم من وجه صناعة ، ومن وجه عبادة ، ومن وجه أجل خلافة للّه تعالى ، فإن اللّه تعالى مع استخلافه قد فتح على قلبه العلم الذي هو أخص صفاته تعالى ، فهو خازن لأجلِّ خزائنه ، وقد أذن له في الإنفاق على كل أحد ممن لا يفوته الإنفاق عليه ، وكلما كان إنفاقه على ما يجب ، وكما يجب أكثر كان جاهه عند مستخلفه أوفر .

في أن أصول الصناعات مأخوذة من الوحي

أصول الصناعات والمكاسب مأخوذة عن وحي ؛ وذلك أن نقص البشر وحاجة بعضهم إلى بعض أمر ظاهر ، والناقص محتاج إلى الكامل ، فلا يخلو : إما أن يكون قد أخذ ذلك واحد عن واحد بلا نهاية ، (وذلك إيجاب ما لا نهاية له) [1] وهو محال .

وإما أن ينتهي إلى واحد من البشر علمه اللّه الصناعات ، إما بسماع من الملأ الأعلى ، أو بإلهام أو منام ، وهذا هو الوحي ، فمعلوم لذي اللب أن قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن إدراك خواصها بأفهام البشر وتجربتهم ، ورؤساء كل صناعة يقرون بذلك . فأهل النجوم يقولون : مبادئ النجوم من هرمس ، ويقولون : هو الذي عرج بروحه إلى السماء واطلع على ذلك ، ويقولون هو قبل إدريس عليه السلام ، وكذلك أصحاب الطب يدعون مثل ذلك في معرفة الأدوية .

واختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته ، وانحسار العقل عن توهم

---

(١) « وذلك إيجاب ما لا نهاية له » سقط من (ط) .

ما هو أصلح لذلك الفعل منه ، يحقق أنه صدر عن حكمة إلهية .

في شأن الناض المتعامل به
وبيان حكمة الله تعالى فيه

اعلم أن الناض أحد أسباب ما به قوام الحياة الدنيوية ، ومتى توهمناه مرتفعًا تعسر على الناس تزجية معاشهم ، وقد تقدم أن الناس يحتاج بعضهم إلى بعض ، ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملاً يصير به معينًا للآخر مواسيًا له ، ولما كان كل من واسى غيره فمن حقه أن يقابل بقدر مواساته (لكن ربما لم يحصل عند صاحبه ما يريده هو) [(١)] فقيض اللَّه تعالى لهم هذا الناض علامة منه - جلَّ ثناؤه - ليدفعه الإنسان إلى من يوليه نفعًا فيحمله إلى من عنده مبتغاه فيأخذ منه قدر عمله ، ثم جاء ذلك الآخر إلى الأول بتلك العلامة أو بمثلها ، وطلب منه مبتغى هو عنده دفعه إليه لينتظم أمرهم بذلك ؛ ولذلك قيل : الدرهم حاكم صامت ، وعدل ساكت ، وحكم من اللَّه تعالى نافذ ، وقد قيل لهذا المعنى سمي في لغة الفرس الدينار (دين أورد) ، أي : الدين أتى به والدين فارسية معربة ، ولما كان ذلك حاكمًا عظم اللَّه تعالى وعيد من احتبسه ومنع الناس من التعامل به ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] ، وذلك أنه يصير باحتباسه إياهما كمن احتبس حاكمين للناس بهما تتمشى أمور معاشهم ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « **الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في جوفه نار جهنم** » [(٢)] ؛ لأن اتخاذه الذهب والفضة آنية يؤدي إلى منع الناس عن تصريفه في معاملاتهم وتضييقه عليهم مكاسبهم .

مدح المال وذمه

المال إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم ، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر ؛ إذ هو أخس القنيات . **فالقنيات ثلاثة** : نفسية وبدنية وخارجة ، والخارجة أدونها وأدون الخارجات الناض ؛ لأنه خادم غير

---

(١) « لكن ربما لا يحضر عند صاحبه ما يريده هو » سقطت من (ط) .

(٢) لفظ البخاري : « **الذي يشرب في إناء الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم** » مع ملاحظة أن للبخاري حديثًا آخر : « **لا تشربوا في آنية الذهب والفضة** » لكن بدون الزيادة المذكورة . البخاري الأشربة (٢٨) حديث رقم (٥٦٣٣) فتح لباري (١٠/٩٦) .

مخدوم ، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه ؛ لأن النفس يخدمها البدن والبدن يخدمه المأكل والملبس وهما يخدمهما المال ، فالمال من حقه أن يكون خادمًا لغيره من القنيات ، وأن لا يكون شيء من القنيات خادمًا له ، وإن كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدمًا للمال وعبيدًا ، وهم الذين ذمهم النبي ﷺ بقوله : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش** » (١) ، ولعظم موقع المال عند من لم يتجاوز المحسوسات ، قال تعالى حكاية عن بعض أنبيائه فيما خاطب به أمته : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠ - ١٢] .

ولعظم منافعه في الأمور الدنيوية قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء : ٥] ونبه على حقارة قدره بالإضافة إلى أحوال الآخرة فقال : ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ، وخوف من أعجب باقتنائه وذمه فقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر : ١١ - ١٣] . فحق الإنسان أن يعلم أن المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في خان (٢) على طريق سفره يصلح للانتفاع بها ما دام نازلًا في ذلك الخان ، فيتناول منه مقدار البلغة ويتسلى عن الباقي عند الرحلة ، ويستهجن لنفسه أن يكذب ويغضب ويحزن ويرتكب القبائح بسببها .

واعلم أن الناض الذي هو العين والورق حجر جعله اللّه سبحانه سببًا للتعامل به - كما تقدم ذكره آنفًا - وهو خادم غيره ، فقبيح بالحر المترشح لنيل الفضائل والاقتداء بالبارئ جلت عظمته - وهو يأمل الوصول إلى الغنى الأكبر - أن يتهافت على المال ويتناول أكثر مما يحتاج إليه ، ويجعل نفسه أقل رقيق له وأخسه كما قيل : فرق ذوي الأطماع رق مخلد ، ويكون معتكفًا فيه على حجر يعبده كما قال تعالى : ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . والذي أرى أن إبراهيم عليه السلام لما سأل اللّه تعالى فقال : ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] لم يرد إلَّا أن يحسره وذريته عن محبة الأعراض الدنيوية الصارفة عن اللّه ، فمثله وولده يتنزه عن أن يشفق من

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) الخان : المتجر والحانوت ، وهي معربة .

اعتقاده في حجر أنه هو صانعه وأنه يستحق عبادته . وقد قال في موضع آخر إشارة إلى ما يعم في هذا المعنى وغيره : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٤٢] ، وقد قال بعض الحكماء : مثل الإنسان وشغفه بهذا الحجر ، بل سائر الأعراض الدنيوية كمثل قوم كانوا في سفينة يقصدون أفضل بلد وأطيبه ، فانتهت بهم السفينة إلى جزيرة أرادوا الخروج إليها والتفسح فيها للطهارة ، والجزيرة ذات أسود وأساود ، فأمروا بالخروج وأن يكونوا على حذر ، فلما خرجوا إليها رأوا فيها حجارة مزخرفة وأزهارًا مستحسنة مختلفة ، فأعجبهم ذلك وشغفوا به وأمعنوا في الجزيرة وتباعدوا عن المركب ونسوا أنفسهم ومقصدهم وبقوا لاهين بما رأوا من ذلك ، حتى سارت السفينة فثارت عليهم الأسود والأساود تفترسهم وتنهشهم فلن يغن عنهم ما خدعهم وألهاهم من تلك الأحجار والأزهار ، فصاروا كما قال تعالى حكاية عمن هذه حاله [1] : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة : ٢٨ ، ٢٩] .

ذكر المال والأدب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل

قد تقدم أن المال من الخيرات المتوسطة ؛ لأنه كما قد يكون سببًا للخير فقد يكون سببًا للشر ، لكن لما كان في أكثر الأحوال موجبًا كرامة أصحابه وتعظيم أربابه حتى صدق قول الشاعر فيما قال :

الناس أعداء لكل مدقع صفر اليدين وإخوة للمكثر

قيل : رأيت ذا المال مهيبًا مكرمًا ، وقد قال النبي ﷺ : « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** » [2] ، واستُصوب قول طلحة رضي الله عنه في دعائه : اللهم ارزقني مجدًا ومالًا فإنه لا يصلح المجدُ إلَّا بالمال ، ولا يصلح المالُ إلا بمراعاة المجد ، ونظر المتنبي هذا النظر حيث قال :

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجده

وقال بعض الحكماء : اطلب العلم والمال تحوي الرئاسة ، فالناس خاص وعام ،

---

(١) في النسخ نقص واختلاف بالحذف والتقديم والتأخير ، ولعل الذي ذكرنا من نسخة (أ) أقربهما إلى الدقة في التركيب وأداء المعنى .

(٢) مسند أحمد (٤/٢٠٢) وقد سبق تخريجه .

فالخاص يفضلك بما تحسن ، والعام بما تملك .

واكتسابه من الوجوه التي ينبغي صعب ، وتفريقه سهل ، كما قال الشاعر :

له مصعد صعب ومنحدر سهل

ومن رام اكتسابه من وجهه صعب عليه ، فالمكاسب الجليلة قليلة عند الحر العادل . ومن رضي بكسبه من حيث ما اتفق فقد يسهل عليه .

والفاضل ينقبض عن اقتناء المال ، ويسترسل في إنفاقه ، ولا يريده لذاته ، بل لاكتساب المحمدة به ، ولا يجتمع عنده المال مدخرًا ، لكن كما قال الشاعر (النضر بن جؤية) :

لا يألف الدرهم المضروب صُرَّتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

إنا إذا اجتمعت يومًا دراهمنا ظلت إلى طرق المعروف تستبق

وغير الفاضل يسترسل في اقتنائه ، ويقبض في إنفاقه ، ويطلبه لذاته لا لادخار الفضيلة به . **والمال يحصل من وجهين** :

أحدهما : بسبب منسوب إلى الجد المحض والبخت الصرف ، من غير اكتساب من صاحبه ، كمن ورث مالًا ، أو وجد كنزًا ، أو قيض له من أولاه شيئًا .

والثاني : أن يكتسب الإنسان ، كمن يشتغل بتجارة أو صناعة فيدخر منها مالًا . وهذا الضرب لا يستغنى فيه عن الجد ؛ ولهذا قيل :

وعليَّ أن أسعى وليـ ـس عليَّ إدراك النجاح

فحظ الجد في المال أكثر من حظ الكد بخلاف الأخلاق والأعمال الأخروية التي حظ الكد فيها أكثر ، وقد نبّه اللّه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] ، فاشترط في العاجلة مشيئته للمعطي وإرادته للمعطى له ، ولم يشترط السعي ، واشترط في الآخرة السعي لها مع الإيمان ، ولم يشترط إرادته تعالى ومشيئته وإن كان ذلك لا يتعرى منهما .

فحق العاقل أن يعني بما إذا طلبه ناله ، وإذا ناله لم يخف زواله ، ويقلل المبالاة بما ، إذ قدر له أتاه طلبه أو لم يطلبه .

وقد قال بعض الحكماء : إن البخت بمنزلة امرأة صماء عمياء ورهاء [1] في حجرها

(١) ورهاء : كثيرة الشحم .

جواهر ، وهي قاعدة على حجر مدور ، يتبعها ناس كثير يلتمسون ما عندها ، وهي لا تسمع قولًا ولا ترى وجهًا ، وقد اعتزل عنها قوم قليلو العدد ، وقعدوا ناحية ، وفي كل ساعة تقبض قبضة مما في حجرها وتعطيها واحدًا من القوم . (لا تخص أتباعها ، بل ربما تخطئهم وربما تعطيهم)[1] ، كأنها المعنية بقول من قال من الشعراء :

لا تمدحن ابن عباد وإن مطرت   كفاه جودًا ولا تذممه إن ذمما

فليس يبخل إبقاء على نشب   ولن يجود بفضل المال معتزما

لكنها خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرما

وتارة تعرج على من أعطته فتسلبه سلبًا وتدوسه بحجرها دوسًا .

وأما الفضائل الأخروية : فكما قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ ، ٤٠] .

سبب إخفاق العاقل وإنجاح الجاهل

الحكمة تقتضي أن يكون العاقل الحكيم في أكثر الأحوال مقلًّا ؛ وذلك أنه لا يأخذ المال إلَّا كما يجب من الوجه الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب ، ثم إذا أخذه وتناوله لم يدخره عن مكرمة تعن له .

والجاهل أسهل عليه الجمع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محظور واستباحة محجور . واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر ، ومساعدتهم على ارتكاب الشر طمعًا في نفعهم له ، وكثيرًا ما ترى من هم في جملة الموصوفين بقوله تعالى : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٠] شاكين لبختهم ، فبعضهم يغضب على الفلك ، وبعض يعتب على القدر ، وبعضهم يتجاوز الأسباب فيعاتب اللَّه تعالى ، حتى قال بعض المجان عند قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف : ٣٢] زال المرا ، ولو تولى غيره قسمة أرزاق الورى ، جرت خطوب بيننا لكنها تحت العرا .

وذلك لحرصهم على ارتكاب المقابح ، ولجهلهم بما يقيض اللَّه لعباده من المصالح .

---

(١) « لا تخص أتباعها بل ربما تخطئهم » سقط من (ط) وحدها .

وقول الشاعر :

هذا الذي ترك الألباب حائرة وصير العالم النحرير زنديقًا

فالذي يصير بذلك زنديقًا فبأن يسمى الجاهل الشرير أولى من أن يسمى العالم النحرير ، وقد قال حكيم : سوأة لمن أعطي العلم فجزع لفقد الذهب والفضة ، ولمن أعطي السلامة والدعة فجزع لفقد التعب والألم ، فثمرة العلم السلامة والدعة ، وثمرة المال التعب والألم .

تحقيق كون المال في أيدي الناس

إن اللَّه تعالى أوجد أعراض الدنيا بلغة فاتخذها الناس عقدة ، وجعل الدنيا منزلًا وممرًا فصيروها موطنًا ومقرًا ، إلَّا قليلًا منهم فإنهم أنزلوها حيث أنزلها اللَّه تعالى ، وهم الذين وصفهم بقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، تاجروا بها ربَّهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠ ، ١١] .

فأعراض الدنيا عارية في أيدي الناس مستردة ، كما قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يومًا أن ترد الودائع

وهي من وجه منيحة : منحت الإنسان لينتفع بها مدة ، ويذرها لينتفع بها من بعده .

ومن وجه وديعة في يده : رخص له في استعمالها والانتفاع بها بعد أن لا يسرف فيها . لكن الإنسان لجهله ونسيانه لما عهد إليه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] ، اغترَّ بها فظن أنها قد جعلت له هبة مؤبدة ، فركن إليها واعتمد عليها ، ولم يؤدِ أمانة اللَّه تعالى فيها ، ثم لما طُولب بردها تمنع منه وضجر ، ولم ينزع عنها إلَّا بنزع روحه أو كسر يده وبعضهم - وهم الأقلون - حفظوا ما عهد إليهم فتناولوها تناول العارية والمنيحة والوديعة ، فأدوا فيها الأمانة ، وعلموا أنها مسترجعة ، فلما استردت منهم لم يعضوا ولم يجزعوا ، وردوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها .

وقد ذكر بعض الحكماء في ذلك مثلًا فقال : إن مثل الناس فيما أعطوه من أعراض الدنيا مثل رجل دعا قومًا إلى داره ، فأخذ طبقًا من ذهب ، وجعل عليه بخورًا

ورياحين ، فكان كلما دخل واحد منهم تلقاه به ، ودفعه إليه ، لا ليملكه ، بل ليشمه ويستمتع به ويدفعه إلى من يجيء بعده ، فمن كان جاهلًا برسومهم ظن أنه قد وهب له ، فيضجر إذا استرجع منه ، ومن كان عارفًا برسومهم أخذه بشكر ، ورده بانشراح صدر ، وطيب نفس .

تفاوت أحوال المتناولين لأعراض الدنيا

طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة أضرب :

فالأول : من يتناولها على أي وجه اتفق ، راكنًا إلى المال غير متفكر في المآل ، وإياه قصد تبارك وتعالى بقوله في ذم من ذمه : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة : ٣] .

والثاني : من يتناولها على الوجه الذي يجب تناولها عليه ، وذلك أن يقتصر على ما لا يمكن التبلغ بأقل منه ، من الوجه الذي يجب كما يجب .

ولوجوب تناول هذا القدر قيل : مباحات الصوفية فريضة ، وفريضتهم مباحة . بمعني أنه لا يقدم على تناول مباح حتى يضطر إليه ، (فيتحتم تناوله عليه ، فيصير ما كان مباحًا تناوله فرضًا عليه ، ويفعل من الواجبات فوق ما يجب عليه ، مسارعًا إليه حتى يصير حكمها حكم النوافل) (١) .

وقد روي : « من طلب رزقه على ما سن له فهو في جهاد » (٢) ، وقال ﷺ لابن مسعود : « **إن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة يضعها في في امرأته** » (٣) ، ولم يعن أن كل أحد على كل حال يؤجر في ذلك ، وإنما أراد تخصيص المؤمنين الذين يراعون حكم اللَّه في مكاسبهم وإنفاقهم ويتحرون في ذلك عبادة اللَّه .

والضرب الثالث : من يتوسع في تناولها ويراعي (٤) فيها ما يجب ، لكن يكون فيه وكيلًا للَّه تعالى فيقتصر منها لنفسه على تناول بلغته ، ويجعل الباقي مصروفًا إلى ما دعي إليه ، فهذا أفضل ممن تقدم ذكره ، فإنه يصير بذلك من خلفاء اللَّه ﷻ .

فمن تناول الدنيا على أحد هذين الوجهين فقد ارتسم للَّه ﷻ في قوله تعالى :

---

(١) من « فيتحتم تناوله عليه » إلى « حكم النوافل » سقط من (ط) .

(٢) لم أقف عليه في مظانه ، ويظل كلامًا حتى يثبت عند أهل الحديث رأي فيه .

(٣) رواية البخاري نفس المعنى مع اختلاف يسير في اللفظ . عمدة القاري (٣١٩/١) .

(٤) في (ط) : « ولا يراعي » ، وهي ضد المعنى المقصود .

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وبالاعتبار بمثلهم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، فجعلها لهم إرثًا ، ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٦] ، أي : من تحرى في تناول الدنيا عبادة اللَّه فإنه يبلغ بذلك مقصوده المذكور في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

والفضل هو الإحسان ، فنبّه بذلك أن تناول المال إذا تُحري به الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل وإحسان يستحق به الثواب وعلى ذلك قوله : ﴿ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ ﴾ [النساء : ٣٢] ، وقال في مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب من حيث ما يجب : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] .

في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهر في شأن الدنيا

من تصور الوجوه الثلاثة التي تقدم ذكرها في تناول الدنيا سقطت شبهته فيما ورد من الآيات والأخبار المتفاوتة في الظاهر ، من ذم الدنيا وأعراضها تارة ، ومدحها تارة ، وذلك أن ما جاء من ذمها فاعتبارًا بمن رضيها حظًّا لنفسه ، وجعلها مبلغ مراده ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ [يونس : ٧] .

وما جاء من مدحها فباعتبار تناولها وإنفاقها على ما يحمد ، وعلى ذلك ما قال أمير المؤمنين علي كرم اللَّه وجهه : « الدنيا دار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها . الناس فيها رجلان : رجل باع نفسه فأوبقها ، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها » [١] .

وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الأرضين فقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] ، وقال ﷺ : « **من غرس غرسًا لم يأكل منه طائر ولا بهيمة إلا كان له صدقة** » [٢] . وقد ذم مرة عمارتها فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

---

(١) نهج البلاغة (٣٨٤) .

(٢) لفظ البخاري : « **ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلّا كان له صدقة** » . البخاري : كتاب الأدب (٢٧) حديث (٦٠١٢) ، فتح الباري (١٠/٤٣٨) .

عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم : ٩] ، وقد قال ﷺ : « **الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها** » [(١)] .

أحوال الناس في مراعاة أمور الدنيا والآخرة

الناس في ذلك على ثلاثة أضرب :

صنف : هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى ، وهم المسمون عبدة الطاغوت ، وشر الدواب ، ونحوهما من الأسماء .

وصنف : مخالفون لهم غاية المخالفة ، يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا .

وصنف : متوسط بينهما قد وفوا الدارين حقهما .

وهذا الصنف هم الأفضلون عند الحكماء ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ومنهم عامة الأنبياء ﷺ ؛ لأن اللَّه تعالى بعثهم لإقامة مصالح المعاد والمعاش ؛ ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذي هو أشرف الأحوال ، وأجدر أن يكون ثلاثتهم داخلين في قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧ - ١٢] .

فالمراعي للدنيا والآخرة على ما يحسن وكما يحسن هو من السابقين ، وقد جعل قوم السابقين النساك الذين رفضوا الدنيا بالكلية محتجين بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقد خفي على هذا القائل أن أعظم عبادة اللَّه تعالى ما يكون عائدًا بمصالح عباده ، وقد روى ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « **الخلق كلهم عيال اللَّه فأحب الناس إليه أنفعهم لعياله** » [(٢)] .

---

(١) هو في معنى حديث رواه البخاري : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » . فتح الباري (١١/ ٢٣٣) . لكن الغزالي ذكرها على أنها عبارة للمسيح ﷺ ، وكذا ذكرها أحمد في الزهد . الزهد (٥٨) ، الإحياء (١١٩/١٣) طبعة (١٣٥١هـ) .

(٢) رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن ابن مسعود مرفوعًا ، ورواه آخرون عن أنس مرفوعًا ، ولفظ الطبراني عن ابن مسعود : « **فأحبهم إلى اللَّه أنفعهم لعياله** » ، قال النووي في فتاويه : حديث ضعيف ؛ لأن فيه ابن عطية ضعيف باتفاق الأئمة ، وكذا قال ابن حجر المكي في فتاواه الحديثية . وقال أبو عبد اللَّه السلمي في تخريجه : وله عدة طرق يقوي بعضها بعضًا . كشف الخفاء (٣٨١/١) حديث (١٢٢٠) .

ولأنه كما يقبح أن يشتغل الإنسان بأمر بدنه ودنياه ؛ لأنه يصير مضاد اللَّه في إبطال وتضييع أحد جزئيه المركب عليه ، وكذلك يقبح أن يضيع الجزء الآخر الذي هو بدنه ودنياه ؛ لأنه يصير مضاد اللَّه تعالى في إبطال ما أوجده وأتقنه . فإن قيل : فقد قيل : الناس ثلاثة : رجل شغله معاده عن معاشه وتلك درجة الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده وتلك درجة الهالكين ، ورجل مشتغل بهما وتلك درجة المخاطرين . قال : وقد علم أن الفائز أحسن حالًا من المخاطر .

قيل له : إن المنازل الرفيعة لا تنفك عن المخاطرة ، ولم يقصد هذا القائل بذلك إلى أن يفضل الفائز ، وإنما خوف أن يترشح لخلافة اللَّه من هو قاصر عنها ، ويقوي ذلك ما روي أن بعض أولاد الملوك ممن تقوى في العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد في الدنيا ، فكتب إليه بعض الملوك قد اعتزلت ما نحن فيه فإن علمت أن ما اخترته من ذلك أفضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه ، ولا تحسبن أني أقبل منك قولًا بلا حجة .

فكتب إليه : اعلم أنا عبيد لملك رحيم ، بعثنا إلى حرب عدو ، وعرفنا أن المقصد من ذلك قهره أو السلامة منه ، **فلما قربوا من الزحف صاروا فرقًا ثلاثة** :

متحرزًا : طلب السلامة منه فاعتزل ، فاكتسب ترك الملامة [١] ، وإن لم يكتسب المحمدة .

ومتهورًا : أقدم على غير بصيرة ، فجرحه العدو وقهره ، فاستجلب بذلك سخط ربه .

وشجاعًا : أقدم على بصيرة ، فقاتل وأبلى واجتهد فهو الفائز التام الفوز .

وأنا لما وجدتني ضعيفًا رضيت بأدنى الهمتين وأدون المنزلتين ، فكن أنت أيها الملك من أفضل الطوائف تكن أكرمهم عند اللَّه والسلام .

بيان حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك

الاعتبار في تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال والزهد فيها أو الرغبة ، ليس بتناول القليل والكثير ، بل بتناولها من حيث ما يجب ، ووضعها كما يجب . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه : « لو أن رجلًا أخذ جميع ما في الأرض

---

(١) في (ط) ، (د) : « السلامة » .

وأراد به وجه اللَّه سمي زاهدًا ، ولو أنه ترك جميع ما في الأرض ولم يرد به وجه اللَّه لا يسمى زاهدًا ، ولا كان في ذلك للَّه عابدًا » [١] .

فليكن أخذك ما تأخذه ، وتركك ما تتركه للَّه ﷻ لا لغيره .

واعلم أن الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى راق حاذق ، يتناول حيَّة قد عرف نفعها وضرها ، وأمن سمها وشرها ، فتحرى بتناولها الوجه الذي ينتفع هو به وينفع غيره ، فهو مباح له يتناوله .

وغير الحكيم إذا تناولها فهو كجاهل استحسن الحية واستلان مسها ، فظن أنها مستصلحة ؛ لأن يتقلد بها ، فجعلها سخابًا في عنقه ، فلدغته وقتلته ، وما أحسن ما قال الشاعر في وصفها :

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

فكما لا يجوز للجاهل بالرقية غير العارف بنفع الحية أن يقتدي بالراقي في تناوله الحية والتصرف فيها ، كذلك لا يجوز للجاهل أن يقتدي بالحكيم في تناول أعراض الدنيا . وكما أن محال أن يسلك الأعمى طريقًا وعرًا يسلكه البصير من غير قائد ؛ إذ هو غير آمن من أن يقع في وهده ، فكذلك محال أن يسلك الجاهل مستبدًّا برأيه في تناول أعراض الدنيا طريقًا سلكه الحكيم العالم ؛ إذ هو غير آمن من أن يقع في هاوية . وأيضًا فالدنيا غانية رعناء كما قال :

شيم الغانيات فيها فلا أد ري أفي الغانيات تحسب أم لا

وكما أن الغانية لا يجوز أن يدخل عليها ويخلو بها من الرجال إلَّا من كان مجبوبًا يؤمن عليها ، كذلك الدنيا لا يجوز أن يتمكن منها إلَّا المقطوع عنها بالعفة والزهد ؛ لئلَّا تغره ، وذلك كأمير المؤمنين علي ﷺ حيث قال : « يا حمراء ، يا بيضاء ، احمري وابيضي ، وغري غيري ، هذا جنائي وجناؤه فيه ؛ إذ كل جان يده إلى فيه » [٢] .

---

(١) لم أجدها منسوبة للإمام علي ، ولكن الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) له عبارة بنفس المعنى وبلفظ قريب ذكرها دون أن ينسبها إلى أحد .

(٢) العبارة منسوبة إلى الإمام علي من غير « هذا جنائي إلى آخر ما ذكر هنا » لكن جاءت وفيها هذه العبارات في كنز العمال (١٨٢/١٣) . انظر نهج البلاغة (٣٧٤) ، كشف الخفاء (٣٨٣/٢) ، الأسرار المرفوعة (٣٩١ ، ٣٩٢) ، الشعراني : الطبقات (٢٠/١) .

ومن تصور ذلك علم أن اللّٰه تعالى قد أباح الدنيا كلها لأوليائه ، علمًا منهم أنهم لا يتناولونها إلّا على ما يجب وكما يجب ، وإذا تناولوها وضعوها كما يجب وحيث ما يجب ، وعلى هذا قال : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] ، إلى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها .

ما ينال أرباب الدنيا من العقوبات الدنيوية

للّٰه ﷻ عقوبتان في معاقبة من تناول ما لا يجوز له تناوله من الدنيا ، أو يتناوله من الوجه الذي يجوز له لكنه لم يوف حقه .

إحدى العقوبتين : ظاهرة للبصر والبصيرة ، وذلك عقوبة من غصب مالًا مجاهرة ، أو سرقة خفية ، وكمن منع حق اللّٰه من الزكوات فإن عقوبات ذلك ظاهرة ، وأمر السلطان بإقامتها .

والثانية : خفية عن البصر مدركة ببصائر أولي الألباب كعقوبة من تناول مالًا من حيث لا يجوز تناوله ، أو منعه من حيث لا يجوز منعه ، لا على وجه فيه حد أمر السلطان بإقامته ، فهذا عقوبته ما روي : « أيما عبد سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاث : شغل لا يبلغ مداه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه » ، وما قال عليه السلام : « **من كانت الدنيا أكبر همه شتت اللّٰه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يبال اللّٰه في أي واد من الدنيا أهلكه** » [1] .

وعلى ذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

وليس يعني قلة المعيشة ، وإنما يعني ما يقاسي فيها من الغموم والهموم التي تكدر العيش عليه .

---

(١) روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من كانت الآخرة همه جعل اللّٰه غناه في قلبه ، وجمع شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل اللّٰه فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلّا ما قدر له** » حسن غريب ، وروى أحمد في الزهد ما يقرب من اللفظ المذكور في المخطوطة . الترمذي : القيامة (٣٠) حديث (٢٤٦٥) . الإمام أحمد : كتاب الزهد (٣٣) .

الإنفاق المحمود والإنفاق المذموم

الإنفاق ضربان : ممدوح ومذموم .

فالممدوح : منه ما يكسب صاحبه العدالة ، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله ، كالصدقة المفروضة ، والإنفاق على العيال ، ومنه ما يكسب صاحبه أجرًا وهو الإنفاق على من ألزمت الشريعة الإنفاق عليه ، ومنه ما يكسب صاحبه الحرية ، وهو بذل ما ندبت الشريعة إلى بذله ، فهذا يكتسب من الناس شكرًا ، ومن ولي النعمة أجرًا .

والمذموم ضربان : **إفراط** : وهو التبذير والإسراف ، **وتفريط** : وهو التقتير والإمساك ، وكلاهما يراعى فيه الكيفية والكمية .

فالتبذير من جهة الكمية أن يُعطي أكثر مما يحتمله حاله ، ومن جهة الكيفية فبأن يضعه في غير موضعه ، والاعتبار فيه بالكيفية أكثر منه بالكمية ، فرب منفق درهمًا من ألوف وهو في إنفاقه مسرف وببذله مفسد ظالم ، كمن أعطى فاجرة درهمًا ، أو اشترى خمرًا .

ورب منفق ألوفًا لا يملك غيرها هو فيها مقتصد وببذلها مجتهد ، كما روي في شأن الصديق أبي بكر ﷺ .

وقد قيل لحكيم : متى يكون بذل القليل إسرافًا والكثير اقتصادًا ؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطل وبذل الكثير في حق .

والتقتير من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحتمله حاله ، ومن حيث الكيفية أن يمنع من حيث يجب ، ويضع حيث لا يجب .

والتبذير عند الناس أحمد ؛ لأنه جود لكنه أكثر مما يجب ، والتقتير بخل ، والجود على كل حال أحمد من البخل ؛ لأن رجوع المبذر إلى السخاء سهل ، وارتقاء البخيل إليه صعب ؛ ولأن المبذر قد ينفع غيره وإن أضر بنفسه والمقتر لا ينفع غيره ولا نفسه . على أن التبذير في الحقيقة هو من وجه أقبح ؛ إذ لا إسراف إلَّا وبجانبه حق مضيع ، ولأن التبذير يؤدي بصاحبه إلى أن يظلم غيره ، ولهذا قيل : الشحيح أعذر من الظالم ؛ لأنه جاهل بقدر المال الذي هو سبب استبقاء النفس ، والجهل رأس كل شر ، والمتلاف (المبذر) ظالم من وجهين : لأخذه من غير موضعه ، ووضعه في غير موضعه .

ولكثرة مذام الإسراف ذمّه اللَّه تعالى أعظم مما ذم به البخل فقال : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ [الإسراء : ٢٦ ، ٢٧] ، وقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، ملومًا من جهة من سألك فلم تجد ما تعطيه ، وحسيرًا عن بلوغ مرادك وبهذا ألم المتنبي فقال :

فلا ينحلل في المجد مالك كله ... فينحل مجد كان بالمال عقده

فلا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وليس الإسراف متعلقًا بالمال فقط ، بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائق به ، ألا ترى أن اللَّه تعالى وصف قوم لوط بالإسراف لوضعهم البذر في غير المحرث ، فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] .

ووصف فرعون بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس : ٨٣] .

حقيقة السخاء والجود والشح والبخل

السخاء : هيئة للإنسان داعية إلى بذل المقتنيات ، حصل معه البذل أو لم يحصل ، وذلك خلق ، ويقابله الشح ، **والجود** : بَذْلُك المقتنى ويقابله البخل .

هذا هو الأصل وإن كان قد يستعمل كل واحد منهما في موضع الآخر .

ويدل على صحة هذا الفرق أنهم جعلوا الفاعل من السخاء والشح على بناء الأفعال الغريزية فقالوا : شحيح وسخي ، وقالوا : جواد ، وباخل ، وأما قولهم : بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة ؛ كقولهم : راحم ورحيم .

ولكون السخاء غريزة لم يوصف الباري ﷻ به .

وقد عظم اللَّه تعالى الشح وخوف منه ؛ ولهذا قال ﷺ : « **ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** » [١] ، فخص المطاع لينبه أن الشح في النفس ليس مما يستحق به الذم ؛ إذ ليس هو من فعله ، وإنما يذم بالانقياد له .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ

---

(١) سبق تخريجه .

ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] ، وقال النبي ﷺ : « **لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبدًا** » (١) .

فضيلة الجود وذم البخل

الجود على ألسنة الورى محمود ؛ ولذلك قيل : كفى بالجود حمدًا أن اسمه مطلقًا لا يقع إلَّا في حمد ، وكفى بالبخل ذمًّا أن اسمه مطلقًا لا يقع إلَّا في ذم .

وقيل لحكيم : أي فعل للبشر أشبه بفعل الباري تعالى ؟ فقال : الجود .

وقال ﷺ : « **الجود شجرة من أشجار الجنة ، من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى الجنة ، والبخل شجرة من أشجار النار من أخذ بغصن من أغصانها أداه إلى النار** » (٢) .

ومن شرفه أن اللَّه ﷻ قرن ذكره بالإيمان ، ووصف أهله بالفلاح ، والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين . فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ٣ - ٥] ، وقال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وحق للجود أن يقترن بالإيمان ، فلا شيء أخص به وأشد مجانسة له منه ، فمن صفة المؤمن انشراح الصدر : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وهما من صفات الجواد والبخيل ؛ لأن الجواد يوصف بسعة الصدر للإنفاق ، والبخيل يوصف بضيق الصدر للإمساك .

وقال النبي ﷺ : « **أي دواء أدوأ من البخل** » (٣) .

والبخل ثلاثة أضرب : بخل الإنسان بماله ، وبخله بمال غيره على غيره ، وبخله على نفسه بمال غيره ، وهو أقبح الثلاثة .

والباخل بما في يده باخل بمال اللَّه على نفسه ، وقد تقدم أن المال عارية في يد الإنسان

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) بنفس المعنى مع اختلاف يسير في اللفظ ، روى الدار قطني في الإفراد ، والبيهقي عن علي ، وابن عدي عن أبي هريرة . كشف الخفاء (١/٤٥٠) .

(٣) ورد في البخاري في حديث جابر بقصته كاملة ، وجاء هذا كلامًا لأبي بكر حين قال له جابر : « **فإما أن تعطيني ، وإما أن تبخل عني ؟ قال : أقلت تبخل عني ؟ وأي دواء أدوأ من البخل** » . البخاري : المغازي ، باب (٧٣) حديث (٤٣٨٣) ، فتح الباري (٨/٩٥) .

مستردة ، ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الدائم بمال غيره ، سيما إذا لم يخف من صاحبه تبعة ولا علاقة ، والكفالة الإلهية متكفلة بتعويض المنفق ، فقد قال ﷺ : « **اللَّهم عجل لمنفق خلفًا ، وعجل لممسك تلفًا** » [١] ، وقال : « **إن اللَّه ﷻ ينزل المعونة على العبد بقدر المؤونة** » [٢] ، وقد روي : « **من وسع وسع عليه** » [٣] .

أنواع الجود والمجود به

الجود خمسة أضرب :

جُود الإله تعالى : وهو البذل لكل أحد على قدر استحقاقه .

وجُود الملوك : وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم .

وجُود السوقة : الذين هم دون الملوك : وهو بذل المال للسؤال .

وجُود الصعاليك : وهو البذل للندامى والمعاشرين والشرب .

وجُود عوام الناس : وهو الإحسان إلى الأقارب .

والمحمود من ذلك كله الجود الإلهي ، وهو بذل الموجود بقدر الطاقة لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير امتنان ولا تأذية ، فالمعطي ما يحتاج إليه لمن لا يحتاج إليه مسرف مضيع ، والمعطي غيره شيئًا لرهبة واقٍ نفسه ، والمعطي لرغبة في مثوبة أو لمحمدة دنيوية تاجر .

وقول أبي نواس حيث قال :

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور [٤]

فليس ببالغ في الوصف بالجود التام ، بل وصف بتجارة محمودة ، وأحسن منه قول

---

(١) هذا جزء - مع اختلاف في اللفظ - من حديث أبي هريرة : « **ما من يوم يصبح العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللَّهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللَّهم أعط ممسكًا تلفًا** » ، رواه البخاري . فتح الباري (٣٠٤/٣) .

(٢) في معناه وبلفظ متقارب وردت روايات عديدة ، كما ذكر في نهج البلاغة دون سند . كشف الخفاء (٢٥٤/١) حديث (٢٨٢) ، نهج البلاغة (٣٨٥) .

(٣) « **إذا وسع اللَّه عليكم فأوسعوا على أنفسكم** » هذا لفظ البخاري عن أبي هريرة ، ورواه الترمذي عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، وقال : حسن . انظر : البخاري (٧٨/١ ، ٧٩) ، فيض القدير (٢٩٣/٢) حديث (١٨٨٠) ، الزهد لأحمد بن حنبل (٢٦٨) ، كشف الخفاء (١٠١/١) ، حديث (٢٨٣) .

(٤) انظر مختارات البارودي (١٠٩/١) .

ابن الرومي :

وتـاجـر الـبـر لا يـزال لـه ربحان في كل متجر تجره

أجـر وحـمـد وإنمـا طلب الأجر ولكن كلاهما اعتوره

وقد أجاد بشَّار في قوله :

ليس يعطيك للرجاء أو الخوف ولكـن يلـذ طعـم العطاء [١]

* * *

(١) السابق (١/١٠٤) .



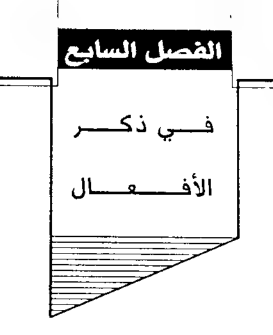

كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفصل السابع

في ذكر الأفعال



في أنواع الأفعال

الأفعال ضربان : إلهي ، وإنساني .

فالإلهي : **أربعة أضرب** : إبداع ، وتكوين ، وتربية ، وإحالة . وجميع ذلك يسمى خلقًا من حيث كان وجود كل واحد بمقدار ، والخلق في الأصل : التقدير المستقيم .

فالأول : **الإبداع** : وهو إيجاد الشيء دفعة لا عن موجود ، ولا بترتيب ، ولا عن نقص إلى كمال ، وليس ذلك إلَّا للباري ﷻ ، وإن كانت العرب قد تستعمل الإبداع فيمن يحفر بئرًا في مكان لم يحفر فيه من قبل ، وفيمن نسج شعرًا أو أورد كلامًا لم ينسج على منواله من قبل .

والثاني : **التكوين** : وهو إيجاد الشيء عن عدم بترتيب ، ومن نقص إلى كمال ، والمتكلمون قد يستعملون التكوين في موضع الإبداع ، ولما هفوا عن حقيقة التكوين أنكروا واستبشعوا قول من قال : السماء ليست بمكونة ، وقدروا أنه يقول : ليست بمبدعة ولا مخلوقة ، وإنما أراد هذا القائل فيما ذكر أصحابه ، ودلَّ عليه كلامه أن الله تعالى أبدعها إبداعًا كما قال : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] ، ولم يخلقها خلقة ناقصة في ابتداء نشأتها ، ثم كملها شيئًا فشيئًا كالإنسان والحيوان والنبات [1] .

والثالث : **رب الشيء** : وهو تغذيته ، وذلك استخلاف ما تحلل من الأبدان فيما

---

(١) التكوين مصطلح فلسفي قال فيه المعجم الفلسفي : « التكوين : هو الإحداث ، والتعبير ، والتخليق ، والاختراع ، والصنع ، والتصوير . ويأتي كثيرًا في كتب الفلسفة القديمة بمعنى الكون القابل للفساد . فتكوين الشيء هو الفعل الذي أحدث به ذلك الشيء حتى وصل إلى حالته الحاضرة ، وهو مجموع الصور التي تعاقبت على الشيء من جهة علاقاتها بالشروط المؤثرة في نموه ، ومنه تكوين الموجودات . ويشترط في التكوين عند الفلاسفة أن يكون مسبوقًا بمادة خلافًا للإبداع الذي يشترط فيه انتفاء المادة ، فله إذن مبدأ أو أصل يستند إليه ؛ ولذلك كان التكوين والأصل متقابلين من جهة ، ومتداخلين من جهة ثانية .

وهو صفة للّٰه تعالى أزلية ، وهو تكوينه للعالم على حسب علمه وإرادته » ، وأما تفصيل الآراء فيها ففي مطولات كتب العقائد وعلم الكلام . د . جميل صليبا : المعجم الفلسفي (١/٣٣٤) (دار الكتاب اللبناني ١٩٧١م) .

وجد عن كون ليبقى المدة المضروبة له ، وبه قيل له تعالى : رب العالمين .

والرابع : **إحالة الشيء** : وهو التغايير اللاحقة لجميع الكائنات في كيفياتها من طعم ولون ورائحة .

والفعل الإنساني ثلاثة أضرب :

نفساني فقط : وهو الأفكار والعلوم ، وما ينسب إلى أفعال القلوب .

وبدني : وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود .

وصناعي : وهو ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس ، كالحرف والصناعات .

الفرق بين العمل والفعل والصنع

الفعل : لفظ عام يقال لما كان بإجادة أو غير إجادة ، ولما كان بعلم أو بغير علم ، وعن قصد أو غير قصد ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات .

وأما العمل : فإنه لا يقال إلَّا لما كان من الحيوان دون ما كان من الجمادات ، ولما كان بقصد وعلم دون ما لم يكن عن قصد وعلم .

قال بعض الأدباء : العمل مقلوب عن العلم ، فإن العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة ، وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم ، وينقلب عنه .

وأما الصنع : فإنه يكون من الإنسان دون سائر الحيوان ، ولا يقال إلَّا لما كان بإجادة ؛ ولهذا يقال للحاذق المجيد والحاذقة المجيدة : صنع وصناع .

والصنع : قد يكون بلا فكر لشرف فاعله ، والفعل قد يكون بلا فكر لنقص فاعله ، (والعمل لا يكون إلَّا بفكر لتوسط فاعله) [(١)] .

والصنع أخص المعاني الثلاثة ، والفعل أعمها ، والعمل أوسطها ، فكل صنع عمل ، وليس كل عمل صنعًا ، وكل عمل فعل ، وليس كل فعل عملًا ، وفارسية هذه الألفاظ تنبئ عن الفرق بينها ، فإنه قيل للفعل : كار ، وللعمل : كردار ، وللصنع : كنش .

أنواع الصناعات

الصناعات ضربان : **علمي وعملي** .

(١) « والعمل لا يكون إلَّا بفكر لتوسط فاعله » سقطت من (ط) ، (د) .

فالعلمي : ما يستغنى فيه عن الاستعانة بالجوارح من اليد والرجل ، كالمعارف الإلهية والحساب .

والعملي : ما يحتاج فيه إلى الاستعانة بالجوارح ، **وذلك ضربان** :

الأول : شيء ينقضي بانقضاء حركة الصانع ، كالرقص والزمر والمحاكاة .

والثاني : شيء يبقى له أثر ، وذلك ضربان : ضرب يبقى له أثر معقول لا محسوس ، كالطب والبيطرة ، وضرب يبقى له أثر محسوس كالبناء والكتابة .

الأفعال الإرادية وغير الإرادية

الأفعال التي تظهر من غير اللّه إما تسخيري ، وإما غير تسخيري .

فالتسخيري : هو الذي يظهر ممن يظهر منه لا بقصد وإرادة منه ، وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان غير الناطق ، **وذلك نوعان** : نوع بتسخير الباري تعالى ، كإحراق النار الحديد ، وتبريد الثلج الماء ، وضرب بتسخير البشر كطحن الرحا ، ودور الدولاب .

وأما غير التسخيري فضربان : ضرب يكون من فاعله مبدأ الإرادة ، وضرب لا يكون منه مبدأ الإرادة ، والذي يكون منه مبدأ الإرادة ثلاثة :

الأول : بحسب التمييز كمن تناول الخير دون الشر مؤثرًا له .

والثاني : بحسب الغضب كمن بطش بمن يغضب عليه .

والثالث : بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه لشهوته ، والذي لا يكون منه مبدأ الإرادة له ضربان :

ضرب لا يكون منه مبدأ الإرادة ولا منتهاها ، كمن رمى إلى غرض فأصاب شخصًا .

وضرب لا يكون منه مبدأ الإرادة ولكن يكون منه منتهاها ، كمن حصل في سفينة فخاف الغرق فكلف أن يلقي متاعه في البحر ليتخلص .

والأفعال من الجمادات تقع بالتسخير فقط .

ومن النبات تقع بالتسخير وبالنزاع الذي تقتضيه القوة الشهوية .

ومن الحيوانات تقع بهما وبالغلبة التي تقتضيها القوة الغضبية ، ومن الإنسان تكون بكل ذلك ، وبالفكرة التي تقتضيها القوة العقلية .

ما يستحق به من الأفعال اللوم وما لا يستحق به ذلك

الأفعال ضربان : إرادي وغير إرادي .

والإرادي ضربان : ضرب عن روية ، وضرب لا عن روية .

فالذي عن روية ضربان : **أحدهما** : الذي عن روية تظن في غاية الشرف ، وهو ما يكون بحسب النفس الناطقة ، ويسمى الاختيار ، وهو طلب ما هو خير له ، ويستحق به أبدًا الحمد إذا كان على الحقيقة اختيارًا .

والثاني : عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف ، وذلك إما بحسب القوة الغضبية : وهو دفع ما يضره ، وإما بحسب القوة الشهوية . وكل منهما إذا كان بقدر ما يوجبه العقل يستحق به الحمد ، وإذا كان زائدًا أو ناقصًا عما يوجبه العقل يستحق به الذم .

والإرادي الذي عن غير روية واختيار ضربان :

أحدهما : ما يفعله في نفسه .

والثاني : ما يفعله بغيره .

وكل واحد منهما ضربان : نفع وضر . فما قصد به نفع نفسه فقد يستحق به الحمد وما قصد به نفع غيره فقد يستحق به الحمد والشكر معًا ، وما قصد به ضر نفسه فقد يستحق به الذم ، وما قصد به ضر غيره فقد يستحق به الذم والعتب عليه .

وغير الإرادي ثلاثة أضرب : **الضرب الأول** : أن يكون قسريًا ، وهو : ما يكون مبدؤه من خارج ولا يكون من أربابه معونة بوجه ، كمن دفعته ريح فسقط على آنية فكسرها ، فلا ملامة فيه بوجه . **والثاني** : أن يكون إلجائيًا كمن أكرهه سلطان على أن يفعل فعلًا ما ، وهذا متى كان الملجأ إليه قبيحًا جدًا ، والسبب الملجئ إليه خفيفًا يستحق مرتكبه الذم ، كمن يُضرب ليقتل إنسانًا ، ومتى كان الملجأ إليه ليس بجد قبيح ، والسبب الملجئ إليه عظيمًا ، لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلقه السيف ويُهدَّد أن يُقتل إن لم يتكلم بكلام قبيح ، وكلاهما يقال له : إكراه .

والثالث : الخطأ ، وهو ما يكون مبدؤه من صاحبه وذلك نوعان :

أحدهما : ما تولد عن فعل وقع منه ، وله أن يفعله ، كمن يرمي هدفًا فأصاب

إنسانًا ، وذلك لا يستحق به ملامة ، ما لم يقع من صاحبه تقصير في الاحتراز .

والثاني : ما يتولد عن فعل ليس له أن يفعله ، كمن شرب فسكر ، فحمله سكره على أن كسر إناء أو ضرب إنسانًا ، فإن ذلك يستحق الملامة وإن لم يرد كسر الإناء وضرب الإنسان ، فقد ارتكب محظورًا أدى به إلى وقوع ذلك منه .

فالضرب الأول يقال فيه : أخطأ فهو مخطئ ، والثاني يقال فيه : خطئ فهو خاطئ ؛ **ولهذا قال أهل اللغة** : خطئ ما كان على سبيل العمد ، وأخطأ ما كان على سبيل السهو .

الأسباب التي يمكن نسبة الفعل إليها

أكثر الأسباب التي يحتاج إليها الفعل في وجوده عشرة أشياء :

يحتاج في حصوله إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار ، وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب ، وإلى عمل كالنجر ، وإلى زمان ، وإلى مكان يعمل فيهما ، وإلى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت ، وإلى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب ، وإلى غرض بعيد كتحصين البيت به ، وإلى مثال يعمل عليه ويحتذي به ، وإلى مرشد يرشده . وكل ذلك قد ينسب إليه الفعل فيقول : أعطاني زيد ؛ إذا باشر الإعطاء ، وأعطاني اللَّه ؛ لما كان هو الميسر له ، وربما جمع بين السبب القريب والبعيد ، فيقول : أعطاني اللَّه وزيد . قال الشاعر :

حبانا بها جدنا والإله وضرب لنا أجذم صارم

فنسب إلى السبب الأول وهو اللَّه تعالى ، وإلى السبب المتأخر وهو الضرب ، وإلى المتوسط وهو الجد ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وقال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] ، فأسند الفعل في الأول إلى الآمر به ، وفي الثاني إلى المباشر له . وقد قال الشاعر في صفة درع : وألبسنيه الهالكي . وقال : كساهم محرق ، فنسب الفعل إلى عاملها ، وفي الثاني إلى مستعملها . وقال في صفة نباله : كستها ريشها مضرحية ، فنسب كسوتها إلى الطائر الذي اتخذ ريشه فجعل لها .

وقد قيل : يداك أوكتا ، وفوك نفخ ؛ فنسب الفعل إلى الآلة المتصلة ، ويقال : سيف قاطع ؛ فنسب الفعل إلى الآلة المنفصلة ، وقيل : ضرب فيصل وفاصل ، وطعن خائف ؛

فنسب إلى الخوف ، وقيل : سر كاتم ، وعيشة راضية ؛ فنسب إلى المفعول .

وقال تعالى : ﴿ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ [القصص : ٥٧] فنسب إلى المكان ، وقيل : يوم صائم وليل ساهر ، وقد قيل :

.... وما ليل المطي بنائم [1] .

فنسبه إلى الزمان .

فلما كانت أفعاله على ذلك صح في الفعل الواحد أن يثبت لأحد الأسباب مرة ، وينفي عنه مرة بنظرين مختلفين ، وعلى ذلك قول الشاعر :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حَرمت من لم يُحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه معًا بنظرين مختلفين .

ويقال : هذا الخشب قطعته أنا لا السكين ، ويقال : قطعته السكين ولم أقطعه ، ويقال : فلان هداه اللّٰه ، وهداه الرسول ، وهداه القرآن ، وهداه فهمه ، فنسب إلى كل ذلك . ويقال : وأضله اللّٰه لما كان تعالى هو السبب الأول في وجوده ، ووجود سببه المضل ، ووجود الآلة ، وإن لم يكن هو تعالى الداعي له إلى الضلالة ، ويقال : أضله الشيطان لما كان هو الداعي إلى الضلال . (ويقال) : أضلته نفسه لما كانت هي التي تركت الاحتراز .

وهذا فصل من تصوره لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من الألفاظ ، فينظر من اللفظ إلى المعنى ، بل ينظر في نحو هذا من المعنى إلى اللفظ .

واعلم أن من أجل هذا الذي قدمنا ذكره قال قوم من المحصلين : لا شيء من الأفعال فاعله فاعل واحد على الحقيقة إلّا اللّٰه تعالى ، فإن فعله يستغني عن المكان ، والزمان ، والآلة ، والمادة ، وعن مثال يحتذيه .

ومن عداه تعالى من الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو من بعضه ؛ ولهذا لا يصح أن ينسب الإبداع إلى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازًا ، ويصح أن يثبت فعل غير اللّٰه على ما تقدم .

---

(١) هو لجرير ، وتكملته :

لقد لمتني يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

ديوان جرير : تحقيق د. نعمان طه (٩٩٣/٢) .

قال **الشيخ أبو القاسم الراغب** رحمه الله : هذا آخر ما قصدت تبيينه من هذا المعنى ، وأختم القول بحمد الله تعالى ، والثناء عليه ، والتضرع إليه في أن ينفعني وإخواني بما تحريته ، ويجعلني ممن تذكر فذكر ، وتبصر فبصر ، واتعظ فوعظ ، وتيقظ فأيقظ ، فأعظم الهجنة أن يأمر من لم يأتمر ، ويزجر من لا ينزجر ، (وأن يدعي الحكمة من إذا تلقته المحاسن لا تجتبيه ، وإذا تلقته المساوئ لا تجتويه) [١] ، يرى القذاة في عيون إخوانه فينكرها ، ويترك الجذع المعترض في أجفانه لا يغيره ، ينصح غيره ويغش نفسه :

كمن كسا الناس من عري وعورته للناس بادية ما إن يواريها

وكالمسن الذي يشحذ الحديد ولا يقطع ، وكالحجر الصلد الذي يمر به الماء النافع فلا ينتفع هو به . وقد قال ﷺ : « **إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم** » [٢] .

فنرغب إليه تعالى أن يجعلنا برحمته ممن ائتمر لنبيه ﷺ حيث قال : « **اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك** » [٣] . فما أعظم في القيامة الحسرة والندامة إن لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل شيء ، فسهِّل يا رب المجاز ، ويسِّر لي الجواز ، فقد حان حصادي وإن لم يصلح فسادي ولم يحصل رشادي ، اللهم صلِّ على خاتم النبيين محمد وآله أجمعين .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، أفضل ما صليت على أحد من خلقك صلاة لا تنقضي أبدًا ، ولا تحصى عددًا . واغفر لكاتبه ولصاحبه ولوالديه ولجميع المسلمين ، ولمن قال آمين يا رب العالمين .

---

(١) وأن يدعي الحكمة إلى « لا تجتويه » سقط من (ط) وحدها .

(٢) رواه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح .

(٣) « **اغتنم خمسًا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك** » أخرجه الإمام أحمد والنسائي وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عن عمرو بن ميمون مرسلًا ، والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس مرفوعًا ، قال الحاكم : على شرطهما ، وأقره الذهبي ، ورمز السيوطي لصحته ، وتعقبه المناوي بأن فيه جعفر بن بلقان ، أورده الذهبي في الضعفاء والمتروكين . قال فيه ابن حجر : صدوق يهم في حديث الزهري . البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني الحنفي والدمشقي (٢٦٤) الجزء الأول . تحقيق د . الحسيني هاشم . (طبعة دار الكتب الحديثة بمصر) .

وقع الفراغ من نساخة هذا الكتاب بمدينة عدن لعشر ليالٍ مضين من شهر ذي القعدة من شهور سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة (٥٩٢هـ) . غفر اللَّه لكاتبه ، ونفع به صاحبه ، وألهمه لما فيه ، واستعمله بما يرضيه بمحمد وآله الطاهرين .

وصلى اللَّه على رسوله سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليمًا .

* * *




كتاب

الذريعة إلى مكارم الشريعة

الفهرس

- فهرس آيات القرآن الكريم .
- فهرس الحديث الشريف .
- فهرس الآثار المنسوبة إلى قائلها .
- فهرس الأعلام الواردة في متن الكتاب والدراسة .
- فهرس الألفاظ والمصطلحات المتصلة بموضوع الكتاب الأساسي .
- فهرس المراجع .
- فهرس الموضوعات .




فهرس آيات القرآن الكريم

سُورَة المَائدة

سُورَة الأنعَام

سُورَة الرّعـد

سُورَة إبراهيـم

سُورَة الحِجْـر

سُورَة الكهْف

سُورَة مَريَم

* * *

فهرس الحديث الشريف

* * *

فهرس الآثار المنسوبة إلى قائليها

* * *

فهرس الأعلام الواردة في متن الكتاب والدراسة

* * *

فهرس الألفاظ والمصطلحات المتصلة بموضوع الكتاب الأساسي

* * *

فهرس المراجع

* **القرآن الكريم**

* **كتب الصحاح والتخريج وكتب الجرح والتعديل**

* **ابن أبي طالب (الإمام علي)**

- نهج البلاغة .

شرح الإمام محمد عبده ، تحقيق د . محمد البنا ، ومحمد عاشور د. ت .

* **إبراهيم (أحمد عبد الرحمن – د)**

- الفضائل الخلقية في الإسلام .

الرياض – دار العلوم سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

* **أحمد (عباس محمد)**

- الراغب الأصفهاني ومنهجه في كتابه المفردات .

ماجستير – آداب إسكندرية ١٩٧١م .

* **الأصفهاني (الحسين بن محمد الراغب)**

- المفردات في غريب القرآن .

تقديم د . محمد خلف اللّه . الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .

* **الأصفهاني (أبو نعيم)**

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .

طبعة الخانجي ١٩٣٨م مصر .

* **أمين (أحمد)**

- الأخلاق – الطبعة الأولى ١٩١٤م – لجنة التأليف والترجمة والنشر .

- ظهر الإسلام – طبعة أولى – ١٩٥٢م .

* **بدوي (د . الرحمن)**

- من مؤلفات الغزالي .

طبعة ثانية – الكويت – ١٩٧٧م .

* **بروكلمان (كارل)**

- تاريخ الأدب العربي .

ترجمة د . رمضان عبد التواب وآخر – دار المعارف – مصر .

* **البغدادي (الجنيد بن محمد)**
- رسائل الجنيد .
تحرير د . حسن عبد القادر سنة ١٩٦٦م .
* **البيهقي (ظهير الدين)**
- تاريخ حكماء الإسلام .
تحقيق . محمد كرد علي - مطبوعات المجمع العلمي بدمشق .
* **الترمذي (محمد بن علي . الحكيم)**
- الأكياس والمغترين .
خ جامعة القاهرة رقم : ٢٦٠٣٤ .
- الرياضة وأدب النفس .
نشر آريري - ترجمة علي حسن عبد القادر .
- الفروق ومنع الترادف .
خ ضمن مجموعة : ٢١٨١٧ دار الكتب .
* **ابن تيمية (أحمد عبد الحليم)**
- درء تعارض العقل والنقل .
تحقيق د . محمد رشاد سالم .
طبعة جامعة الإمام بالرياض .
- الفتاوى .
دار الإفتاء بالرياض - ١٣٩٨هـ .
* الجاحظ (أبو عثمان بن بحر)
- البيان والتبيين .
طبعة رابعة - ١٣٩٥هـ - الخانجي .
* **الجرجاني (علي بن محمد)**
- التعريفات .
طبعة ١٣٢١هـ - مصر .
* **الجليند (د . محمد السيد)**
- مشكلة الخير والشر لدى المعتزلة .

طبعة أولى - ١٩٧٧م .
* **ابن حزم (علي بن أحمد)**
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس .
طبعة أولى - د ت .
* **ابن حنبل (الإمام أحمد)**
- الزهد .
دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٨هـ .
* **الخرَّاز (أبو سعيد)**
- كتاب الصدق .
تحقيق د . عبد الحليم محمود - ١٩٦٨م - مصر .
* **خليفة (حاجي)** .
- كشف الظنون .
منشورات مكتبة المثنى ببغداد - د . ت .
* **الخوانساري (محمد باقر الموسوي)** .
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات .
طهران - د ت .
* **دائرة المعارف الإسلامية (مادة الراغب)**
* **دراز (د . محمد عبد اللَّه)** .
- دستور الأخلاق في القرآن الكريم .
ترجمة د . عبد الصبور شاهين - مؤسسة الرسالة - ١٩٧٣م - بيروت .
* **دروزة (محمد عزة)**
- الدستور القرآني في شئون الحياة .
طبعة الحلبي - ١٩٥٦م - مصر .
* **الرازي (أبو زكريا محمد بن زكريا)**
- الطب الروحاني .
تحقيق د . عبد اللطيف العبد .
النهضة المصرية - ١٩٩٧م .

* **الرازي (أبو بكر محمد بن زكريا ت ٣١٣هـ)**
- الطب الروحاني .
تحقيق د . عبد اللطيف العبد - النهضة المصرية ١٩٧٨م .
* **الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ)**
- تفسير الفخر الرازي .
طبعة طهران . طبعة ثانية .
* **الزركلي (خير الدين)**
- الأعلام
- طبعة دار العلم - ١٩٧٩م .
* **الزنيدي (عبد الرحمن)**
- العقل ومجالاته في الإسلام .
ماجستير - شريعة الرياض - ١٤٠٢هـ .
* **السبكي (تاج الدين عبد الوهاب)**
- طبقات الشافعية .
دار المعرفة - بيروت ، مصورة عن الطبعة الثانية .
* **سعد (طه عبد الرءوف) (مقدم)**
- الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني .
نشر الكليات الأزهرية - ١٩٧٢م .
* **ابن السمعاني**
- قواطع الأدلة في الأصول .
تحقيق د . محمد حسن هيتو .
نشر بمجلة معهد المخطوطات العربية - يونية ١٩٨٢م .
* **السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)**
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
الطبعة الأولى - سنة ١٩٦٥م .

* **الشرقاوي (د . محمد عبد اللّه)**
- العقل عند الصوفية .
ماجستير - دار العلوم - سنة ١٩٧٧م .
* **الشعراني (عبد الوهاب)**
- الطبقات الكبرى - طبعة ١٣٠٥هـ - مصر .
* **صبحي (د / أحمد)**
- الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي .
دار المعارف بالإسكندرية ١٩٦٩م .
* **الطويل (د . توفيق)**
- الفلسفة الخلقية - طبعة ١٩٦٧م - مصر
* **ابن عبد ربه**
- العقد الفريد .
طبعة بولاق - ١٢٩٣هـ .
* **ابن عبد الوهاب (محمد المصلح)**
- كتاب التوحيد .
طبعة المنظمات الطلابية .
* **عتيق (د . عبد العزيز)**
- علم المعاني .
دار النهضة العربية ١٩٧٤م .
* **عثمان (د . عبد الكريم)**
- معالم الثقافة الإسلامية .
طبعة ثالثة - مؤسسة الأنوار الرياض ١٩٧٩م .
* **عرفة (د . محمد عبد اللّه)**
- المرأة في الإسلام .
طبعة أولى - الرياض ١٩٨٣م .
* **عطية (أحمد)**
- القاموس الإعلامي .

- مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م .
* **العقاد (عباس محمود)**
- الإنسان في القرآن .
ضمن موسوعة العقاد الإسلامية - بيروت .
* **علي (محمد كرد)**
- كنوز الأجداد .
طبع المجمع العلمي بدمشق ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م .
* **الغزالي (الإمام محمد - أبو حامد)**
- إحياء علوم الدين .
طبعة ١٣٥٧هـ .
* **قاسم (د . محمود)**
- في النفس والعقل .
طبعة ثالثة .
* **قراعة (محمود) .**
- الأخلاق من الحديث وفتاوى ابن تيمية .
طبعة ١٩٦٤ بمصر .
* **القرطبي (أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصاري)**
- تفسير القرطبي .
طبعة الشعب - مصر .
* **القشيري (عبد الكريم)**
- الرسالة القشيرية .
طبعة صبيح ١٢٨٤هـ .
* **ابن قيم الجوزية (أبو عبد اللّه محمد بن أبي بكر)**
- إغاثة اللهفان .
تحقيق سيد كيلاني - طبعة ١٩٣٩م .
- مدارج السالكين .
طبعة ١٩٥٦م .

* **كاريل (الكسيس)**
- تأملات في سلوك الإنسان .
ترجمة : محمد القصاص - طبعة ١٩٤٩م .
* **ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمرو)**
- تفسير ابن كثير .
دار الفكر بيروت ١٩٧٠ .
* **كرسون (أندريه)**
- المشكلة الأخلاقية .
ترجمة د . أبو بكر ذكري ، د . عبد الحليم محمود - الطبعة الثانية .
* **الماوردي (علي بن محمد بن حبيب) .**
- أدب الدنيا والدين .
تحقيق د . مصطفى السقا .
طبعة الحلبي - مصر .
* **مبارك (د . زكي)**
- الأخلاق عند الغزالي .
الطبعة الأولى - ١٩٢٤م .
* **مجمع اللغة العربية بالقاهرة**
- المجمع الوسيط
* **المحاسبي (الحارث بن أسد) .**
- رسالة المسترشدين .
تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة - ١٩٦٤م .
- الرعاية لحقوق اللّه .
تحقيق د . عبد الحليم محمود - د . طه سرور - د . ت .
- المسائل في أعمال القلوب .
تحقيق : عبد القادر عطا - ١٩٦٠م .
* **ابن مسكويه (أحمد بن محمد) .**
- تهذيب الأخلاق .

طبعة بيروت - ١٩٦١م - تحقيق : قسطنطين زريق .

* **المكي (أبو طالب)**

- قوت القلوب

طبعة أولى ١٩٦٣م .

* **ابن منظور**

- لسان العرب

دار الكتب العلمية - د ت .

* **موسى (د . محمد يوسف)**

- تاريخ الأخلاق في الإسلام .

طبعة ثانية - ١٩٥٣م .

- فلسفة الأخلاق في الإسلام .

الطبعة الثانية - ١٩٤٥م .

* **يالجن (د . مقداد)**

- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام .

- الخانجي - مصر - ١٩٧٣م .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الفَصْلُ الثَّاني

الفَصِلُ الثَّالِثُ

الفصل الرابع

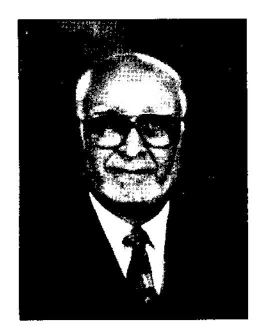
الفصل الخامس

الفَصْلُ السَّادِسُ

فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل

* * *

السيرة الذاتية للمحقق



- أ.د : أبو اليزيد أبو زيد أبو اليزيد العجمي .
- ولد عام ١٩٤٢م في محافظة الغربية .
- درس في الأزهر حتى الثانوية الأزهرية عام ١٩٦٣م .
- التحق بكلية دار العلوم - وتخرج فيها عام ١٩٦٧م .
- حصل على الماجستير في الفلسفة الإسلامية من كلية دار العلوم عام ١٩٧٧م بتقدير ممتاز ، وتوصية لطبع الرسالة على حساب الجامعة وتبادلها بين الجامعات .
- حصل على الدكتوراة في الفلسفة الإسلامية من كلية دار العلوم عام ١٩٨١م بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .
- رُقِّي إلى أستاذ مساعد عام ١٩٨٦م .
- رقي إلى أستاذ عام ١٩٩٤م .

* **ودرَّس في العديد من الجامعات ، منها :**

- جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض .
- جامعة صنعاء - اليمن .
- جامعة الأمير عبد القادر - الجزائر .
- الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد - باكستان .

* **وشغل العديد من الوظائف العلمية والإدارية ، منها :**

- نائب رئيس تحرير حولية الجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد .
- رئيس قسم العقيدة والدعوة - جامعة الكويت .

* **وله العديد من المؤلفات ، منها :**

- حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم .
- في المعرفة الإنسانية بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي .
- دراسات إسلامية .
- الحضارة الإسلامية ، وجه جديد .

● في التصوف الإسلامي .

* **وحقق العديد من الكتب ، منها :**

● نجاة الخلف في اعتقاد السلف لابن قائد النجدي .

● فرائض الإسلام للحسن البصري .

* **وله أكثر من خمسة وعشرين بحثًا نشرت في دوريات علمية ، منها :**

● الفكر الإسلامي الحديث وفاعلية الإنسان .

● هل أرخ المسلمون لعلم أخلاق إسلامي ؟

* * *